جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

أثر أبي العتاهية في الشعر الأندلسي

إعداد الطالب
طارق محمد فرحان السلامين

إشراف الأستاذ الدكتور
فايز عبد النبي القيسي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه
في الأدب العربي قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2014م

الآراء الواردة في الرسالة الجامعية لا تعبِّر
بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة

بسم الله الرحمن الرحيم

MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (١٤)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب طارق محمد السلامين الموسومة بـ:

اثر أبي العتاهيه في الشعر الاندلسي

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في **اللغة العربية**.

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. فايز عبدالنبي القيسي		٢٠١٤/١٢/٩	مشرفاً ورئيسا
أ.د. محمد علي الشوابكة		٢٠١٤/١٢/٩	عضواً
أ.د. علي ارشيد المحاسنة		٢٠١٤/١٢/٩	عضواً
د. ابراهيم منصور ياسين		٢٠١٤/١٢/٩	عضواً

عميد الدراسات العليا
د. علي الضمور

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :٦١٧١٠
تلفون :٠٣/٢٣٧٢٣٨٠-٩٩
فرعي 5328-5330
فاكس ٠٣/٢ 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهداء

إلى الرُّوح الطَّاهرة التي انكسرت يوم رحيلها الخواطر، وجرحُ غيابها ما زال ينزف...، **روح والدي**، حيث هي في جنَّات الخلد- إن شاء الله-.

إلى التي لم تجد سبيلاً يدرأ عنها وهج الانتظار، إلَّا دعوات صادقة تلامس عنان السَّماء في ساعة السَّحر... **والدتي العزيزة**- أمدَّ الله في عمرها-.

إلى التي جعلت من تغيُّبي في الدَّرس حضوراً دائماً تلاطف به صغارها؛ إحساساً بالمسؤوليّة، والشَّوق ما زال في قلبها يخبو ويشتعل... **زوجتي الفاضلة**.

إلى اللَّذين تعجز أبجديَّات الوصف، وتفقد عبارات الوفاء قيمتها أمام تشجيعهما لي أن أحثَّ الرِّكاب في هذه الرحلة العلمية التي طالما استحوذت على وجداني... **أخَوَيَّ الكريمين**.

إلى فلذات كبدي: الذين جرى طيفهم في خيالي عندما أفقدهم انشغالي بهذا العمل بعض عاطفة الأبوَّة... **شهد، وسُرى، وعبدالله**.

أهدي هذا الجهد المتواضع.

طارق محمد فرحان السلامين

الشكر والتقدير

بعد حمدِ الله وشُكره على ما منَّ عليَّ من إتمامِ هذا العمل، أتقدَّم بفائق الشُّكر وعميق العرفان وعظيم الامتنان لأستاذي الكبير ومعلِّمي الجليل الأستاذ الدكتور فايز القيسي، المشرف على هذا العمل، بما أولاني من حسن رعايته، ومنحني من كريم عطائه ما أعانني على إنجاز هذا العمل، واستحضرُ في هذا السِّياق قول الرسول ﷺ: "من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإنْ لمْ تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنَّكم قد كافأتموه"؛ فلا أملكُ إلَّا أن أرفع أكفَّ الضَّراعة إلى الله تعالى أن يجعل جهوده الكبيرة في ميزان أعماله يوم القيامة، كما أتقدَّم بخالص الشُّكر إلى الأساتذة الأجلَّاء أعضاء لجنة المناقشة: الأستاذ الدكتور محمَّد الشوابكة، والأستاذ الدكتور علي المحاسنة، والدكتور إبراهيم الياسين، الَّذين تكرَّموا بقبول مناقشة هذه الرِّسالة، ضارعاً إلى الله تعالى أنْ يكلأهم بعين رعايته، وأن يجزيهم خير الجزاء.

والشُّكر موصول إلى الزملاء الكرام في مكتبتيّ جامعة مؤتة وسلطة منطقة العقبة الخاصة، على ما قدَّموه من خدمات وتسهيلات أسهمت في إنجاز هذا العمل، والشُّكر كذلك للزميل أحمد النصيرات الذي تكبَّد عناء جلب المصادر والمراجع بجهده الشَّخصيّ.

طارق محمد فرحان السلامين

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
فهرس المحتويات	ج
الملخص باللغة العربية	هـ
الملخص باللغة الإنجليزية	و
مقدمة	1
الفصل الأول: دخول شعر أبي العتاهية الأندلس	**6**
1.1 أثر الثقافة المشرقية في الأدب الأندلسي	6
2.1 كيفيّة دخول أشعار أبي العتاهية الأندلس	19
الفصل الثاني: تأثير شعر أبي العتاهية في مضامين الخطاب الشعري الأندلسي	**41**
1.2 الأغراض والموضوعات	41
2.2 العظات الدينية	46
3.2 الحكم الأخلاقية	73
4.2 الابتهالات الدينية	78
5.2 تجديد الأندلسيين في معاني أبي العتاهية	82
الفصل الثالث: تأثير شعر أبي العتاهية في بناء الخطاب الشعري الأندلسي	**94**
1.3 تحوير المعاني	95
2.3 التضمين	110
1.2.3 التضمين النصي	113
2.2.3 التضمين الإشاري	116
3.3 المعارضات	120
1.3.3 المعارضات التامة	122

2.3.3 المعارضات الناقصة 128
4.3 أثر الصورة الشعرية 135
الخاتمة 145
المراجع 147

الملخص

أثر أبي العتاهية في الشِّعر الأندلسي

طارق السلامين

جامعة مؤتة، 2014

شكَّلت أشعار أبي العتاهية الزُّهدية رافداً مهمَّاً من روافد ثقافة الشُّعراء الأندلسيِّين، ولمَّا كان أبو العتاهية واحداً من زعماء الاتجاه المحدث في العصر العبَّاسيّ الذي غلب فن الزُّهد على شعرهم، فقد حظيت أشعاره بإعجابٍ عزَّ نظيره من لدن شعراء الأندلس الذين أخذوا يردِّدون أشعاره في مجالسهم، وينظمون على منوالها؛ حتى غدت بلا منازعٍ أحد الرَّوافد التي أسهمت في شيوع حركة الزُّهد عندهم، وبلغ حدّ إعجابهم بتلك الأشعار، أن عمدوا إلى تضمينها، ومعارضتها، وتحوير معانيها، واستعارة بعض صورها؛ للتعبير عن تجاربهم في الحياة، إيماناً منهم بالمنزلة السامية التي بلغتها أشعاره، وأملاً في إثبات مقدرتهم الفنيّة من خلال محاكاتهم لشعره وتقليدهم لمنهجه. من هنا، فقد جاءت هذه الدَّراسة لبيان أثر أبي العتاهية في الشِّعر الأندلسي، إذْ تبيَّن أنَّ الشُّعراء الأندلسيِّين حاكوا أشعاره وقلَّدوها واستمدُّوا منها ما جعل أشعارهم قادرة على مواكبة الحياة، غير أنَّ هذا التَّقليد لم يكن تقليداً أعمى بقدر ما كان يسعى إلى إثبات الذَّات الأندلسيّة وتفوُّقها. وقد توصَّلت الدراسة إلى أنَّ أشعار أبي العتاهية دخلت الأندلس في نهايات القرن الثاني وبدايات القرن الثالث الهجري عبر طرق شتَّى أهمّها رحلة الوافدين على الأندلس من علماء المشرق وأدبائه، ورحلة الأندلسيِّين إلى بلاد المشرق، إذْ عادوا محمَّلين بروائع الثقافة المشرقيّة، وكثرة الكتب والمؤلَّفات الشِّعرية التي ألَّفها الأندلسيُّون وضمَّت أشعاراً مشرقيّة كثيرة كانت أشعار أبي العتاهية في طليعتها. وقد أظهرت الدراسة أثر شعر أبي العتاهية في مضامين الخطاب الشِّعري الأندلسي، حيث تمَّ تناول الألوان الزُّهدية التي تضمَّنتها أشعاره التي تُعدُّ أصداء للحياة الزَّاهدة التي كان يحياها، وقد شملت هذه الألوان العظات الدينيّة والحكم الأخلاقية والابتهالات، وكلّها يفيض بجوٍّ إيماني مُشبع بالتَّقوى. إذْ استطاع أبو العتاهية أن يصوغ هذه الألوان صياغة فنيّة سهلة تبدو وكأنَّها خطب دينيّة، ومن خلال تأثُّر هؤلاء الشُّعراء بالشِّعر العتاهي استطاعوا أن يجدِّدوا في معانيه، إذْ عرضوا ما قلَّدوه في ثوبٍ جديد، وبرعوا في رسمه وتكوينه، وأضافوا إليه من ذواتهم، وطبعوه بأفكارهم، حتى بدت الشخصيّة الأندلسيّة في هذا الشِّعر واضحة جليّة. ولم يقف هذا الأثر عن هذا الحدّ، بل لقد حوَّروا معانيه وضمَّنوا أشعاره وعارضوها بقصائد تشهد لهم بالقدرة على التفاعل مع تراثهم الأدبي وإفادتهم منه، وليس هذا فحسب، بل لقد شقَّت الصورة الشِّعرية طريقها إلى شعر الزُّهد رغم البساطة التي اتَّسم بها، وقد تأثَّر الشُّعراء الأندلسيُّون ببعض صور أبي العتاهية، حيث تراءت أمامهم تلك الصور، وتمثَّلوها وصبُّوها في قوالب شعريّة خاصّة بهم؛ ليعبِّروا من خلالها عن قدراتهم الأدبيّة ورؤاهم الفنيّة.

Abstract

The impact of Abu Al-Atahiya on the Andalusian Poetry

Tareq Al-Salameen

Mutah University, 2014

This moral poems of Abu Al-Atahiya formed an important source from the branches of Andalusian Poets cultural. Since Abu-Al-Atahiya was one of the pioneers of the modernized attitude in the Abbasid era (who was famous for the art of asceticism in their poetry), his poems gained a distingnished excitement by the poets of Al-Andalus who used to repeat his poems in their boards and compose their poems in the same way, so that his poems fromed an important branch that contributed to enhacing the movement of asceticism at that time. They were so fascinated with those poems in that they quoted them, opposed them, explained their meanings and borrowed some of their images and metaphors, in order to express their experiences in life. In reference to the Abbasid poets belief in the high position of Abu Al-Atahiya poems, hoping that they prove their artistic ability by imitating his poems and his poetical diction.

This study is designed to clarify the impact of Abu Al-Atahiya in the Andalusian poetry. This study shows that the Andalusi poets imitated his poets and extracted the elements that enhance their own poems in order to cope with life attitudes. This kind of imitation wasn't arbitray as it aimed to prove the Adulasian identity and its superiority. The study concluded that the poets of Abu Al-Atahiya reached Al-Andalus at the end of the second century A.H. and the beginning of the third century A.H. by different methods, such as: the traveling of the newcomers to Al-Andalus from the eastern parts of the Arab countries as well as the Adnalusian travelling to the eastern regions, in which these travellers came back with the great eastern knowledge, besides, too many sources and poetical works which were composed by the Andalusian, particularily, the poetical works of Abu Al-Atahiya.

The study clarified the impact of Abu Al-Atahiya on the contents of the Andalusian poetical production, in which the ascetical types which he included in his poems were addressed as they reflected the ascetical life that he lived. These ascetical types included the religious preaches, as well as the ethical proverbs, that are filled with the sense of belief and religiosity. Abu Al-Atahiya was able to formulate them in a simple artistic formula which look like religious speech. Being influenced by the poetry of Abu Al-Atahiya, those poets were able to renew its meanings, in which they offered their poems in a new style, and they excelled in its composition, added to it, and internalized it from their own ideas, in which the Adualusian personality was evidente in this poetry. They also modified the meanings of his poetry, quoted his poems and opposed his poems with their own poems which revealed that they were excellent enoughy and can respond to their literary legacy. In addition, the poetical image made its own way in the asceticism poetry despite its simplicity. The Andalusian poets were influenced by the images of Abu Al-Atahiya, in which they represented these images and metaphors in special poetical structure and expressed their literary abilities and artistic visions.

المقدَّمة:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، حمد الشَّاكرين لنعمهِ، والصَّلاة والسَّلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحابته الطيِّبين الطَّاهرين ومن سار على دربهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدِّين، وبعد،

فقد حظيت أشعار أبي العتاهية (130–211هـ) الزُّهدية باهتمامٍ كبيرٍ، وتبوَّأت منزلة مرموقة من لدن شعراء الأندلس؛ الذين رأوا في تلك الأشعار تياراً دينياً قوياً زاد من اهتمامهم به وباتجاهه الشِّعري، فقد كان أبو العتاهية واحداً من الشُّعراء المبدعين الذين لو شاء أن يجعل كلامه كلَّه شعراً لفعل، وهو الذي حظي بشهادات كثير من معاصريه بأنَّه أشعر النَّاس في زمانهم.

وإذا كان المؤرِّخون قد أجمعوا على أنَّ أبا العتاهية في أوَّل أمره كان يمدح ويهجو ويرثي ويتغزَّل كسائر شعراء عصره، فإنَّهم متَّفقون على أنَّه شاعر الزُّهد بلا منازع، إذْ لم يكد يبلغ الخمسين حتَّى تحوَّل إلى هذا السبيل، وقدَّمَ باباً واسعاً من أبواب الشعر هو شعر الزُّهد، إذْ اصطنع هذا الموضوع الشِّعري واتَّخذه طريقة فنية مندفعاً إليها بشوق، ولسنا هنا في تتبُّع الأسباب والمحركات المباشرة التي حرَّكت في نفسه رغبتها الزهدية، بقدر ما نسعى إلى بيان الأثر الذي تركته أشعاره الزهدية في شعر الأندلسيِّين.

لقد شقَّت أشعار أبي العتاهية طريقها إلى مسامع الشُّعراء الأندلسيِّين، فاتَّكأوا في توظيفهم للمعاني الزُّهدية على عدّة أنماط، منها التضمين، والمعارضة، واستعارة الصورة الشِّعرية، وتحوير المعاني، كما أفادوا منها في الأغراض والموضوعات، وأساليب بناء القصيدة الزهدية، حتى غدت إحدى الروافد الأساسية التي أسهمت في نضج حركة الزهد في الأندلس.

وكشفت هذه الدراسة عمَّا استمدَّه هؤلاء الشُّعراء من شعر أبي العتاهية، وما أغنى إبداعاتهم الشِّعرية، ومدَّ أخيلتهم بصورٍ موحيةٍ شفَّافةٍ من هذا الشاعر العباسي الذي استحوذت قصائد الزُّهد على وجدانه بعد أن تكشَّفت له الحياة سراباً خدَّاعاً؛ فراح يدغدغ بها الجوارح، ويستميل إليها القلوب، ويحرِّك فيها القدرة على التأمُّل والتصوُّر.

وليس ثمَّة شكٌّ في أنَّ تجارب أبي العتاهية في الحياة دفعته ليداري إحساسه بالفعال الحميدة والتقوى:

أَلَا إنَّما التَّقْوَى هِيَ العِزُّ والكَرَمْ وَحُبُّكَ للدُّنْيَا هُوَ الفَقْرُ والعَدَمْ

إنَّ تحوُّل أبي العتاهية من شاعريّة النَّسيب والغزل إلى شاعريّة الزُّهد والتَّرهيب من مصير الموت والزَّوال أطفأت في جنباتها أضواء حب الدُّنيا، وأخمدت في ثناياها رغبات الحياة والوجود، وأوجدت في نفسه رهبة المصير الإنساني وسكينة الموت التي طالما أصبحت همَّاً يؤرقه، وصورة حيَّة استحوذت على وجدانه.

لم تملّ شفاه الشُّعراء الأندلسيِّين ترديد أشعار أبي العتاهية التي لم تفقد شيئاً من وهجها وجدّتها في وجداناتهم؛ إذْ رأوا في تلك الأشعار – لاسيّما الزُّهدية– مورداً عذباً ينهلون منه أجمل المعاني التي تنمِّي خبراتهم الفنيّة، وتُلهم أذواقهم الشِّعرية، فقاموا باستنطاق تلك الأشعار ونقل تجربته الزُّهديّة لتجاربهم الذَّاتيّة، محقِّقين بذلك أسمى صور التَّواصل مع التراث الذي يمثِّل الجذور الأساسيّة لتكوينهم الفكري والوجداني، من خلال تحويل روافده المختلفة إلى أنساقٍ شعريّة تجسِّد الصِّفة الشِّعرية للنَّص، مستغلة طاقات اللغة التي تمنح الإبداع الشِّعري قيماً فنيّة وجماليّة متعدِّدة.

لقد كان تأثُّر الشُّعراء الأندلسيِّين بشعر أبي العتاهية تجسيداً عملياً لذاك الاهتمام الكبير الذي حظيت به قصائد الزهد العتاهية من قبلهم. ولم يكن هدف هذه الدراسة الوقوف على عمليتيّ التأثُّر والتأثير بين الجانبين، وتأثير السابق في اللاحق، بقدر ما تُعنى برؤية النتائج المترتِّبة على ذاك التأثُّر. إذْ كانت أشعار أبي العتاهية الزُّهدية من البواعث المحفِّزة التي عملت على تقوية هذا الغرض الشِّعري وترسيخه في نفوس الأندلسيِّين، فراجت القصائد الزُّهدية وازدهرت ازدهاراً ملحوظاً، حتى غدا الزُّهد الأندلسي تياراً واسعاً وعميقاً، إذْ ليس ثمّة شكّ أنَّ أشعار الزُّهد في الأندلس ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأصولها الأولى في المشرق، وقد كان ذوق الأدباء والنقَّاد الأندلسيِّين يستسيغ هذا اللَّون الشِّعري ويضعه موضعه السامي؛ لذا، استغرق الزُّهد مساحة واسعة من دواوين بعض الشُّعراء الأندلسيِّين، كما منح بعضهم الزُّهد من أشعاره الشطر الأكبر.

ولا نستطيع أن نجزم أنَّ جميع أشعار أبي العتاهية الزُّهدية، قد وصلت إلينا، إذْ فُقِدَ كثيرٌ منها، وربَّما كان الامتداد التاريخي قد حال دون استقصاء جميع ما نُظم، بل ربما كان قصور الباحثين في الوصول إلى هذه الأشعار في مصادرها الأساسية سبباً آخر أيضاً، على أنَّ الحصيلة الشِّعرية التي ضمَّها ديوانه تكشف عن الأثر الذي تركته تلك الأشعار في الشعر الأندلسي.

وإذا كان أبو العتاهية قد راح يحاول تطويع القصيدة الزُّهدية مضموناً وشكلاً لتكون قادرة على الوفاء بحاجات مجتمعه آنذاك- فاستطاع بذلك أن يرسي تقاليد تلك القصيدة-، فإنَّ الشُّعراء الأندلسيِّين استكملوا مقوماتها الفنيّة، مستمدِّين من روحها العتاهي ما تسمو به نفوسهم من آفاقٍ روحانية صافية تحمل في ثناياها ملامح النور وتختفي منها حجب الظلام؛ فراحو يستوحون أشعاره الزُّهدية ويوظِّفونها بأساليب مختلفة تعكس مقدرتهم الشِّعرية وتألُّقهم في توظيف المعاني الزُّهدية، وتكشف عن مدى إفادتهم من مضامين تراثهم الأدبي بما يغني تجاربهم الشِّعرية، ويخلِّد ذاك التراث الأدبي، ويثبت أصالتهم وانتماءهم إليه.

والغريب في الأمر، هو غياب دور الباحثين في تناول هذا الأثر الكبير الذي تركته أشعار أبي العتاهية في الشعر الأندلسي رغم الأهميّة الكبيرة والمنزلة السامية التي بلغتها تلك الأشعار في نفوس الأندلسيِّين، إذْ لم أتوصَّل في حدود قراءَاتي لدراسةٍ مستقلة شاملة تناولت هذا الموضوع، باستثناء ما تناثر في ثنايا المؤلَّفات من إشارات سريعة وعابرة لا تعدو إلَّا أن تكون شواهد حيّة تثبت ذاك الأثر، غير أنَّ ثمَّة مقالةً أدبيَّةً جاءت في عدد متواضع من الصفحات قدَّمه الدكتور عبد الرحيم حمدان بعنوان "معالم شخصية أبي العتاهية في الأندلس"، وهي دراسة جديرة بالعناية والتَّقدير؛ لِمَا أسهمته بإيجاز في بيان ذاك الأثر العتاهي في الشعر الأندلسي بأسلوبٍ فنِّيٍّ يكشف عن جماليَّات الإبداع والتألُّق.

من هنا، فإنَّ هذه الدراسة- التي لا تخلو من الهفوات والعيوب- هي محاولة تهدف إلى تسليط الضُّوء على بعض جوانب الأثر الذي تركته أشعار أبي العتاهية الزُّهدية في الشعر الأندلسي، وتلفت أنظار الباحثين إلى ضرورة تلمُّس جوانب ذاك

الأثر بشكلٍ تفصيلي، ففي أدبنا العربي الضارب في عروق التاريخ درر وكنائز هي في أمسّ الحاجة إلى من يزيل عنها صدأ الزمان ويخرجها للوجود.

وقد تكوَّنت الدراسة من مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة، خُصِّص الفصل الأول للحديث عن دخول شعر أبي العتاهية الأندلس، ومظاهر اهتمام الأندلسيِّين به، وبيان أثر الثقافة المشرقيّة في الأدب الأندلسي، والدور الذي أدَّته تلك الثقافة في الحفاظ على تراثها السابق الذي يُعدُّ إرثاً حضارياً يظل موصولاً بماضيها، إضافة إلى أهم العوامل التي أسهمت في نقل الثقافة المشرقيّة إلى الأندلس، وفي جملتها أشعار أبي العتاهية.

وجاء الفصل الثاني لبيان تأثير شعر أبي العتاهية في مضامين الخطاب الشِّعري الأندلسي، إذْ تناول الباحث الأغراض الزُّهدية الرئيسة التي قدَّمها أبو العتاهية في شعره الزُّهدي، حيث كان لتلك الأغراض كياناً وحضوراً لدى الشُّعراء الأندلسيِّين، كما توقَّف الفصل عند مظهر من مظاهر التأثُّر وهو تجديد الأندلسيِّين في معاني أبي العتاهية، إذْ قاموا بتناول تلك المعاني وتجديدها بأساليب فنيّة متعدِّدة.

أمَّا الفصل الثالث، فقد تناول تأثير شعر أبي العتاهية في بناء الخطاب الشِّعري الأندلسي، حيث وقف الباحث على عدّة موضوعات ضمن هذا الإطار هي: تحوير المعاني والتضمين والمعارضة والصورة الشِّعرية، إذ كشفت هذه المحاور عن مدى ولع الأندلسيِّين بشعر أبي العتاهية وسعيهم إلى تقليده ومجاراته في فنِّه الزُّهدي، كما كشفت عن عمق العلاقة التي تربط أدبهم بالأدب المشرقي.

أمَّا الخاتمة، فقد تضمَّنت النتائج العامّة التي توصَّل إليها الباحث من خلال هذه الدراسة، وقد تمَّ اعتماد المنهج الاستقرائي الوصفي في استقراء النُّصوص، إذْ تمَّ تناول النُّصوص على أسسٍ موضوعيّة وفنيّة.

وقد تنوَّعت مصادر البحث، إذْ إنَّ ثمّة مصادر رئيسة اعتمدها الباحث، ككتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام الشنتريني، و"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" للمقَّري، و"قلائد العقيان ومحاسن الأعيان" لابن خاقان، و"طبقات النَّحويين واللغويين" للزُّبيدي، و"المُغرب في حلى المغرب" لابن سعيد المغربي، و"جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس" للحُمَيْدي، و"بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس"، و"الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال" لابن

عبدالبر القرطبي، إضافة إلى مصادر أُخرى كثيرة تمَّ ذكرها ضمن قائمة مصادر هذه الدراسة ومراجعها.

وأمَّا المراجع، فثمّة مجموعة من المراجع كان لها الفضل الأكبر، إذْ أفاد الباحث من أساليب مؤلِّفيها وطرق معالجتهم للموضوعات. ومن أهم هذه المراجع: ""استيحاء التراث في الشعر الأندلسي عصر الطَّوائف والمرابطين" لإبراهيم الياسين، و"حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة" ليوسف خليف، و"الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف والمرابطين" لمنجد مصطفى بهجت، و"اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري" لنافع محمود، و"تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة" لإحسان عبَّاس، و"أثر أبي العلاء المعرِّي في الأدب الأندلسي" لهناء أبو الرب، و"ديوان أبي العتاهية" بشرح وتقديم عمر فاروق الطباع، إضافة إلى دواوين الشُّعراء الأندلسيين، وعدد آخر من المراجع التي أسهمت في خدمة هذه الدراسة، إذْ تمَّ إدراجها في قائمة المراجع في نهاية الدراسة.

ويأمل الباحث بهذه المحاولة التي لا تخلو من التقصير، استنهاض همم أصحاب الفكر وحملة الأقلام أن يتعمَّقوا في دراسة هذه القضيّة ومثيلاتها من قضايا أدبنا العربيّ؛ لعلَّهم يحقِّقون لأدب هذه الأمّة وتراثها الخالد ما تصبو إليه النُّفوس وتشرئب له القلوب.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الآخرين، فإنَّه سبحانه نعم المولى ونعم المجيب.

الفصل الأول

دخول شعر أبي العتاهية الأندلس

1.1 أثر الثقافة المشرقية في الأدب الأندلسي

يُشكِّل الشعر الأندلسي جزءاً مهمَّاً من الشعر العربي، إذ نجد تشابهاً كبيراً بين الشعر الأندلسي والشعر المحدث؛ نظراً للمعاصرة ولطبيعة العلاقات الثقافيّة التي كانت سائدة بين الأندلس والمشرق، فالمؤثرات المشرقية واضحة المعالم في الأدب الأندلسي، والحضارة الأندلسية في بدايتها كانت مشرقية لانتماء أصحابها إلى المشرق، ثم بظهور الجيل الجديد الذي تعلم وتثقف بثقافة عربية أصيلة بدأت في محاكاة مناطق التأثير، ثم بدأت الاستقلالية عندما استوى عود الثقافة الأندلسية، وكثرت الينابيع الثقافية بين علماء ومفكرين ومكتبات وبلاطات أدبية ورحلات علمية[1].

إنّ الشعر الأندلسي هو شعر عربي قيل وكُتب بلغةٍ عربيةٍ، فهو جزء لا يتجزّأ من الأدب العربي وإن بعُدت المسافة، لذا فإنّ الحديث عن صلة الشعر الأندلسي بنظيره المشرقي يُعد أمراً بدهياً؛ ذلك أنّ الشِّعرين متعاصران، وأن العلاقة بينهما علاقة تأثّر وتأثير.

وليس بدعاً أن يخضع الشعر الأندلسي في بعض مظاهره للمؤثرات المشرقية خضوعاً تاماً، فثمة عوامل كثيرة ساعدت على ذلك لعلّ أهمّها أنّ الأساس الأول للثقافة والأدب في المشرق والمغرب هو القرآن الكريم وعلوم الدين واللغة والأدب الجاهلي[2].

ثمّ إن الظروف المحيطة بالعرب في الأندلس أسهمت في تقوية التأثير المشرقي، فقد كان الصراع بين العرب والإسبان شديداً، وكان الإحساس الذي يلامس مشاعر العرب أنهم حماة الإسلام والعروبة في تلك البقاع، فكان هذا الموقف السياسي

([1]) ثقفان، عبدالله بن علي، ظاهرة الانتماء في الأدب الأندلسي، مجلة دراسات أندلسية، العدد11، رجب 1414هـ-1994م، ص51.

([2]) محمود، نافع، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990م، ص101.

والديني يدعو إلى التمسّك بالتقاليد العربية الموروثة والمحافظة على تراث المسلمين، ومن هنا استقرّ في قلوب الشُّعراء الاحتفاظ بتقاليد الشعر الموروث[1].

والشعر الأندلسي في حقيقته لم يبدأ بالظهور إلا في حدود 200هـ كما يرى الدكتور إحسان عباس[2]، فهو من الناحية الزمنية أخذ يتكوّن حيث كان الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس، ويقف على مفترق الطريق بين مذهبي أبي تمام والبحتري.

وقد اتخّذ الأندلسيُّون شعر المحدثين مثالاً يهتدون به، ولا يعني هذا أنهم لم يلتفتوا إلى شعر العرب الأوائل، ولكن نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم[3].

فمن الطبيعي إذن أن نجد تشابهاً جليّاً بين الأدبين الأندلسي والمشرقي عامة والعباسي خاصة، فقد دفع ولع الأدباء الأندلسيِّين بأدب المشارقة إلى تقليدهم ومجاراتهم في معظم أعمالهم الأدبية، وهذا ما أنكره ابن بسام على أبناء قومه[4]: "إلا أنّ أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى

([1]) محمود، نافع، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ص101.

([2]) هناك نماذج مبكرة من الطارئين الأوائل كأبي الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي، ذكرهم المقَّري في النفح: "ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما، ولو أُنصف لاستشهد بشعره، فهو على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين"، انظر: المقَّري، أحمد بن محمَّد، (ت1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ط1، دار الفكر، بيروت، 1419هـ-1999م، ج4، ص21.

([3]) عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ط1، دار الشروق، عمان، 2001م، ص42.

([4]) أبو الرب، هناء، أثر أبي العلاء المعري في الأدب الأندلسي، ط1، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، 2009م، ص17-18.

قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنماً وتلوا ذلك كتاباً محكماً"[1].

ولم يرق لابن بسام موقف قومه، فألّف كتابه الموسوم بـ"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، وأودعه "من عجائب علم الأندلسيِّين وغرائب نثرهم ونظمهم ما هو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقة، وأشهى من معاطاة العقار على نغمات المثالث والأزيار؛ لأنَّ أهل هذه الجزيرة – مذ كانوا– رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة، تدفقوا فأنْسَوا البحور وأشرقوا فباروا الشموس والبدور[2].

ولم ينفرد ابن بسام في الدفاع عن أهل الأندلس، فثمة أدباء آخرون عركتهم آلام التَّقليد ودفعتهم ثقتهم بقدرة أدبائهم على التأليف، فكتبوا رسائل في الدفاع عن الثقافة الأندلسية مبيّنين فيها تفوّق أهل الأندلس على المشارقة في ميادين كثيرة، ولعلّ ابن حزم الفقيه الأندلسي[3]، كان أحد المدافعين عن تلك الثقافة، فكتب رسالة بيَّن فيها فضائل الأندلسيِّين[4]، مفتخراً بالمكانة التي نالها الأندلسيُّون، ومما جاء في رسالته: "ولو لم يكن لنا من فحول الشُّعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطليّ لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي، فكيف لنا ومعه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد

([1]) ابن بسَّام، أبو الحسن علي بن بسام، (ت542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ/1997م، ق1 م1، ص12.

([2]) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص14.

([3]) هو أبو محمَّد أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الظاهري، ولد بقرطبة سنة 384هـ، كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث واللغة من تصانيفه: "الفصل في الملل والأهواء والنّحل، وجمهرة الأنساب، والناسخ والمنسوخ، والإحكام لأصول الأحكام والمفاضلة بين الصحابة وطوق الحمامة"، توفي سنة 456هـ؛ انظر ترجمته في: ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمَّد بن عبيدالله، (ت529هـ)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس، ط1، تحقيق: محمَّد علي شوابكة، دار عمار ومؤسسة الرسالة، بيروت، 1403هـ/1983م، ص279.

([4]) انظر: نص الرسالة في المقَّري، نفح الطيب، ج4، ص7–22.

بن عبد الملك بن مروان وأغلب بن شعيب ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج وعبد الملك بن سعيد المرادي، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه وحصان ممسوح الغرّة"[1].

وعلى الرّغم من تميّزه هو وأمثاله في إظهار الثقافة الأندلسية في صورة مثلى، فإنَّه شكا في بعض أشعاره إعراض قومه عن مآثر أدبائهم وعدم تقديرهم لجهودهم، وفي ذلك يقول[2]:

أنَـا الشَّـمْسُ فـي جَـوِّ العُلـومِ مُنيـرةً ... ولكِـــنَّ عَيْبِـــي أنَّ مَطْلَعـــيَ الغَـــرْبُ

ولـو أنَّنـي مِـنْ جَانِـبِ الشَّـرْقِ طَـالِعٌ ... لجدَّ علـى مَـا ضَـاعَ مِـنْ ذِكْـرِيَ النَّهْـبُ

فَـوَا عَجَبـاً مَـنْ غَـابَ عَـنْهُم تَشَـوَّقُوا ... لَـــهُ ودُنـــوُّ المَـــرْءِ مِـــنْ دارِهـــم ذَنْـــبُ

وكان الشقندي[3]، قد كتب رسالة ردّ فيها على ابن المعلم الطنجي وبيّن فيها فضائل الأندلس[4]، جاء فيها: "وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن درّاج الذي قال فيه الثعالبي: هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام"[5].

ولم يقف الحد عند هؤلاء، فهذا الفتح بن خاقان يشير في ترجمة ابن السيد البطليوسي[6]، إلى مساهمة الأخير في تخليد مآثر الأندلسيِّين وتسجيل أروع ما أنتجته

([1]) انظر نص الرسالة في المقَّري، نفح الطيب، ج4، ص21.

([2]) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1 م1، ص173.

([3]) الشّقندي: هو أبو الوليد إسماعيل بن محمَّد (629هـ) له رسالة في تفضيل الأندلس أورد فيها من المحاسن ما يشهد له بلطافة المنزع، كان جامعاً لفنون من العلوم الحديثة والقديمة، وشُقندة المنسوب إليها: قرية مطلّة على نهر قرطبة، مجاورة لها من جهة الجنوب، انظر، المقَّري، نفح الطيب، ج4، ص55.

([4]) انظر نص الرسالة في المقَّري، نفح الطيب، ج4، ص27-55.

([5]) المقَّري، نفح الطيب، ج4، ص33.

([6]) هو الإمام النحوي، الأديب اللغوي عبدالله بن محمَّد بن محمَّد البطليوسي، ولد سنة 444هـ، وأصله من شلب إلا أنه لازم بطليوس، من مؤلفاته: شرح أدب الكتاب، شرح الموطأ، شرح سقط الزند، شرح ديوان المتنبي، إصلاح الخلل، الواقع في الجمل، المسائل المنشورة في النحو، توفي سنة 521هـ، انظر ترجمته في ابن خاقان، أبي نصر الفتح بن محمَّد بن عبيد الله، قلائد

قرائحهم من النظم الرائع والنثر البديع من خلال ترجمة أدبية لأستاذه ابن السيد البطليوسي، الذي يُعدّ واحداً من أعلام الأندلس في اللغة والأدب والفكر، حيث كشفت تلك الترجمة عن اعتداد الفتح بن خاقان بقدراته الفنية واعتزازه بمكانته الأدبية التي برز بها معاصريه، وسعيه للكشف عن موهبته في الإنشاء الأدبي، حيث أشار ابن خاقان إلى أنه وضع هذا المؤلف رغبة منه في إظهار تفوقه على كبار أعلام الكلام وفرسان البلاغة القدامى[1]، حيث يقول: "ورأيت فيه فضل الأواخر على الأوائل وجريت به أمام سحبان وائل[2]، وتركت ورائي قسّ إياد[3]"[4].

وإذا كان بعض الباحثين قد تجاوز الخوض في قضيّة تقليد الأندلسيِّين للمشارقة –متكئين في ذلك على حجج وآراء مختلفة– فإنّ الواقع يؤكِّد أنَّ التأثير المشرقي لم يكن عائقاً أمام إبداعات الأندلسيِّين، ولعلّ موقف الحميدي صاحب جذوة المقتبس واعتذاره عن وضع مؤلّف يضم أخبار الأندلس فيه دلالة كبيرة، إذ يقول: "فإنّ بعض من التزم واجب شكره عليّ جميلُ برّه، لما وصلت إلى بغداد وحصلت من إفادته على أفضل مُستفاد، نبّهني على أن أجمع ما يحضرني من أسماء رواة الحديث بالأندلس، وأهل الفقه والأدب، وذوي النباهة والشعر ومن له ذكر منهم... فأعلمته ببعدي عن

العقيان ومحاسن الأعيان، ط1، تحقيق: حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، الزرقاء، 1409هـ/1989م، ج3، ص708.

([1]) القيسي، فايز، ترجمة ابن السيد البطليوسي للفتح بن خاقان، دراسة وتحقيق: المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد الرابع، العدد الثاني، ربيع أول 1429هـ، نيسان 2008م، ص61–64.

([2]) هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي، من باهلة، كان خطيباً يُضرب به المثل في البيان والفصاحة، انظر: البكري أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز، (487هـ)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة، بيروت 1971، ص496.

([3]) قُس بن ساعدة بن عمرو الأيادي، أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، انظر البستاني، بطرس، أدباء العرب في الجاهلية والإسلام، دار مارون عبود، توزيع دار الجيل 1979م، ج1، ص254.

([4]) القيسي، ترجمة ابن السيد البطليوسي، المجلة الأردنية في اللغة العربية، ص64.

مكان هذا المطلوب وأني إن رمته على قلة ما عندي وتعاطيته على انقطاع موادّي وبعدي، لم أخل من أحد وجهين: إمّا أن أبخس القوم حظّهم وأُنقصهم فضلهم فأتعرض للائمتهم فيما أوردت وأقف موقف الاعتذار فيما له قصدت، وإمّا أن أُوهم من رأى قلة جمعي ونهاية ما في وسعي أنّه ليس من أهل الفضل في تلك البلاد إلا نزر من الأعداد"[1].

فهو يعتذر عن وضع المؤلّف الذي طلب منه لسببين: إما أن يُنقص الأندلسيِّين فضلهم ولا يفيهم حقهم فيتعرض للومهم، وإمّا أن يوهم من رأى قلة ما جمعه أنّه لا يوجد من أهل الفضل في الأندلس إلا عدد قليل.

فمظاهر التأثير المشرقي في الأدب الأندلسي واضحة جليّة ولكن لا يعني هذا أنَّ الأدب الأندلسي قلّد الأدب المشرقي تقليداً أعمى، إنما أنتج من تقليده طاقات مُتجدّدة استجابت لمظاهر الحياة الأندلسية، وأظهرت طموح الشاعر الأندلسي إلى صياغة بنية متجدّدة لنتاجه الشِّعري لاسيّما في شعر الطبيعة.

لعلّ هذه الشواهد[2]، تدل على سعي الأندلسيِّين إلى إظهار قدراتهم الإبداعيّة وتمكنهم من استيعاب الظواهر الحياتية المختلفة والتعبير عنها، واتساع حصيلتهم الثقافية، ومن ثم مساهمتهم في إنتاج نصوص أدبية متميزة، وإذا كان التطور الحضاري الذي شهده العصر العباسي قد أثّر في توجيه تفكير الشُّعراء واتساع دائرة ثقافتهم وتعمقهم في المعاني بأداء شعري يمنح الذهن الشِّعري سمة فنية جمالية كبيرة[3]، فإنَّ البيئة الأندلسية منحت شعراءها القدرة على تنشيط اللغة الشِّعرية الدّالة

([1]) الحميدي، أبو محمَّد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ط1، تحقيق: روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/ 1997م، ص11.

([2]) لمزيد من الاطلاع حول دفاع الأندلسيِّين عن أدبهم، انظر: الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن محمَّد (440هـ)، البديع في وصف الربيع، ط1، تحقيق: عبدالله عبد الرحيم عسيلان، دار المدني، جدة، 1987م، ص4 وما بعدها.

([3]) انظر: الجبوري، سعد، ثقافة الشاعر وأثرها في معايير النقد العربي القديم حتى نهاية العصر العباسي، ط1، الدار المتحدة ومؤسسة الرسالة، دمشق، 1422هـ/2002م، ص58.

على سموّ ثقافتهم فاستعادوا منها أجمل ما فيها من خيوط لكي ينسجوا منها صورهم الشِّعرية، فيكون تأثرهم بالثقافة المشرقية محاولة منهم لإيجاد قاعدة فكرية في بلادهم تعد امتداداً لما كان في المشرق وتجديداً يعبر عن شعور الأندلسيِّين بانتمائهم لأندلسيتهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن النخبة في المجتمع الأندلسي كانت تتذوق الشعر بقوة وعمق، إذ لم تشغلهم الحرب أو السياسة عن اهتماماتهم الأدبية المفضلة، فالخليفة المستظهر يتباحث – رغم أحداث الفتنة ومعارك البربر[1]–، في الآداب ونظم الشعر مع أبي عامر بن شهيد وأبي محمد بن حزم، وكان المعتضد بن عباد ينظم الأبيات من الشعر يصف فيها نفسه، فكان أصدق من أي مؤلف أو مؤرخ أو كاتب آخر تحدّث عنه، وأما ابنه المعتمد فكان يمثل شخصية الشاعر الأندلسي المتميز بإبداعه، وقد حاول خلال فترة حكمه أن يجعل من إشبيلية مهوى الأفئدة وأشدّ البلاد جذباً للأدباء[2].

لقد أصبح النتاج الشِّعري الأندلسي يمثِّل أعلى درجات الإبداع الفني لديهم، ذلك أنه أصبح قادراً على تطويع لغته الشِّعرية لاستيعاب جميع الأغراض بأداء فني بارع وخيال متألق وإيحاء متجدد، وهذا يستوجب على من يقرأ الشعر الأندلسي ألا يتعامل مع نصوصه بوصفها شعراً بالمفهوم الفني للشعر فحسب، بل لكونها نظماً يؤدي غرضاً موضوعياً لخدمة فكرة محددة، فالشعر عند الأندلسيِّين له مكانة سامية وشأن كبير، يقول المقَّري: "والشعر عندهم له حظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظ ووظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة،

([1]) لمزيد من الاطلاع حول الفتنة البربرية انظر: عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة القرطبة، ص121–128.

([2]) بيريس، هنري، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية، ط1، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، 1408هـ/1988، ص58–61.

ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم، وإذا كان الشخص بالأندلس نحويّاً أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويستخف ويُظهر العُجْب، عادةً قد جُبلوا عليها"[1].

وقد بلغ الشعر الأندلسي منزلة سامية حيث أقرّ بذلك المشارقة، فقد ذُكر أنّ الشاعر يحيى بن الحكم الملقّب بالغزال[2]، رحل إلى العراق وذلك بعد موت أبي نواس بمدة يسيرة، فوجدهم يلهجون بذكره ولا يساوون شعر أحد بشعره، فجلس يوماً مع جماعة منهم فأزْروا بأهل الأندلس واستهجنوا أشعارهم، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله:[3]

ولمَّا رأيتُ الشُّرْبَ أكْدَتْ سَمَاؤهم ... تأبَّطْتُ زِقّي واحتَبستُ عَنائي

فلمَّا أتَيتُ الحَانَ نَاديتُ ربَّه ... فَهبَّ خَفيفَ الرُّوحِ نَحْوَ نِدَائي

قليلَ هجوعَ العينِ إلا تعلّةً ... على وجَلٍ منِّي ومِنْ نُظَرَائي

فقلتُ أذِقنيها فَلمَّا أذَاقَني ... طَرَحْتُ إليه رَيْطتي ورِدَائي

وقلتُ أعِرْنِي بذلةً أسْتَتِرْ بِهَا ... بَذَلْتُ لَهُ فيها طَلاقَ نِسائي

فواللهِ ما برَّتْ يَميني ولا وفَتْ ... لهُ غيرَ أنِّي ضَامنٌ بِوَفَائي

فَأُبْتُ إلى صَحْبِي وَلَمْ أكُ آيِباً ... فكلٌّ يفُدِّيني وحَقَّ فِدَائي

([1]) المقَّري، نفح الطيب، ج1، ص182.

([2]) هو يحيى بن الحكم البكري الجياني الملقب بالغزال لجماله وهو في المائة الثالثة من بني بكر بن وائل، كان حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها، عمر أربعاً وتسعين سنة وعاصر خمسة من الخلفاء المروانيين بالأندلس أولهم عبدالرحمن بن معاوية وآخرهم الأمير محمَّد بن عبدالرحمن بن الحكم، وكان الغزال أقذع في هجاء علي بن نافع المعروف بزرياب، فشكا للسلطان وعرض هجوه عليه وما قذفه به، فأمر السلطان بنفيه، فكلمه فيه أكابر أهل دولته فتركه، ثم إن الغزال لم يطب نفساً بالمقام في الأندلس، فرحل إلى العراق، انظر: المقَّري، نفح الطيب، ج2، ص380.

([3]) ابن دحية، ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن (633هـ) المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد بدوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1954م، ص148.

فأُعجبوا بالشِّعر وذهبوا في مدحهم له، فلمَّا أفرطوا قال لهم: خفّضوا عليكم فإنه لي، فأنكروا ذلك، فأنشدهم قصيده الذي أولّه:

تداركت في شرب النبيذ خطائي وفارقت فيه شيمتي وحيائي

فلمّا أتمّ القصيدَ بالإنشاء خجلوا وافترقوا عنه[1].

إنّ ثمة أموراً كثيرة نلمسها في موقف الشاعر الغزال؛ منها تنوّع روافد ثقافته الشِّعرية، فالأبيات السابقة تذكرنا بقول أبي نواس[2]:

فَلَمَّا بَدا لِي اليأسُ عَدَّيتُ نَاقتي عن الدَّارِ واسْتَولى عَلَيَّ عَزَائي

إلى بَيْتِ حانٍ لا تَهرَّ كِلابُهُ عَلَيَّ ولا يُنْكِرْنَ طُولَ ثَوائي

فَمَا رَمْتُهُ حتَّى أتَى دُونَ ما حَوَتْ يَمينِيَ حتى رَيْطَتي وَحِذَائي

وَكأسٍ كَمِصْباحِ السَّماءِ شربْتُها عَلى قُبلةٍ أو مَوْعِدٍ بِلِقاءِ

أتَتْ دُونَها الأيَّامُ حتَّى كَأنَّها تَساقُطُ نُورٍ من فَتُوقِ سَمَاء

تَرَى ضَوءها من ظاهرِ الكْأسِ سَاطِعاً عليكَ وإنْ غَطّيْتَها بِغِطَاء

لقد شكَّلت الثقافة الشِّعرية المشرقية وسعة الإطلاع على مكنوناتها رافداً أصيلاً من الروافد التي ألهمت الشاعر الأندلسي وأغنت تجربته الشِّعرية، فلاقت الأشعار المشرقية حضوراً مهمَّاً في خواطر الشُّعراء الأندلسيِّين فأغنت تجاربهم الشِّعرية، والذي يقرأ أشعار الأندلسيِّين يلحظ مدى الثراء الذي اكتسبه التعبير الشِّعري الأندلسي من مثيله المشرقي؛ الذي لم يلبث أن تحوّل إلى ميادين إبداعية أظهر فيها هؤلاء الشُّعراء الأندلسيُّون مدى قدرتهم على استيعاب تجارب الشُّعراء المشارقة على تطويع الثقافة المشرقية لخدمة أغراضهم الشِّعرية.

إنّ الأشعار التي أنشدها الغزال في المجلس الذي ضمّ شعراء المشرق تدل على أنه استكمل شخصيته الأدبية وأنه بلغ من المنزلة الشِّعرية ما جعله ينافس شعراء

([1]) ابن دحيّة، المطرب من أشعار أهل المغرب، ص148.

([2]) أبو نواس، الحسن بن هانئ، (ت199هـ)، ديوان أبي النواس، ط1، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، شرح وتقديم عمر فاروق الطباع، 1418هـ/1998م، ص41.

العراق بل ويحاول أن ينتزع منهم الصدارة، وليس أدل على ذلك من إعجابهم بشعره ومدحهم له ظانين أن تلك الأشعار من نظم أبي نواس.

ومن الشَّواهد الدّالة على بلوغ الشعر الأندلسي منزلة سامية في نظر المشرقيين أن المتنبي كان يُعجب ببعض الشُّعراء الأندلسيِّين، وقد التقى يوماً في مسجد عمرو بن العاص بمصر مع أبي الوليد بن عيال منصرفاً من الحج، ففاوضه قليلاً ثم قال له: أنشدني لمليح الأندلس ويعني ابن عبد ربه، فأنشده: [1]

يـــا لُؤْلـــواً يَسْـــبي العُقُـــولَ أنِيقَـــا ورَشَـــــاً بتَقْطيـــــعِ القُلـــــوبِ رَفيقَـــــا

مـــا إنْ رأَيـــتُ ولا سَـــمِعْتُ بِمِثْلِـــهِ دُرَّاً يعـــــودُ مـــــن الحَيـــــاءِ عَقِيقـــــاً

وإذا نَظَـــرْتَ إلـــى مَحاسِـــنِ وَجْهِـــهِ أبْصَـــرْتَ وَجْهـــكَ فـــي سَـــناه غَرِيقَـــا

يـــا مَـــنْ تَقَطَّـــع خِصْـــرُه مِـــنْ رقَّـــةٍ مـــــا بَـــــالُ قَلْبِـــــكَ لا يكـــــونُ رَقِيْقَـــــا

فلمّا أكمل إنشادها استعادها، ثم صفّق بيديه وقال: يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبواً.

إنّ رغبة المتنبي في سماع أشعار ابن عبد ربه تدلُّ على وجود رؤى وأفكار سابقة توافرت لديه عن شاعرية ابن عبد ربه التي أظهرت جانباً من نموّ العقلية الأندلسية ومسايرة طبيعة التطور الذي عاشته الحاضرة الأندلسية.

وقد حاول ابن عبد ربه أن يتجاوز كثيراً من شعراء المشرق؛ لذا أكثر من معارضتهم ومن ذلك القصيدة التي عارض بها مسلم بن الوليد في قصيدته التي مطلعها: [2]

أديرا عليّ الراح لا تشربا قلبي ولا تطلبا من عند قاتلٍ ذحلي[3].

عارضه ابن عبد ربه بقصيدته التي مطلعها:

([1]) ابن خاقان، مطمع الأنفس، ص273.

([2]) محمود، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري.

([3]) الوليد، مسلم بن الوليد، (ت208هـ)، ديوان مسلم بن الوليد، تحقيق: سامي الدَّهَّان، دار المعارف، القاهرة، ص33.

أتقتلني ظلماً وتجحدني قتلي وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل[1].

من هنا يمكن القول إنَّ الشُّعراء الأندلسيِّين استطاعوا إظهار مدى طواعية شعرهم للتعبير عن مختلف الأغراض الشِّعرية، فبعد أن غذوا تجاربهم بالثقافة المشرقية –التي كانت لهم مثلاً أعلى– أصبحوا يبحثون عن مجالات الإبداع في ظل رغبة جادة في الإفادة من مقتضيات الحضارة الأندلسية أو على الأقل من الملاءمة بين ما كان قديماً استمدوه من الأساليب المشرقية وبين ما توافر لهم من أسباب الرقة والسهولة وتهذّب الذوق ورقّة الحسّ.

إنّ تقليد الأندلسيِّين للمشارقة إذن لم يكن تقليداً أعمى، إنما كان انفتاحاً وتأثراً وإعجاباً، ذلك أنّ هذا التأثر وذاك الانفتاح لم يكونا عائقين أمام إبداعات الأندلسيِّين، فهم لا يقلّون علماً وفطنة وثقافة عن المشارقة لاسيّما إذا علمنا أنّ العناصر التي كوّنت الثقافة العربية في المشرق والأندلس كانت واحدة[2].

ومما لا شك فيه أن تشابه الفكرة بين شاعر وشاعر لا ينافي أصالة كل منهما دائماً، فقد يكون السبب تشابه الموضوع أو توارد الخواطر فضلاً عن أن اللغة بأفكارها ومجازاتها ملك للناطقين بها ولا يستطيع أحد أن يضع أفكاره ويخترع صوره ثم يُقيم النقاد حراساً عليها[3].

لقد كان الأندلسيُّون مُعجبين بأدب المشارقة وبلغ حدّ إعجابهم إضفاء ألقاب مشرقية على أدباء الأندلس وعلمائه تعكس العرفان بالجميل للمشارقة[4]، ومن هذه الألقاب إطلاق لقب المتنبي على أكثر من شاعر، فأهل الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشُّعراء، ومدغلّيس بمنزلة أبي تمام[5]، كما شبّهوا أبا

([1]) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمَّد، (328هـ)، تحقيق: وشرح محمَّد التونجي، ط2، دار صادر، بيروت، 1427هـ–2006م، ج5، ص373.

([2]) أبو الرب، أثر أبي العلاء المعري في الأدب الأندلسي، ص23–24.

([3]) شلبي، سعد إسماعيل، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، ط1، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1973م، ص62.

([4]) بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص51.

([5]) المقَّري، نفح الطيب، ج4، ص186.

عبدالله اللوشي[1] بالبحتري، وحمدونة بنت زياد المؤدّب بخنساء المغرب[2]، وأبا طالب عبد الجبار الجزيري بالمتنبي[3]، وابن السيد البطليوسي بالجاحظ[4]، وكذلك كان أبو مروان بن سراج بالأندلس كعمرو بن بحر[5]، هذه بعض الألقاب المشرقية التي أُطلقت على بعض أدباء الأندلس وعلمائه،وهناك ألقاب أخرى كثيرة أُطلقت على أدباء آخرين. ولم يقتصر الأمر في إطلاق الألقاب على الأدباء والعلماء فحسب، بل تعدّاهم إلى الملوك والأمراء بل وحتى المدن الأندلسية أسموها بأسماء مشرقية[6].

وثمَّة قضيّة في غاية الأهمية وهي أنّ الأدب الأندلسي لم يكن مقصوراً على الخاصّة من ذوي المناصب والدواوين كما كان حال الأدب في مصر الفاطمية، إنما كان مشاعاً لكل طبقات الشعب من زرّاع وصنّاع وتجّار وكل من يمتهن الحرف المتواضعة فتعمل يده ويفكر عقله ويترنّم لسانه.

ويذهب أساتذة الأدب المقارن[7] إلى "أنَّ من العوامل الأولى لعالمية الأدب وازدهار تأثيره في كثير من الآداب الأخرى شعور ذوي العقليات الناضجة بعدم كفاية أدبهم القومي في التعبير عن رغبات النفس ومبتكرات الحياة، فيتّجهون إلى أدب آخر

([1]) هو الوزير الفقيه أبو عبدالله محمَّد بن عبد الرحمن المذحجي من أهل غرناطة، نسبة إلى ألوشة من حواضر غرناطة، كان فقيهاً مشاوراً، توفي قبل الأربعين وخمسمائة، انظر: ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمَّد بن عبيد الله القيس الإشبيلي، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج3، ص674.

([2]) المقَّري، نفح الطيب، ج5، ص206.

([3]) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج1، ص192.

([4]) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج3، ص708.

([5]) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج3، ص605.

([6]) لمزيد من الإطلاع حول تسمية الملوك والأمراء والمدن بأسماء مشرقية، انظر: أبو الرب، أثر أبي العلاء المعري في الأدب الأندلسي، ص30-31.

([7]) الأدب المقارن هو الأدب الذي يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات من تأثير أو تأثر أياّ كانت مظاهرها، انظر: هلال، محمَّد غنيمي، الأدب المقارن، ط3، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م، ص13.

يجدون فيه دماً جديداً ينقلونه أو ينقلون بعضه إلى أدبهم، فتصبح له روحاً أخرى تُعيد إليه بعضاً من شباب الروح، ولعلّ ما يُقال عن الآداب المختلفة في مجال الأدب المقارن يُقال كذلك عن أدب الإقليم الآخر في اللغة الواحدة والأدب الواحد"[1].

لا شكّ أنّ علاقة الأدب الأندلسي بالأدب المشرقي لا تدخل ضمن ما يعرف بالأدب المقارن؛ لأنَّ اللغة بين الأدبين واحدة ولكن الفكرة التي ذهب إليها أساتذة هذا النوع من الأدب يمكن أن تقاس بالأثر الذي أحدثه الأدب المشرقي والنتيجة التي حققها الأدب الأندلسي نتيجة التأثر والتأثير بين الأدبين.

ويرى إحسان عباس أنَّ تقليد الأندلسيِّين للمشارقة كان أمراً طبيعياً، بل يكاد يكون حتمياً لعدة أسباب منها: أن الأندلس بنت المشرق ولم تنقطع صلتها الثقافية به في يوم ما، وأن الوسيلة التعبيرية عند الأندلسيِّين والمشارقة واحدة بكل ما فيها من مظاهر القدرة أو العجز، ولعلّ الاتحاد في وسيلة التعبير يوحّد الموضوع الشِّعري، ويُقرّب صور الشكل، ثمّ إن الشعر المحدث أحب إلى الأندلسيِّين؛ لأنَّه يعبر عن مرحلة حضرية يعيشونها بينما يمثل الشعر القديم مرحلة لم يعرفوها[2].

إنّ المتأمّل للأشعار الأندلسية التي قيلت خلال عصر الولاة (93-138هـ) مثلاً يلحظ فيها أنّ الروح الأندلسية لم تكن قد أخذت تتشكّل بعد، لذا فإنّ هذه الأشعار تحمل موضوعات شعر أهل المشرق وخصائصه، فهي أشعار تستمد صورها من بيئة الصحراء العربية في الشرق وتُعنى بجزالة الألفاظ وفخامة العبارة[3].

يتبين لنا من خلال هذا كلّه أنَّ الروح المشرقية كانت تسري في نفوس الأندلسيِّين ولكنهم أفادوا منها ما يعزّز قدراتهم وأداءهم التعبيري ويكشف عن جماليات الإبداع الشِّعري الذي طالما كان حلماً يراودهم؛ لتحقيق استقلال الشخصية الأندلسية، والحقيقة التي يجب إظهارها هي أنَّ أمر التَّقليد والتأثر بالمشارقة يكاد بل هو أمر

([1]) البيومي، محمَّد رجب، الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1400هـ/ 1980م، ص39-40.

([2]) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص115-116.

([3]) جرار، صلاح، قراءات في الشعر الأندلسي، ط1، دار المسيرة، عمان-الأردن، 1427هـ/2007م، ص14.

حتمي، ذلك أنّ كلتا البيئتين المشرقية والأندلسية تشترك في المتّكأ الحضاري وهو ما يجعل صور التشابه واضحة لا تخفى على أحد.

2.1 كيفيّة دخول أشعار أبي العتاهية الأندلس:

كان أبو العتاهية[1] (إسماعيل بن القاسم 130-212هـ) أحد الشُّعراء المحدثين الذين اتّخذ الأندلسيُّون شعرهم مثالاً يقلدونه، إذ إنّ شعره أسهم في إغناء النموذج الشِّعري الأندلسي، فكانت أشعاره لاسيّما في فن الزهد بمنزلة تطوّر نوعي يندرج في سياق الثقافة الشِّعرية التي ظلّت توجه سمة التَّجديد في العملية الإبداعية وترفدها بخيال شعري يلبّي طموحات الشُّعراء المتجددة ويغني خبراتهم الثقافية.

وقد عُرف عن أبي العتاهية أنّه تغزّل ومدح وهجا ورثى في أوّل أمره، إذ كان كسائر شعراء عصره، لكنه لم يكد يبلغ الخمسين من عمره حتى ترك ما كان عليه الشُّعراء والتزم طريقة الزهد، واتّخذ من شعر الزهد فنّاً غلب على فنون شعره كلّها[2]، إضافة إلى فنّ صياغة الحكم والأمثال التي تندرج ضمن المواعظ الزهدية، ولم يكد غرض الزهد يصبح باباً واسعاً مستقلاً حتى كان أبو العتاهية شاعر الزهد.

ويُعد أبو العتاهية من بين الشُّعراء المشارقة الذين كان لهم تأثير بارز في الشعر الأندلسي، والسؤال الذي يحضرنا هنا: كيف وصلت أشعاره إلى الأندلس؟

([1]) لمزيد من الإطلاع حول ترجمة أبي العتاهية انظر: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت356هـ)، الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، وإبراهيم السعافين، وبكر عباس، مجلد 4، دار صادر، 2000م، بيروت، ص5: فيصل، شكري، أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق: شكري فيصل، مكتبة دار الملاح، دمشق، 1384هـ/1964م، ص26-38؛ خليف، يوسف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، ط1، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1981، ص85؛ القوّال، أنطوان، شرح ديوان أبي العتاهية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 2003م، ص9-11؛ ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط10، دار المعارف، مصر، 1978م، ص164؛ المقدسي، أنيس، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ط17، دار العلم للملايين، بيروت، 1989، ص149.

([2]) المقدسي، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ص152.

ليس ثمّة ما يشير إلى أنَّ أبا العتاهية كان في جملة من رحل إلى الأندلس، ولكن أشعاره دخلت الأندلس عبر طرق مختلفة هي[1]:

أولاً: رحلة الوافدين على الأندلس من علماء المشرق وأدبائه، حيث أدّت هذه الرحلات دوراً أساسياً في تنشيط الحركة الثقافية في الأندلس والمشرق، وأسهمت بشكل واضح في تطوّر العلم والآداب المختلفة، وقد أشار ابن بسام إلى الوافدين على الأندلس إذ قال: "وطرأ عليها من شعراء الشام والعراق ممن تبحبح ذراها وتسربل نُعماءها، ونجم في أفلاكها وخيّم في ظلال أملاكها، ولم آت بهذه الفِرقة من أرباب هذا الفنّ الذي أنا في إقامة أودِه، متعزّزاً من ذلّة، ولا مستكثراً من قلّة، ولا لأنّي لم أجد من أعيان وزرائنا وكتّابنا من هو أبعد غاية، ولا أبهر آية، ولكنهم أسندوا إلى أعلامها، وتردّدوا بين جميمها وجِمامها، فصاروا من أهلها بالوفادة عليها"[2].

وممَّا تجدر الإشارة إليه أنّ ابن بسام وسّع مفهوم الأندلسية بأن جعل الوافدين على الأندلس من أهلها، وهذه المسألة تناولها ابن حزم (456هـ) بشيء من الإيضاح حيث قال: "وذلك أنّ جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين دون محاشاة أحد، بل قد تيقّنا إجماعهم على ذلك، متّفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقرّ بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها إلى أن مات...، فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحقّ به، وهو منّا بحكم جميع أولي الأمر منّا الذين إجماعهم فرض اتباعه، وخلافه محرم اقترافه، ومن هاجر منّا إلى غيرنا فلا حظّ لنا فيه، والمكان الذي اختاره أسعد به"[3]، ولعلّ هذا التفسير الذي ارتآه ابن حزم يحقق أموراً عدة منها: أنّ الثقافة الأندلسية لم تكن وقفاً على الأندلسيِّين الذين ولدوا وعاشوا في الأندلس وإنما كانت نتاج جهود شارك فيها عدد كبير من المهاجرين الذين كتبوا في موضوعات

([1]) انظر: حمدان، عبد الرحيم، معالم شخصية أبي العتاهية في الأندلس، مقال على شبكة الإنترنت، موقع ديوان العرب، 2008م.

([2]) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق4، م1، ص7.

([3]) المقَّري، نفح الطيب، ج4، ص13.

أندلسية، ومنها أيضاً أنه يريد من خلال تفسيره أن يمنح الثقافة الأندلسية –ومن ضمنها الأدب– صفة العراقة والقدم[1].

وتُعدُّ رحلات الوافدين على الأندلس من أقوى الرَّوافد تأثيراً على الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، لذا نجد المقَّري يفرد باباً في كتابه "نفح الطيب" بعنوان "الباب السادس في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق" حيث يقول في مقدمة هذا الباب: "اعلم أنّ الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم، فضلاً عن غيرهم، ومنهم من اتخذها وطناً وصيَّرها سكناً إلى أن وافته منيّته، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت بالأندلس أمنيته"[2].

ومن أوائل من رحل من بلاد المشرق إلى الأندلس عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب، يكنّى "أبا القاسم"، قال ابن الأبار: "لا أعرف موضعه من بلاد المشرق، وكان أديباً قوي العارضة، مطبوع الشعر، مديد النفس، ومن شعره من قصيدة صنعها في وقت رحلته إلى الأندلس قوله: [3]

على الذُّلِّ أو فاحْلُلْ عِقالَ الرَّكَائبِ ... وللضَّيْمِ أو فاحْلُلْ صُدورَ الكَتائِبِ

فإمَّا حياةٌ بَعْدَ إدراكِ مُنيَةٍ ... وإمَّا مَمَاتٌ تَحْتَ عِزِّ القَواضِبِ

فما العيشُ في ظِلِّ الهَوانِ بطيِّبٍ ... وما الموتُ في سُبلِ العَلاءِ بعائبِ

ومن أبرز الشخصيات الأدبية واللغوية التي وفدت على الأندلس "أبو علي القالي"[4]، حيث وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن، وقد كان

([1]) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص40.

([2]) المقَّري، نفح الطيب، ج3، ص288.

([3]) المقَّري، نفح الطيب، ج3، ص336.

([4]) هو إسماعيل بن القاسم القالي، أبو علي البغدادي، مشرقي دخل الأندلس سنة 330هـ، له كتاب النوادر، وكتاب الأمالي، وكتاب المقصور والممدود والمهموز، كان حافظاً للشعر واللغة، أظهر فضل مذهب البصريين على مذهب الكوفيين، ونصر مذهب سيبويه على من خالفه من البصريين، توفي سنة 356هـ، انظر: الزبيدي، أبو بكر محمَّد بن الحسن، (ت379هـ)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم/ ط2، دار المعارف، القاهرة، 1392هـ–1973م، ص121، ابن خير، فهرسة ابن خير للأموي الإشبيلي، ط1، تحقيق:

لـه أثـر واضـح فـي نقـل عـددٍ كبيـرٍ مـن الـدواوين والمجموعـات الشِّـعرية المشـرقية إلـى الأندلس، وكان من حسن طالعه أن يكون قدومه الأندلس في فترة كان للعلماء الوافدين من المشرق مكانة لا تعدلها مكانة[1]؛ ولذلك استقبل "أبو علي" استقبالاً كبيراً من قبل الحكم بن الناصر الذي كان وزيراً لأبيه، حيث أمر عاملهم ابن رماحس أن يجيء مع أبي علي إلى قرطبة، ويتلقاه وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض الكورة تكرمة لأبي علي، ففعل وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم ويتناشدون الأشعار[2]، وباسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله طرّز الشيخ أبو علي القالي كتاب الأمالي.

إنّ قدوم أبي علي القالي إلى الأندلس يمثّل نهضة ثقافية واسعة، إذْ إنَّه أسهم بوضوح بنقل التراث المشرقي إلى الأندلس، وهذا يشير إلى قوة التيار الثقافي المشرقي الذي أصبح يتعمّق لدى الأندلسيِّين.

ومن الذين دخلوا الأندلس وساعد على ترسيخ أثر المحدثين في البيئة الأندلسية إبراهيم بن سليمان الشامي، الذي دخل الأندلس من المشرق في أخريات أيام الحكم بن هشام، وكان قد أدرك بالمشرق كبار المحدثين، إذ يروي المقَّري أنّه دخل الأندلس من المشرق في أيام الحكم بن هشام؛ أي قبل سنة 206هـ، بعد أن أدرك أبا العتاهية، وروى عنه شعره وأشاعه بين الأندلسيِّين[3].

نستنتج من هذه الرِّواية أنَّ الشَّامي دخل الأندلس في أواخر القرن الثاني الهجري، أو السنوات الست الأولى من القرن الثالث الهجري، وطالما أنَّه أدرك أبا

إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1410هـ-1989م، ص513.

([1]) السهلي، إبراهيم بن موسى بن جاسر، أثر شعر المحدثين العباسيين في الشعر الأندلسي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1416هـ-1994م، ص73.

([2]) ابن الخطيب، لسان الدين، (ت776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، ط4، تحقيق: محمَّد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1421هـ-2001م، المجلد3، ص185.

([3]) المقَّري، نفح الطيب، ج3، ص381.

العتاهية، وروى عن شعره، فإنَّ هذه الفترة الزمنيّة يرجح أن تكون فترة دخول أشعار أبي العتاهية الأندلس.

ومن الوافدين إلى الأندلس أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي[1]، حيث استطاع أن يؤثر في الذوق الأدبي بما يروي لكبار شعراء المشرق، وقد أدخل طريقة جديدة في تدريس الشعر، إذ يقرأ النص الشِّعري لتلاميذه، فيكتبونه أولاً ويضبطونه بالشكل ثمّ يشرح لهم معاني الألفاظ العربية لفظاً لفظا، فإذا انتهى من ذلك شرح لهم المعنى العام[2].

وممَّا كان له تأثير كبير من الداخلين الأندلس الأديب البارز والمغني المشهور زرياب[3]، حيث كان له بصمات واضحة في نشر النماذج المشرقية وتقريب المسافة بين ضروب مختلفة من الصور الأدبية، إذ إنّ مكانة زرياب الشِّعرية هي التي جعلته يحظى بتلك السمعة في المشرق، فضلاً عن أن حركة الغناء أثرت تأثيراً واضحاً في تكوّن الشعر الأندلسي[4]، من خلال نقل ملامح الأشعار المشرقية عن طريق الجواري المشرقيات اللواتي تم استقدامهن من قبل الأمراء الأندلسيِّين.

([1]) هو صاعد بن الحسن الربعي اللغوي، أبو العلاء، ورد من المشرق إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم المؤيد وولاية المنصور أبي عامر محمَّد بن أبي عامر في حدود الثمانين وثلاثمائة، دخل بغداد وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار، سريع الجواب، حسن الشعر طيب المعاشرة، انظر: الضبّي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (99هـ)، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م، ص319.

([2]) السهلي، أثر شعر المحدثين العباسيين في الشعر الأندلسي، ص77.

([3]) هو أبو الحسن علي بن نافع، مولى المهدي العباسي، وزرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله، شبّه بطائر أسود غرد عندهم، وفد على الأندلس على عهد عبد الرحمن بن الحكم سنة 206هـ من العراق، انظر: المقَّري، نفح الطيب، ج3، ص386.

([4]) لمزيد من الاطلاع حول حركة الغناء وأثرها في تكون الشعر الأندلسي وجلب الأشعار المشرقية، انظر: عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص47.

وبعد، فبوسعنا أن نخلص إلى القول: إنّ هذه الرحلات أسهمت في توطيد الصلات العلمية وتنشيط الحركة الثقافية والأدبية في الأندلس "ومن يتعمّق في دراسة الأندلس يعرف سرعة الاتصال بينها وبين المشرق، فعلماؤها وأدباؤها يرحلون إليها كما يرحل إليها علماؤه وأدباؤه، ومن لم يذهب من المشرق إلى الأندلس أرسل إليه بآثاره، أو نقلها إليه هؤلاء الأندلسيُّون الذين يجوبون الأقطار الشرقية للبحث عن المنابع الهامة للأدب والثقافة"[1].

وليست هذه الدراسة بصدد التطرق لذكر جميع الوافدين على الأندلس، فالوافدون قوم كثيرون كما ذكر المقَّري، ولكن الإشارة إلى هؤلاء الذين تمَّ ذكرهم، إنَّما جاءت لبيان جهودهم في نقل لأشعار المشرقية إلى الأندلس، وبيان مدى جهدهم في إيجاد بيئة ثقافية مهيأة لكل ما هو مشرقي، وسواء أكانت جميع أشعار أبي العتاهية وأخباره أو بعضها ممن أسهم هؤلاء في نقلها أم لم يسهموا فإنهم بلا شك أثروا المكتبة الأندلسية بروائع الآداب المشرقية، ووجهوا الأدباء الأندلسيِّين نحو احترام تلك الآداب، لأنها تعدُّ إرثاً حضارياً ومخزوناً ثقافياً لا غنى لهم عنه.

ثانياً: من رحل من الأندلس إلى بلاد المشرق، حيث كان هؤلاء شديدي الحرص على النفع والإفادة من علوم المشارقة وآدابهم واستجلابها إلى الأندلس، وقد خصَّص المقَّري الباب الخامس من نفح الطيب في التعريف ببعضهم، إذ يقول: "اعلم – جعلني الله تعالى وإياك ممن له للمذهب الحق انتحال– أنّ حصر أهل الارتحال، لا يمكن بوجه ولا بحال... ولكنا نذكر منهم لمعاً على وجه التوسط من غير إطناب داع إلى الملال واختصار مؤدٍّ للملام"[2]، كما ترجم الزبيدي في "طبقات النحويين واللغويين" لعدد من أولئك العلماء الذين عادوا محمَّلين بروائع الثقافة المشرقية، ومن

([1]) ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص416.

([2]) المقَّري، نفح الطيب، ج2، ص183.

بين هؤلاء عباس بن ناصح الجزيريّ وكان من أهل العلم باللغة والعربية ومن ذوي الفصاحة في لسانه وشعره"[1]،

كان الجُزيريُّ حريصاً على تتبع أخبار المشارقة لاسيّما الشُّعراء المحدثين منهم، حيث أخبر عنه ابنه عبد الوهاب، قال: "كان أبي لا يقدم من المشرق قادم إلا كشفه عمّن نجم في الشعر بعد ابن هرمة[2]، حتى أتاه رجل من التجار، فأعلمه بظهور أبي نواس وارتحاله من البصرة إلى بغداد، والمحل الذي حلّ به، فأتاه من شعره بقصيدتين، إحداهما قوله: [3]

جَرَيْتُ مع الصِّبا طَلَقَ الجُموح

والثانية:

أما تَرَى الشَّمْسِ حلّتِ الحَمَلا[4]

فقال أبي: هذا أشعر الجنّ والإنس، والله لا حبسني عنه حابس، فتجهّز إلى المشرق، قال، فأخبرني قال: لما حللت بغداد نزلت منزلة المسافرين، ثم كشفت عن منازل الحسن، فأرشدتُ إليه، فإذا بقصر على بابه حفدة وخدّام، فدخلت مع الداخلين، فوجدت الحسن جالساً في مقعد نبيل، وحوله أكثر متأدبي بغداد، يجري بينهم المثل والتمثل والكلام في المعاني، فسلّمت وجلست حيث انتهى بي المجلس، وأنا في هيئة السفر، فلما كاد المجلس ينقضي قال لي: من الرجل؟ قلت: باغي أدب، قال: أهلاً

([1]) كان مذهبه في الشعر مذهب العرب الأوائل، ولي قضاء شذونة والجزيرة، ووليها ابنه عبد الوهاب بن عباس ثم ابن ابنه محمَّد بن عبد الوهاب، رحل إلى بغداد لملاقاة أبي نواس ثم قدم الأندلس، وتكرر على الحكم بن هشام بالمديح فاستقضاه على الجزيرة، انظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص262-263.

([2]) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة (70-150هـ)، من متقدمي الشُّعراء، وممن أدرك الدولتين: الأموية والعباسية، عاصر المراحل الأخيرة من حياة جرير والفرزدق وتأثر بهجائهما كما تأثر بفحولتهما، انظر: الشكعة، مصطفى، الشعر والشُّعراء في العصر العباسي، ط6، دار العلم للملايين- بيروت، 1986م، ص81.

([3]) أبو نواس، ديوان أبي نواس، ص148، وعجز البيت: وهانَ عليَّ مأثورُ القبيحِ.

([4]) أبو نواس، ديوان أبي نواس، ص443، وعجز البيت: وقامَ وزنُ الزَّمانِ فاعتدَلا.

وسهلاً، من أين تكون؟ قلت: من المغرب الأقصى، وانتسبتُ إلى قرطبة، فقال لي: دار القوم؟ قلت: نعم، قال لي: أتروي من شعر أبي المخشّى[1]، شيئاً الذي قاله عندكم؟ قلت له: نعم، قال: فأنشدني، فأنشدته شعره في العمى، فلما بلغتُ:

كُنْتُ أبا للدرى إلا الدُّرا ما فقأتْ عينيَّ إلَّا الدُّنا

قال: هذا الذي طلبته الشُّعراء فأضلته، ثمّ قال: أنشدني لأبي الأجرب، فأنشدته، ثم قال: أنشدني لبكر الكناني، فأنشدته، قال: شاعر البلد اليوم عباس بن ناصح، قلت: نعم، قال: فأنشدني له، فأنشدته:

فأدْتُ القريض ومن ذا فَأدْ

قال لي: أنت عباس؟ قلت: نعم، فنهض إليّ فتلقيته، فاعتنقني إلى نفسه، وانحرف لي عن مجلسه، فقال له من حضر المجلس: من أين عرفته أصلحك الله في قسيم بيت؟ قال: إنّي تأملته عن إنشاده لغيره، فرأيته لا يبالي ما حدث في الشعر من استحسان أو استقباح، فلما أنشدني لنفسه استبنت عليه وجمةً، فقلت: إنه صاحب الشعر. قال عباس: ثم أتممت الشعر، فقال: هذا شعر الغرب، ثم نقلني إلى نفسه فكنت في ضيافته عاماً، ثم قدم عباس الأندلس"[2].

إن هذه القصة تؤكد جملة من القضايا، أولها: توضيح علاقة الأديب الأندلسي بالمشرق، تلك العلاقة القائمة على الاستفادة وصقل الذوق الأندلسي بكل ما هو جديد لدى معاصريهم من العباسيين، ثم إن شهرة بعض الأدباء الأندلسيِّين كانت تسبقهم إلى المشرق قبل رحيلهم، فعباس بن ناصح وأمثاله من الشُّعراء والأدباء الذين رحلوا إلى المشرق كان لهم حضور واضح على مسارح الأدب مكّنهم من ملاقاة كبار شعراء المشرق كأبي نواس وغيره.

وثمَّة قضيّة أخرى نلمسها من خلال قصة عباس بن ناصح مع أبي نواس هي حرص كبار الشُّعراء المشارقة على متابعة أخبار نظرائهم من المجيدين من شعراء

([1]) شاعر أعرابي قديم، عربي الدار والنشأة، تردد على الأندلس غريباً طارئاً، وهو من فحول الشُّعراء المتقدمين، انظر: الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ص363.

([2]) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص262-263.

الأندلس وتقديرهم لهم والإقرار لهم بالتميُّز، إضافة إلى شدّة إعجاب الشُّعراء الأندلسيِّين بالشعر المحدث وتعلّقهم به، ومحاولة الوصول إليه في منبعه الأصلي بغية التعرف على شعرائه ثم نقله إلى الأندلس، ولعلّ إقامة عباس بن ناصح في ضيافة أبي نواس عاماً كاملاً هيّأ له التلمذة عليه والتعرُّف على مذهبه الشِّعري.

ومن القضايا المهمّة التي يمكن استخلاصها من تلك الحادثة دور ثقافة المبدع في إظهار التباين الثقافي في قراءة النص الشِّعري، حيث ظهر جلياً في قول أبي نواس: "هذا شعر الغرب" وهذا الحكم ربما يؤكّد خصوصية النتاج الإبداعي الذي لا يتهيأ لشعراء تفردوا عن غيرهم بسعة الإطلاع على ثقافة الآخرين.

وأما آخر القضايا التي يمكن استخلاصها هي أن مجالس الشُّعراء المحدثين كانت مدارس شعرية قادرة على استيعاب جميع الظواهر الإبداعية في نتاج فحول الشُّعراء، كما تُعدّ صدىً واضحاً لتأثير ثقافة الشُّعراء، فالحاضرون في مجلس أبي نواس يسألونه: من أين عرفته في قسيم بيت؟

ولا شكّ أن وفود شعراء الأندلس أمثال عباس بن ناصح وغيره على مثل هذه المجالس وملازمتهم لشعراء المشرق فترات طويلة يسهم في إثراء العملية الشِّعرية لديهم ويمنحهم قدرات إبداعية متجددة قادرة على استيعاب القيم الفنية للشعر المحدث.

ومن الذين رحلوا إلى المشرق محمد بن عبدالله بن الغازي، حيث جلب إلى الأندلس الأشعار المشروحات كلها كما جلب علماً كثيراً من الشعر والعربية والأخبار[1]، وقد وردت له أشعار زهدية قريبة من معاني الزهد عند أبي العتاهية، حيث ذكر الزبيدي في طبقاته أن يحيى بن أبي صوفة الجزيريّ، قال: كان عندنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الغازي سنة خمس وتسعين ومائتين، وأملى علينا:[2]

الحمْـــــدُ للهِ ثُـــــمَّ الحمـــــدُ للهِ ... كم ذا عن الموْتِ من ساهٍ ومن ولاه

يا ذا الذي هو في لهوٍ وفي لعبٍ ... طُـــوبى لعبـــدٍ مُنيـــب القَلْـــبِ أوَّاه

إن لم يكُن لك ناهٍ في عجائب ما ... يأتي به الدَّهرُ لم تقدرْ على ناه

([1]) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص267.

([2]) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص267.

مـاذا يُعـاينُ ذو العينـينِ مـن عَجَـبٍ عنــد الخــروج مــن الــدُّنيا إلــى الله

إنّ الشـاعر الأندلسـي محمـد بـن الغـازي يبـدو متـأثراً فـي أبياتـه هذه بقول أبـي العتاهية[1]:

طـــوبى لعبـــدٍ لمـــولاه إنابتَـــه قــد فــازَ عبــدٌ مُنيــبَ القَلْــبِ أوّاه

يــا بــائعَ الــدِّين بالــدُّنيا وباطلهــا ترضـــى بـــدينكَ شـــيئاً لـــيسَ يَسْـــواه

حتَّى متـى أنـت فـي لهـوٍ وفـي لعـبٍ والمــوتُ نحــوكَ يهــوي فــاغراً فــاه

إنّ بلـوغ حـدّ التشـابه بـين شـعري أبـي العتاهيـة وابـن الغـازي إلـى هـذا المسـتوى يقودنا إلى طرح الأسئلة الآتية: هل كانت أشعار أبي العتاهية في جملة الأشعار التي جلبها ابن الغازي إلى الأندلس؟ أم أن هذا التأثر يدخل فيما يُعرف بالمعارضات الشِّعرية؟ إنّ الاحتمال الأقوى أن تكون أشعار أبي العتاهية ضمن الأشعار المشرقية التي جلبها ابن الغازي من المشرق إلى الأندلس، ثمَّ إنَّ إعجابه بها دفعه إلى معارضتها استحضاراً للماضي وتواصله مع التراث الأدبي، وسوف يكون لنا وقفة أخرى مع هذه الأبيات عند حديثنا عن شعر المعارضات.

وهناك عدد كبير من الأدباء والشُّعراء الذين تجشموا الصعاب ورحلوا إلى المشرق منهم يحيى الغزال الذي سبق الحديث عنه، ومنهم عثمان بن المثنى (273هـ) الذي رحل إلى المشرق فلقي حبيب بن أوس، فقرأ عليه شعره وأدخله الأندلس[2]، ومنهم محمد بن عبد السلام الخشنيّ[3]، حيث رحل إلى المشرق ولقي المازني وأبا حاتم والرياشي وغيرهم كثير، إذ لا يتّسع المقام لذكرهم جميعاً، ولكن يجب أن نعلم أنّ الحركة العلمية في الأندلس بدت خطواتها الأولى منذ عهد الأمير هشام بن عبد

([1]) أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1423هـ/2002م، ص248.

([2]) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص266.

([3]) هو محمَّد بن عبد السلام بن ثعلبة بن الحسن الخُشنيّ أبو عبدالله، من أهل قرطبة، كان فصيح اللسان، رحل إلى المشرق ولقي جماعة من العلماء ثمّ رجع إلى الأندلس وحدّث زماناً طويلاً، وانتشر علمه، توفي سنة 286هـ، انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، ص61؛ الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص217؛ ابن خاقان، مطمع الأنفس، ص283.

الرحمن الداخل (172–180هـ) حيث كان يحفز أهل الأندلس على الرحيل إلى المشرق لأخذ العلم من ينابيعه الأولى.

ولعلّ خير شاهد على دور تلك الرحلات ما رواه ابن بشكوال في الصلة: "ساق سلمة بن سعيد[1] (406هـ) شيخنا من المشرق ثمانية عشر حملاً مشدودة من كتب، وسافر من إسْتجة إلى المشرق واتّخذ مصر موئلاً واضطرب في المشرق سنين كثيرة جداً يجمع في الآفاق كتب العلم، وكانت في كل فن من فنون العلم"[2].

لقد تركت هذه الرحلات بصمات واضحة في تاريخ الثقافة الأندلسية، وعلى الرغم من ضياع كثير من المؤلفات والأشعار التي جُلبت من المشرق فإنّ المكتبة الأندلسية حفظت لنا عدداً من المؤلفات التي تشهد لهم بالفضل.

ثالثاً: حرص الأندلسيِّين الشديد على رواية أشعار المحدثين واقتناء دواوينهم، فهناك مصنّفات كبيرة تحوي في مجملها شيئاً كثيراً عن أخبار هؤلاء المحدثين وأشعارهم[3]، وفي ذلك يؤكد المقَّري أنّ أمهات كتب الأدب التي تؤلف بالعراق كانت تروى في الأندلس بالسند إلى مؤلفيها، ومن ذلك قول الأمير الحكم المستنصر: "لم يصح كتاب (الكامل) عندنا من رواية إلا من قبل ابن أبي علاقة"[4]، وكان ابن جابر الإشبيلي قد رواه بمصر بمدة، وما علمت أحداً رواه غيرهما، وكان ابن الأحمر القرشي

([1]) هو سَلَمَة بن سعيد بن سلمة بن حفص بن عمر بن يحيى بن سعيد بن مطرف بن برد الأنصاري أبو القاسم، من أهل إستجه، سكن قرطبة ورحل إلى المشرق وحجّ، أقام في المشرق ثلاثة وعشرين عاماً، وكان رجلاً فاضلاً ثقة، راوية للعلم حافظاً للحديث، انظر: ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك (578هـ) الصلة، ط1، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 19879م، ص350.

([2]) ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص351.

([3]) السهلي، أثر شعر المحدثين العباسيين في الشعر الأندلسي، ص97.

([4]) هو محمَّد بن أبي علاقة البواب، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق ولقي جماعة من أهل العلم، وسمع من الأخفش "الكامل للمبرج"، انظر: المقَّري، نفح الطيب، ج2، ص296.

يـذكر أنّـه رواه، وكـان صـدوقاً ولكـنّ كتابـه ضـاع، ولـو حضـر لضـاهى الـرجلين المتقدمين"[1].

ومن أبرز كتب الأدب التي توسّعت في الترجمة للشعراء المحدثين وغيرهم – والتي وصلت إلى الأندلس فيما يقال قبل ظهورها بالمشرق– كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني[2]، هذا إلى جانب هجرة الكتب المشرقية التي كانت ناشطة أيّام الأمير الحكم المستنصر على أيدي تجار مشارقة كانوا يتكسبون ببيعها في الأندلس، وفوق هذا كلّه كان الأمير الحكم قد اتّخذ له وراقين[3]، بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ووجّه رجالاً إلى الآفاق بحثاً عن الكتب وكان من وراقيه ببغداد محمد بن طرخان، وكان يدفع فيها أثماناً عالية، فحملت إليه من كلّ جهة حتّى غصّت بها بيوته وضاقت عنها خزائنه[4].

وثمّة أمر آخر لا بدّ من الإشارة إليه هو تشجيع ملوك وأمراء الأندلس للعلم والعلماء ، فقد حظي العالم بمكانة مرموقة، واحتل مرتبة عالية، ويكفي أن نشير هنا إلى دور الحكم المستنصر وإسهامه بشكل واضح في ازدهار الحركة العلمية في الأندلس، إذ كان مثقّفاً واسع الاطلاع حريصاً على شهود مجالس العلماء والسماع منهم والرواية عنهم، وكان نظّاراً في الكتب، كثير التعليق عليها، وقلّما تجد كتاباً في خزانته إلا وفيه قراءته وتعليقاته عليه، ويكتب فيه بخطّه، إمّا في أوّله أو في آخره أو

([1]) المقَّري، نفح الطيب، ج2، ص296. ى

([2]) كان الحكم المستنصر يبعث في الكتب على الأقطار رجالاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب إلى الأندلس ما لم يعهدوه، وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق، انظر: المقَّري، نفح الطيب، ج1، ص300.

([3]) كان للوارقين مكانة كبيرة في الأمصار العظيمة والبلدان الكبيرة فهم بمثابة المطابع الحديثة التي تحتل الأمصار في زماننا هذا، وكانت لهم أسواق في بعض الأمصار كانت بمثابة المعاهد العلمية، انظر: هارون، عبد السلام محمَّد، تحقيق النصوص ونشرها، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ– 1998م، ص20.

([4]) انظر: عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص59.

في تضاعيفه نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، وكان موثوقاً به مأموناً عليه حتى صار كل ما كتبه حجّة عند شيوخ أهل الأندلس وأئمّتهم[1].

قال الحميدي في ترجمة ابن عبد ربّه: "توفي أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة لإثنتي عشر ليلة بقيت من جمادى الأولى، ومولده سنة ست وأربعين ومائتين، لعشر خلون من شهر رمضان، فاستوفى إحدى وثمانين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام، ومدح الأمير محمداً والمنذر وعبدالله وعبد الرحمن الناصر، هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر، وخطّه حجّة عند أهل العلم عندنا، لأنه كان عالماً ثبتاً"[2].

وليس هذا فحسب، فقد كان يحفز الملكات الأندلسية على التأليف وجمع التراث، بل يتجاوز حدّ اقتراع الموضوع على المؤلف، فيشاركه أو يرسم له طريقة تقسيمه، كما فعل مع الزبيدي عندما طلب إليه أن يكتب كتاباً في طبقات النحويين، يقول الزبيدي في مقدمته: "وإنّ أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله –رضي الله عنه– لما اختصّه الله به، ومنحه الفضيلة منه، من العناية بضروب العلوم، والإحاطة بصنوف الفنون، أمرني بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام، ثم من تلاهم من بعد إلى هلمّ جرّا، إلى زماننا هذا، وأن أطبقهم على أزمانهم وبلادهم بحسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم، وأذكر مع ذلك موالدهم وأسنانهم ومدد أعمارهم وتاريخ وفاتهم على قدر الإمكان في ذلك..." فألّفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به أمير المؤمنين أعزّه الله، وأقمته على الشكل الذي حدّه، وأمدني أبقاه الله في ذلك بعنايته وعلمه، وأوسعني من روايته وحفظه، إذ هو البحر الذي لا تُعبر أواذيه ولا تُدرك سواحله ولا يُنزحُ عمره، ولا تنضب مادته"[3].

هكذا كانت عناية الأندلسيِّين وعلى رأسهم الملوك والأمراء بالعلم والأدب، ولعلّ المواقف السالفة الذكر تؤكد حرص الخلفاء بالأندلس على تشجيع العلوم والآداب

([1]) انظر: عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص56.

([2]) الحميدي، جذوة المقتبس، ص89.

([3]) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص17–18.

المنقولة من المشرق واهتمامهم البالغ بإنشاء خزائن للكتب، وحرصهم على تزويدها بشتى ملامح الثقافة المشرقية.

ربّما يكون الحديث في هذا الجانب قد وسّع من دائرة الطريقة التي وصل بها شعر أبي العتاهية إلى الأندلس، حتى ليظنّ القارئ أنّ كل هذه الجزئيات لا تعدو أن تدخل في حدود تلك الطريقة، وليس الأمر على هذه الصورة تماماً إذ إنّ طبيعة البحث تتطلب إيضاحاً للواقع التاريخي وقراءة للروافد الثقافية التي دفعت عجلة التقدّم الثقافي في الأندلس إلى الأمام، فحرص الأندلسيِّين واهتمامهم الكبير بأشعار المحدثين جعلهم يتطلعون بإخلاصٍ ورغبةٍ إلى البحث عن نفائس مؤلفاتهم ورواية بدائع أشعارهم، فإذا كان موضوع الزهد قد استغرق مساحة واسعة من دواوين مجموعة من الشُّعراء الأندلسيِّين، فقد تجاوز بعضهم أمر التأليف إلى انتقاء واختيار أشعار أبي العتاهية وجمع أخباره، فأبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي يؤلّف كتابه "الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال" ولم يقصد ابن عبد البر في كتابه هذا صنع ديوان لأبي العتاهية بل أراد أن يفرد لشعره الزهدي الذي يذكّر بالموت والبعث والثواب والعقاب كتاباً منفصلاً، يقول في مقدمة كتابه بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على خاتم أنبيائه: "فإني رأيت أن أجمع في كتابي هذا –إن شاء الله تعالى– من شعر أبي العتاهية في الزهد والمواعظ والأمثال والحكم، مما صحّ عند أهل العلم والأدب والأخبار ورواة الأشعار، واختاروه وصنفوه، وذكروه عيوناً تعين أهل الدّين والعقل على التقوى، وتبعثهم على الزّهد في الدنيا، وتذكرهم من أمر الموت وما بعده ما فيه تذكرة وموعظة بالغة، عسى أن تلين بها القلوب القاسية، فما أحوجنا إلى ذلك مع قساوتها وغفلتها عما يراد بها مما له خُلقت، وإليه مصيرها"[1].

ويمثّل الكتاب جانباً من اهتمام العلماء الأندلسيِّين بالتراث المشرقي حيث أورد فيه ابن عبد البر مجموعة من أخبار أبي العتاهية تعرّف به وبمذهبه الشِّعري استمدها من المصادر القديمة كالأغاني للأصفهاني والشعر والشُّعراء لابن قتيبة والأخبار

([1]) القرطبي، أبو عمر بن عبد البر، الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والمثال، ط1، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2009م، ص21.

الموفقيّات للزبير بن بكار وغيرها من الكتب[1]، واتّبع المؤلف طريقة خاصة في ترتيب الشعر على القوافي وفقاً لترتيب حروف الهجاء المغربية[2]، وثمّة مؤلَّف آخر هو "المختار من شعر أبي العتاهية وأخباره" لأبي الحسن علي بن أحمد بن العباسي، حيث تضمّن الكتاب أشعاراً وأخباراً كثيرة لأبي العتاهية تدلّ على إعجاب الأندلسيِّين بشعره لا سيّما الزهدي الذي كان رافداً أساسياً أسهم في استقواء حركة الزهد في الأندلس[3].

إنّ هذين المؤلّفين يكشفان عن نجاح الأندلسيِّين في تعاملهم مع الثقافة المشرقية برؤية شعرية تتلاءم مع حاجات المجتمع الأندلسي، فعندما تمكن هؤلاء من احتواء النتاج الثقافي الإبداعي الكائن في شعر أبي العتاهية جمعوا ذلك كله في مؤلفات مهمة أصبحت ترفد العقلية الأدبية الأندلسية بأفكار وصور غزيرة أغنت شعر الزهد تحديداً بروافد مشرقية أصلية.

رابعاً: الكتب الأدبية والمختارات الشِّعرية لكتّاب أندلسيين، حيث أدّت هذه الكتب دوراً كبيراً في نشر أشعار أبي العتاهية في الأندلس، ومن هذه الكتب "بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس لابن عبد البر القرطبي" حيث يُعد هذا الكتاب موسوعة أدبية حافلة بالنصوص المشرقية وفي جملتها أشعار أبي العتاهية وأخباره، وقد جمع ابن عبد البر في هذا الكتاب كثيراً من الأمثال والأشعار والحكم، حيث يقول في مقدمة كتابه: "وقد جمعت في كتابي هذا من الأمثال السائرة والأبيات النادرة والحكم البالغة والحكايات الممتعة في فنون كثيرة وأنواعٍ جمّة من معاني الدين والدنيا ما انتهى إليه حفظي ورعايتي، وضمنته روايتي وعنايتي ليكون لمن حفظه ووعاه وأتقنه وأحصاه زيناً في مجالسه، وأنساً لمجالسه، وشحذاً لذهنه وهاجسه، فلا يمرّ به معنى في الأغلب

([1]) القرطبي، الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال، ص13.

([2]) كانت طريقة ترتيب حروف الهجاء المغربية على النَّحو التالي: يأتي بعد الزّاي روي الطاء والظاء ثم الكاف واللام والميم والنون ثم الصّاد والضّاد والعين والغين فالفاء والقاف ثم السين والشين وبعدها تأتي الهاء والواو والياء. انظر: القرطبي، الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال، ص14.

([3]) بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، ص155.

مما يذاكر إلا أورد فيه بيتاً نادراً، أو مثلاً سائراً، أو حكاية مستطرفةً، أو حكمة مستحسنة، يحسن موقع ذلك في الأسماع، ويخفّ على النفس والطباع، ويكون لقارئه أنساً في الخلاء، كما هو زين له في الملاء، وصباحاً في الاغتراب كما هو حليٌ بين الأصحاب"[1].

وممَّا يدلّ على أهمية هذا الكتاب أنّه ضمّ أشعاراً لأبي العتاهية لم ترد في ديوانه المطبوع، هذا فضلاً عن قيام ابن عبد البر بتأليف كتاب شرح فيه زهديات أبي العتاهية، وهو لا يزال مخطوطاً[2].

ولا بدّ من الإشارة إلى الشواهد الدّالة على توظيف ابن عبد البر لأشعار أبي العتاهية، ففي باب الرزق يفتتح الباب بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾[4]، ثمّ يورد مجموعة من الأحاديث النبوية المتعلقة بالرزق منها قوله صلى الله عليه وسلم: "أبى الله أن يجعل أرزاق عباده المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون"[5]، ثمّ أورد من أشعار أبي العتاهية في الرزق قوله: [6]

وفَدتُ إلى اللهِ في وَفْدِهِ ... لأَلتَمِسَ الرِّزْقَ مِنْ عِنْدِهِ

إذا قَضَى اللهُ أمْرَاً مَضَى ... ولَمْ يَقْوَ حَيٌّ على ردِّهِ

([1]) القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر، (ت463هـ)، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، ط2، تحقيق محمَّد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981، ق1، ص36.

([2]) يوجد مخطوطة من شرح زهديات أبي العتاهية لابن عبد البر القرطبي بمكتبة عارف حكمت بالمدينة، انظر: القرطبي بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، ط2، ص26.

([3]) سورة الزخرف، آية32.

([4]) سورة النحل، آية 71.

([5]) القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس، ص137.

([6]) القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس، ص141.

ومنها قوله[1]:

طَـالَ همِّـي بغيـرِ مـا يعنِينـي وطِلابـي فَـوْقَ الـذي يَكْفِينـي

وَلَوْ أنَّني كَفَفْتُ لَمْ أبـغِ رِزْقِي كـانَ رزقـي هُوَ الـذي يَبغِينـي

أحمـدُ اللهَ ذَا المَعـارِجِ شـكراً مـا عليهـا إلا ضـعيف اليَقين

إنّ المعاني التي تضمنتها الأبيات تصدر من زاوية التصور الإسلامي لمسألة الرزق والتي جاءت واضحة جليّة في القرآن الكريم والسنة النبوية، كالتوكّل على الله تعالى في طلب الرزق، والأخذ بالأسباب في طلبه ثم الإقرار بفضل الله وحده على نعمه، فموضوع الزهد شغل ذهن أبي العتاهية وملأ عليه تفكيره ومضى يصوغه في شعره بألوانٍ مختلفة.

ومن أشعار أبي العتاهية التي أوردها ابن عبد البر في بهجة المجالس قوله:[2]

اصـبِرْ لِكُـلِّ مُصـيبةٍ وتَجَلَّـد واعلَمْ بِأنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخْلَّدِ

أو مَـا تَـرَى أنَّ المَصَـائب جَمَّـةٌ وتَـرَى المَنِيَّـةَ للعِبـادِ بمَرْصَـدِ

مَنْ لَمْ يُصَبْ مِمَّن تَرَى بِمُصيبةٍ هـذا سـبيلٌ لَسْـتَ فِيْـهِ بِأوحَـدِ

وإذا أتتـك مصـيبةٌ تشـجى بهـا فاذْكُرْ مُصَابَكَ بالنَّبِي مُحَمَّدِ

فأبو العتاهية يدعو إلى الصبر والتجلّد عند المصيبة، لأنّ الإنسان غير مُخلّد في هذه الحياة، والصبر صفة معنوية تدفع باتجاه الخير وتمنح الإنسان إرادة لكي يتمم الأمر الذي امتحن به[3]، والمصائب كثيرة، والموت يترصّد العباد في كلّ لحظة.

والطريقة المثلى التي يراها أبو العتاهية في الصبر على المصيبة هي تذكّر المصيبة الكبرى وهي فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، فهي مصيبة ما بعدها مُصيبة، وقد كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه إذا عزّى قوماً

([1]) القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس، ص148.

([2]) القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس، ق2، ص348.

([3]) الرواشدة، سامح، جماليات التعبير في القرآن الكريم، ط2، الصايل للنشر والتوزيع، عمان، 2013/2012م، ص144.

قال: ليس مع العزاء مصيبة، اذكروا فَقْدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، تسهل عليكم مصيبتكم" [1].

يمكن القول إنّ ثقافة أبي العتاهية وقدرته الشِّعرية وثقته بصواب مسلكه الزهدي، وتمكّنه من التصرف باللغة الشِّعرية كلّها كانت روافد مهمة في حصيلته الثقافية المتعلقة بفنّه الشِّعري، من هنا فقد لقيت أشعاره استحساناً ورواجاً في الأوساط الأندلسية.

ومن المؤلفات الأندلسية التي كان لها دور كبير في نشر أشعار أبي العتاهية: "العقد الفريد" لابن عبد ربه في كتاب الزمردة في المواعظ والزهد، حيث أورد فيه مواعظ من القرآن الكريم ثم مواعظ كثيرة للأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام والآباء للأبناء والحكماء والأدباء، ثمّ تحدّث عن الزهد ورجاله المعروفين به، إذ كان أبو العتاهية واحداً منهم، حيث أورد ابن عبد ربه له في هذا الكتاب أشعاراً كثيرة، منها قوله:[2]

كأنَّ الأرْضَ قَدْ طُوِيَتْ عليَّا ... وقَدْ أُخْرِجْتُ مِمَّا في يَدَيَّا
كَأنّي صِرْتُ مُنْفَرِدَاً وَحِيدَاً ... ومُرْتهناً هُنَاكَ بِمَا لَدَيَّا
كَأنَّ البَاكِياتِ عليَّ يَوْمَاً ... ولا يُغْنِي البُكَاءُ عَلَيَّ شَيْئَاً
ذكرتُ منيّتي فنَعَيْتُ نَفْسِي ... ألا أسُعِدْ أُخَيَّكَ يا أُخَيَّا

لقد قيل: كان أبو العتاهية غزير البحر، لطيف المعاني، سهل الألفاظ، كثير الافتنان، قليل التكلّف[3]، والناظر في شعره يلمس هذه السمات بوضوح، فضلاً عن قدرته على استلهام المبادئ والقيم الدينية في مخاطبة الناس وتأثيره بهم، وهو في هذه الأبيات يظهر بمظهر المرشد المنذر، والحكيم الواعظ، كيف لا وقد اتّخذ الشعر الزهدي فنّاً فأجاد فيه، وليس أدلّ على شاعريته الزهدية من وصفه للموت، وزوال بهجة الدنيا بأساليب مؤثرة.

([1]) القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس، ق2، ص348.

([2]) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمَّد، (ت328هـ)، العقد الفريد، ط ، تحقيق محمَّد التَّوْنخي، دار صادر، بيروت، 1427هـ-2006م، المجلد الثالث، ص129.

([3]) المقدسي، مراء الشعر العربي في العصر العباسي، ط17، ص164.

فالموت هو نهاية كل حيّ، وفيه يتوقّف الإنسان عن جميع الممارسات الدنيوية ويغيب عن دنيا الناس، والموت جسر للآخرة [1]، والقبر هو المنزلة الأولى من منازلها، وفيه يكون الإنسان مرتهن بعمله، إذ لا ينفع بكاء الباكين ولا يغني عنهم شيئاً.

إنّ أبا العتاهية يريد أن يذكر الإنسان بمصيره المحتوم الذي لا بدّ أن يصير إليه كما صار إليه السابقون الذين طواهم الموت وألقى بهم تحت التراب، وهذه المعاني والأفكار لقيت صداها في نفوس الأندلسيِّين الذين شُغفوا بشعر أبي العتاهية الزهدي وأخذوا يتدارسونه في مجالسهم ويستشهدون به في مؤلفاتهم.

ومن أشعار أبي العتاهية التي أوردها ابن عبد ربه:[2]

نَعَى لَكَ ظِلَّ الشَّبابِ المَشِيبُ ونَادَتْكَ باسمِ سِوَاكَ الخُطُوبُ
فَكُنْ مُسْتَعِدَّاً لرَيْبِ المنونِ فإنَّ الذي هُوَ آتٍ قَرِيبُ
وقَبْلك دَاوَى الطَّبيبُ المَريضَ فعاشَ المَريضُ وماتَ الطَّبيبُ

إنّ تصوّر أبي العتاهية للحياة تتألف من نظرة سديدة تتكون جزئياتها من الشباب والمشيب والمرض والموت، فالدنيا ظل زائل ليست مأمونة العواقب، والإنسان يجب عليه أن يكون مستعداً للموت لأنّ القادم قريب، والشيب نذير بدنوّ الأجل.

وقد تنوّعت موضوعات وأساليب الأشعار التي تضمنها كتاب الزمردة في المواعظ والزهد في العقد الفريد، ففي وصف حال من قتّر على نفسه وترك المال لورثته يقول أبو العتاهية:[3]

أبْقَيْتَ مالَكَ مِيرَاثاً لوارِثِهِ فليتَ شِعْري ما أبقَى لَكَ المالُ؟
القومُ بَعْدَكَ في حَالٍ تَسُرُّهُم فكَيْفَ بَعدهُمْ دارتْ بِكَ الحَالُ؟
ملّوا البكاء فما يبكيك من أحدٍ واستحكم القيل في الميراث والقال

([1]) العكش، إبراهيم علي، التربية والتعليم في الأندلس، ط1، دار الفيحاء ودار عمار، عمان، 1406هـ/1986م، ص31.

([2]) ابن عبد ربه، العقد الفريد، م3، ص131.

([3]) ابن عبد ربه، العقد الفريد، م3، ص153.

فالشاعر يعظ الإنسان بألا يحمل أوزاره إلى قبره ويترك ماله لأهله، وتقتير المرء على نفسه هو توفير منه لغيره، فالأولى بالمرء ألا يشغله ماله الذي هو مؤتمن عليه، وليعلم أنه عما قريب سيترك هذا المال ويرحل عنه إذ لا ينفعه وقتها إلا عمله الصالح.

لقد شُغف كثيرٌ من الأندلسيِّين بشعر أبي العتاهية الزهدي؛ إذْ كان محطّ إعجابهم، فتدارسوه في مجالسهم حتى أصبح رافداً مهماً من روافد قوّة حركة الزهد في الأندلس، ولعلّ مردّ ذلك كلّه هو التنشئة التي تربّى عليها الأندلسيُّون الذين تأثروا بلغة القرآن الكريم وألفاظه ومعانيه وأساليبه وصوره، إذ كان القرآن الكريم رافداً مهماً في ثقافتهم فجعلوه أصلاً في التعليم، يقول ابن خلدون في مقدّمته: "وأمّا أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسَّه ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلاً في التعليم"[1].

والسؤال الذي يمكن طرحه في هذا المقام: بماذا نفسّر إطلاق بعض الشُّعراء الأندلسيِّين أعنة خيولهم في حلبات المنافسة في وصف حياة اللهو والمجون، مقابل التزام بعضهم بتجسيد القيم والمثل التي جاء بها الإسلام، كالدعوة إلى الزهد وترك ملذّات الدنيا؟

إنّ انتشار آيات اللهو والترف والبذخ في سائر جوانب المجتمع الأندلسي، وتعدد مظاهرها وأشكالها كاقتناء القيان والجواري، وانتشار مجالس اللهو، والأنس والطرب، والغناء، وما فيها من شراب ولهو ومجون ووصف لمجالس الخمرة وإسراف وتبذير في إقامة الاحتفالات وبناء القصور[2]، كل هذه المظاهر قد صبّت في روع الشُّعراء، وربّما كانت – إلى جانب الأحداث والفتن السياسية التي شهدتها الأندلس– رافداً أصيلاً من الروافد التي أمدت القيم الإسلامية وعلى رأسها شعر الزهد.

([1]) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمَّد (ت:808هـ) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ص1250–1251.

([2]) القيسي، فايز عبد النبي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ط1، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، 1409هـ–1989م، ص170–172.

ويرى بعض الباحثين أنّ الصراع المتمثل بين مطالب الدين ومطالب الدّنيا لدى الشُّعراء الأندلسيِّين، لم يكن صراعاً بمفهوم أنّ لكل منهما غاية مناقضة للأخرى، وإنّما المسألة تدخل ضمن نطاق الجدّ والهزل، فأحياناً يستغرقون في طرق الجد وميادينه حتى إذا ما أدركهم الملل ذهبوا يروحون قلوبهم في معاني الهزل، فالجدّ يكون تجسيداً للقيم الإسلامية، والهزل طمأنة لنفوسهم وترويحاً عنها[1].

وعلى أيّة حال فإنّ الذي نريد تأكيده هو موقف الشُّعراء الأندلسيِّين من شعر أبي العتاهية[2]، إذ كان موقف إعجاب وتأثّر يثبت العلاقة الحيّة التي تربطهم بموروثهم المشرقي، إذ ينطلقون في احتفائهم بهذا الموروث واستلهامهم لنصوصه من إيمانهم العميق بضرورة نقل التراث والتعامل معه بصورة جديدة قادرة على تطويع الثقافة المشرقية لخدمة أشعارهم.

وقد رأينا حرص الأندلسيِّين على جلب الكتب والمؤلفات المشرقية إلى الأندلس، وإذا كانت أشعار أبي العتاهية قد لقيت قبولاً وانتشاراً واسعاً في الأوساط الأندلسية فحريٌّ بتلك الأشعار أن تسهم في تنشيط حركة الزهد في الأندلس وترفده بروافد إسلامية طالما أحبها الأندلسيُّون.

وقد أورد ابن خير الإشبيلي في فهرسته مؤلفات أدبية وصلت من المشرق إلى المغرب منها المختارا ،والدواوين، وكتب الطبقات، وكتب النوادر، وكتب الأدب[3]، وذكر المختار من شعر أبي العتاهية وأخباره من ضمنها حيث يقول:

([1]) بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي، ص405.

([2]) لمزيدٍ من الاطلاع حول كثرة مؤلَّفات الأندلسيِّين في موضوع الزهد، انظر: بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي، ص154-155.

([3]) المختارات كالمعلقات، والمفضليات، والأصمعيات، وأشعار الهذليين، ونقائض جرير والفرزدق، ويتيمة الثعالبي، وكتاب "الحماسة" لأبي تمام، والدواوين كديوان ذي الرمة، والأعشى، والمتنبي، وأبي العتاهية، والطبقات كطبقات ابن قتيبة، وطبقات النحاس، والنوادر كنوادر الحصري، ونوادر أبي زياد الكلابي، وكتب الأدب ككتاب زهر الآداب للحصري، وكتاب الآداب لابن المعتز، انظر: شلبي، سعد إسماعيل، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، ط1، دار نهضة مصر للطبع والنشر، 1973، ص11.

"حدثني به القاضي أبو بكر ابن العربي – رحمه الله– قال: حدَّثنا أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار، قال: حدَّثنا أبو القاسم غيلان بن أحمد بن غيلان، قال: حدَّثنا أبو الحسن علي بن أحمد بن العباس بن طلحة، وهو مختارها ومنتقيها"[1].

([1]) ابن خير، فهرسة ابن خير الإشبيلي، ص541.

الفصل الثاني
تأثير شعر أبي العتاهية في مضامين الخطاب الشِّعري الأندلسي

1.2 الأغراض والموضوعات:

لقد كان الزهد رافداً أصيلاً من الروافد التي ألهمت أبا العتاهية، وأغنت تجاربه الشِّعرية، وفتحت أمامه أبعاداً خصبة من الرؤية الكلية للحياة والوجود، وقد أثّرت أشعاره في مضامين الخطاب الشِّعري الأندلسي لاسيّما أشعاره الزهدية، التي تمثلها الأندلسيُّون وزادت من اهتمامهم بشخصيته، التي طالما نالت إعجابهم وحظيت باهتمامهم.

ويبدو أنَّ الطابع الإسلامي كان من أبرز المعالم المميزة للشعر الأندلسي قبل عصر الطوائف، فقد تناول موضوعات هذا الاتِّجاه أكثر شعرائه، وصبّت روافد هذا الاتجاه المتمثلة في القرآن الكريم والحديث الشريف في قرائح الشُّعراء، وظلت دافعاً أصيلاً للثقافة آنذاك[1]؛ لذا نجد لأشعار أبي العتاهية صدىً واضحاً وحضوراً متميزاً على مسرح الحياة الأدبية في الأندلس، فابن عبد البر القرطبي صاحب كتاب الاهتبال في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال– الذي سبقت الإشارة إليه– يُعلِّل سبب اختياره لأشعار أبي العتاهية إذ يقول: "والذي حملني على اختصاص شعر هذا الرجل دون غيره كثرة ما في شعره مما يزهّد في الدنيا ويرغّب في الآخرة، وهو في شعر غيره قليل، إلى ضروب من الحكم قد احتوى عليها نظمه، وقاده إلى حُسن نظمها طبعه، وقد شهد له شيوخ الأدب بالطبع وأثنوا عليه بتقدمه في ذلك"[2].

وقد بلغت شاعرية أبي العتاهية منزلة سامية في نفوس الآخرين، والشواهد على ذلك كثيرة، نذكر منها ما ورد في كتاب الأغاني للأصفهاني قوله: "أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا أحمد بن زهير قال: سمعت مصعب بن عبدالله يقول: أبو العتاهية أشعر الناس، فقلت له بأي شيء استحقّ ذلك عندك؟ فقال: بقوله:

---

[1] بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي، ص45.

[2] القرطبي، الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال، ص22.

تعلقـــــــــتُ بآمـــــــــالٍ ... طـــــــــوالٍ أيِّ آمـــــــــالِ
وأقبلـــــتُ علـــــى الـــــدُّنيا ... مُلحِّـــــــــاً أيَّ إقبـــــــال
أيَـــا هـــــذا تجهّـــزْ لـــــ ... فـــــراقِ الأهـــــل والمـــــالِ
فـــــلا بُـــــدَّ مِـــــنَ المـــــوتِ ... علـــــى حـــــالٍ مـــــن الحـــــالِ

ثمَّ قال مصعب: هذا كلام سهل حق لا حشو فيه ولا نقصان، يعرفه العاقل ويُقرّ به الجاهل"[1].

إن لغة الزهد تختلف عن غيرها، فأبو العتاهية يريد مخاطبة العامة من الناس؛ لذا اختار اللُّغة القريبة إلى إفهامهم ليتمكن من التأثير في نفوسهم ويبث بينهم رسالته التي طالما آمن بها، من هنا استطاعت أشعاره الزهدية بما تتسم به من بساطة وسهولة في الصياغة والبناء أن تلقى قبولاً واسعاً وتحظى بإعجاب الآخرين.

وأنشد أبو عبدالله بن الأعرابي قول أبي العتاهية في الرشيد حين حُمَّ، فصار أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع برقعة فيها:

لـو علـمَ النـاسُ كيـفَ أنـتَ لهـم ... مـــاتوا إذا مـــا ألِمْـــتَ أجمَعُهُـــم
خليفـــــةَ اللهِ تـــــرجُحُ بالنَّـــــا ... سِ إذا مـــا وُزِنْـــتَ أنـــتَ وَهُـــم
قـد عَلِـمَ النـاسُ أن وجْهـكَ يَـسْ ... تغنـــــي إذا مـــــا رآه مُعْـــــدِمُهُم

فسَّر ابن الأعرابي بهذه الأبيات، وأثنى على أبي العتاهية، وقال: "هو أشعر الناس. فقال له رجل في مجلسه: ما هذا الشعر بمستحقّ لما قلت. قال: ولِمَ؟ قال: لأنه شعر ضعيف. فقال ابن الأعرابي – وكان في حِدّة– الضّعيف والله عقلك لا شعر أبي العتاهية، ألأبي العتاهية تقول ضعيف الشعر! والله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت شعر منه، ولا أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر، ثم أنشد له:

---

[1] الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، (ت356هـ)، الأغاني، 2000م، تحقيق إحسان عباس، وإبراهيم السعافين، وبكر عباس، ط1، دار صادر، بيروت، المجلد الرابع، ص11.

قطّعــتُ منــك حبائــلَ الآمــالِ وحَططتُ عن ظَهْرِ المطيِّ رحالي
ووجدتُ بَردَ اليأسِ بين جوانحي فأرحْتُ مــن حــلٍّ ومــن تَرْحــالِ
يا أيها البَطِرُ الذي هو من غدٍ فــي قبــره متمــزِّقُ الأَوصــالِ
حذَف المُنى عنه المُشمِّرُ في الهُدى وأرى مُنَــاكَ طَويلــةَ الأذْيــالِ
حِيَلُ ابنِ آدمَ فــي الأُمــورِ كثيرةٌ والمــوتُ يَقطــعُ حيلــةَ المُحتــالِ
قِستُ السؤالَ فكان أعظمَ قيمةً مــن كــلِّ عارفــةٍ جَــرَتْ بســؤالِ
فإذا ابتُليتَ ببذلِ وجهِك سائلاً فابذُلْــــه للمُتكــــرِّمِ المِفضــــالِ
وإذا خَشــيتَ تَعــذُّراً فــي بلــدةٍ فاشــدُدْ يَــديْك بعاجــلِ التَّرحــال
واصبِرْ على غِيَر الزمانِ فإنّما فَــرجُ الشّــدائِدِ مثــلُ حَــلّ عِقــالِ

ثمَّ قال للرجل: هل تعرف أحداً يُحسنُ أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل: يا أبا عبدالله، جعلني الله فداءك، إنّي لم أرْدُدْ عليك ما قلت، ولكنّ الزّهدَ مذهبُ أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد"[1].

إنّ هذين الشاهدين يدلان على عمق صلة أشعار أبي العتاهية بالأدباء ومتذوقي الشعر، فأشعاره حققت تجاوباً كبيراً بينه وبينهم لاسيما أشعاره الزهدية التي تعمقت جذورها في الشعر العباسي على يديه.

وثمَّة قضايا كثيرة يمكننا استخلاصها من هذه الشواهد، منها أنَّ أشعار أبي العتاهية أصبحت تشكل منطلقاً جديداً وتفتح نوافذ جديدة في فن شعري يمثِّل روحاً حية ضمن نتاج الشُّعراء المحدثين الثقافي، فطريقة أبي العتاهية في شعره الزهدي كشفت عن تعطش العامة لأثر تلك الأشعار، وجعلتهم يستجيبون لواقع هذا الشعر في ظل الصراع الذي شهده العصر العباسي.

ومنها إعجاب كبار الأدباء والنقاد بشعره وتقديرهم له، فأبو العتاهية كان شاعراً بطبعه، وكان شعره لطيف المعاني، سهل الألفاظ، قليل التكلف، بعيداً عن التعقيد

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، المجلد 4، ص13– 14، القرطبي، الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال، ص24– 25.

والإلتواء[1]، ولعلَّ شخصية أبي العتاهية الزهدية أخذت تظهر واحدةً من الشخصيات المألوفة في الحياة الروحية، فقد تعلّق بالزهد، وفرغ وقته لإنشاد الشعر فيه؛ حتى غدا شعره الزهدي أغنى الموضوعات التي طرقها في عصره.

ومن القضايا التي يمكننا استخلاصها أيضاً، هي شعبية أبي العتاهية الشِّعرية، إذْ تميّز في شاعريَّته بالشعبية اللفظية وشعبية الفكرة في قربها وبساطتها[2]، فقد كان يعمد إلى المعاني والأفكار المطروحة في طرقات العامة، ويستطيع بعبقريته الفذة أن يحيلها إلى عمل شعري يتميز بسهولة الألفاظ وجمالية الإيقاع، متجاوزاً التقاليد الفنية في التصوير والتعبير. ولعلَّ الأبيات السابقة التي أنشدها ابن الأعرابي لأبي العتاهية تغني عن التعريف بهذه الشعبية، فقد انتصر ابن الأعرابي لأبي العتاهية وأخذته الحميّة في الدفاع عن شعره عندما أثاره قول أحدهم: "إنه شعر ضعيف"[3].

لم يكن لبواعث الإعجاب بأشعار أبي العتاهية أن تصل إلى حدّ التعصّب الذي رأيناه لولا قدرة الشاعر على توسيع قدراته في معالجة الموضوع الشِّعري الذي تناوله، فقد أفاد أبو العتاهية في بناء نسيجه الشِّعري من الاستعانة بالعظات الدينية، التي تستمد معانيها من فكرة الموت التي طالما ألحَّ عليها في شعره، ذاك الشعر الذي جاء توليداً إبداعياً شخصياً ناجماً عن قدرته الشِّعرية وسعة خياله وموهبته الفنية.

إنَّ لغة الشاعر في كل زمان ومكان تخضع لذوقه وتكوينه الثقافي وتأثير العصر فيه، كما تخضع لعبقريته وتجربته الشِّعرية؛ لأنَّ اللُّغة ليست مجرد ألفاظ تقال ولكنَّها بناء حي وتعبير عن المضمون، وقد اتسمت لغة أبي العتاهية الشِّعرية بسمات أهمها النثرية والشعبية، فالزهد يعتمد أساساً على النثر وبالذات على الخطابة، ولعلّ أبا العتاهية وجد في التراث النثري الضخم –الذي عرفه العصر الأموي من قبل– مادة

---

[1] الدّش، محمَّد محمود، أبو العتاهية حياته وشعره، 1388هـ– 1968م، ط1، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص269.

[2] أبو الأنوار، محمَّد، الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية، 1983م، ط1، مكتبة الشباب، القاهرة، ص301.

[3] انظر: الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص13.

خصبة يستمد منها معانيه وأفكاره التي كان قديراً قدرة فائقة على صبّها في قوالب الوزن والقافية[1].

من هنا كان أبو العتاهية قادراً على ترجمة المواعظ النثرية إلى أبيات شعرية، لذا يمكن القول إنَّ العمل الفنِّي عنده ترجمة شعرية يترجم فيها النثر إلى شعر بما أوتي من قدرة فائقة على قول الشعر، كيف لا وهو القائل: "لو شئت لجعلت كل كلامي شعراً"[2].

أمَّا الشعبية فقد اختارها أبو العتاهية طريقة انحدر بها إلى مستوى العامة حتى يحدثهم بالأسلوب الذي يفهمونه، وعليه تكون الشعبية: الدوران مع العامة في دائرتهم التفكيرية والشعورية والتعبيرية حتى يتم له التجاوب معهم والتأثير فيهم[3].

لقد جنح أبو العتاهية نحو البساطة والسهولة والشعبية في لغته الشِّعرية، كما ابتعد عن الأساليب التعبيرية القوية، إذ صاغ أشعاره الزهدية في قوالب لغوية بسيطة وأساليب تعبيرية قريبة من عقول الجمهور ومستواهم الإدراكي، ولنا أن نتخيل لو أنه استخدم ألفاظاً عسيرة، ومعاني عميقة في خطابه لجمهوره، ترى كيف تكون النتيجة؟ لا شكَّ أنَّ الطريقة الأولى هي المثلى لإسماع الفئات الشعبية التي طالما أحبّت شعره وتعلّقت به.

ويرى يوسف خليف أنَّ أبا العتاهية يقدِّم ثلاثة ألوان من شعره الزهدي: عظات دينية تشبه تلك العظات النثرية التي عرفها زهاد العصر الأموي، وحكماً أخلاقية تشبه الحكم التي تدور حول محور النفس الإنسانية وما يعتمل فيها من صراع بين الخير والشر، ثم ابتهالات إلى الله تعالى تشبه ابتهالات الصوفيين، حيث إنَّ هذه الألوان الثلاثة تعد آثاراً لزهده واصداءً لتلك الحياة الزاهدة التي عاشها ونتيجة طبيعية لحديثه

---

[1] خليف، يوسف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، ص 103.

[2] أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم، (ت211هـ)، ديوان أبي العتاهية، شرح وتقديم عمر فاروق الطباع، 1417هـ/1997م، ط1، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ص14.

[3] خليف، يوسف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، ص104.

الطويل عن الحياة والموت والمصير[1]، وسأتبنَّى هذا التقسيم الذي انتهى إليه يوسف خليفة، بَعْدَ استغراقه في قراءَة ديوان أبي العتاهية، ومحاولة مقارنة الشعر الأندلسي به، مع بيان ما بينهما من اختلافٍ في الرُّؤيا والتَّشكيل.

2.2 العظات الدينية:

إنَّ الذي يقرأ ديوان أبي العتاهية يجده مليئاً بتلك العظات الدينية التي يستمدُّ معانيها من القرآن الكريم والحديث الشريف ومن مواعظ أصحاب القصص الديني والخطابة الوعظية، ثمَّ من آرائه في الحياة والموت، وهي تهدف كلها إلى هدف واحد هو رفض الدنيا والعمل للآخرة[2]، وهو في مواعظه تلك يستخدم أساليب متنوعة بين رفق ولين وتعنيف وشدّة وبين ترغيب وترهيب، لكنه في كل الأحوال يتمنى الخير للنَّاس ويرجوه لهم.

والحديث عن زهد أبي العتاهية حديث طويل إذا نحن أطلقنا العنان لأنفسنا لتتبُّع جزيئات هذا الموضوع، لكن الذي يهمنا في هذه الدراسة هو الأثر الذي تركته أشعاره في مضامين الخطاب الشِّعري الأندلسي، والرسالة التي حققتها هذه الأشعار لدى الشُّعراء الأندلسيِّين، إذْ لقيت إقبالاً كبيراً وانتشاراً واسعاً لديهم كشف عن عمق أثر تلك الأشعار في ترقية الذوق والإحساس لدى الأندلسيِّين وإثراء معرفتهم بتجارب الثقافة المشرقية المتمثلة في شعر أبي العتاهية.

إنّ الشعبية الشِّعرية التي أشرنا إليها سابقاً كانت منزع أبي العتاهية الخطابي، لأنه يتوجه بها إلى العامة والخاصة على حدٍّ سواء، وهي ذات قدرة كبيرة في التأثير والجذب، إذ لها سيطرتها وحضورها في نفس المتلقي[3]، وقد كان أبو العتاهية يعرف

---

[1] خليف، يوسف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، 1388هـ – 1968م، ط1، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص552.

[2] خليف، يوسف، تاريخ الشعر العباسي، ص99.

[3] أبو الأنوار، الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية، ص303.

كيف يحرك الأوتار ويستثير المشاعر والقلوب من خلال اتكائه على الوعظ الذي يعد في جوهره أسلوباً خطابياً، يقول أبو العتاهية:

قد سمعنا الوَعظَ لو ينفعُنا ... وقرأنا جُلَّ آياتِ الكُتبْ
كلُّ نفسٍ ستُوفَّى سَعْيها ... ولها ميقاتُ يومٍ قَدْ وَجَبْ
جَفَّتِ الأقلامُ منْ قبلُ بما ... حتّم اللهُ علينا وكتبْ
يهرُبُ المرءُ من الموت وهَلْ ... ينفعُ المرءَ مِنَ الموتِ الهَرَبْ
كلُّ نفسٍ ستُقاسي مَرَّةً ... كُرَبَ المرتِ فَلِلموتِ كُرَبْ
أيها ذا الناسُ ما حَلَّ بكمْ؟ ... عجباً من سَهْوكُم كلَّ العَجَبْ
أمَقامٌ ثَمَّ موتٌ نازلٌ ... ثَمَّ قبرٌ ونشورٌ وجَلَبْ؟
وحسابٌ وكتابٌ حافِظٌ ... وموازينُ ونارٌ تَلْتَهبْ
وصِراطٌ من يقعْ عن حَدِّهِ ... فإلى خِزْيٍ طويلٍ ونَصَبْ
حسْبيَ اللهُ إلهاً عادلاً ... لا لعَمْرُ اللهِ ما ذا بِلَعبْ[1]

إنَّ العظات الدينية عند أبي العتاهية تتراوح بين أساليب عدة. تتراوح بين لين وشدّة، بين مدّ وجزر؛ لأنَّ طبائع البشر مختلفة فمنهم من لا يصلح طبيعته البشرية إلا النصح، ومنهم لا يصلح شأنه إلا بالترهيب والعنف، لكنّ أبا العتاهية في كلتا الحالتين يبغي للفريقين الخير[2].

وإذا كانت العظات الدينية تمثل واحداً من موضوعات شعره الزهدي، فإنَّه جعلها مرآة تعكس تأمُّلاته في الموت والحياة وأحاطها بجوٍّ دينيٍّ إسلاميٍّ طالما اتخذه منهجاً شعرياً يهدف إلى رفض الدنيا والعمل للآخرة.

ففي الأبيات السابقة، نلمس قيماً روحية تمثَّلت في ترجمة ذات الشاعر إزاء الموت والنشور والحساب، وهي في الوقت نفسه تكشف عن استلهام الشاعر لتلك المعاني التي استوحاها من القرآن الكريم، إذْ يبدو الأثر القرآني جليَّاً في تلك الأبيات،

---

[1] القرطبي، الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال، ص 54.

[2] خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص544.

ففي قول الشاعر: "كل نفس ستوفي سعيها" استلهام للآية القرآنية الكريمة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[1] وفي قوله:

يهربُ الإنسانُ من الموتِ وهَلْ ينفعُ المرءَ من الموتِ الهَرَبْ

إشارة واستلهام لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾[2].

وأمَّا قوله:

وحسابٌ وكتابٌ حافظٌ وموازينُ ونارٌ تلتَهبْ

ففيه استلهام للآيات القرآنية: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[3] و ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[4].

فالأبيات جاءت بطريقة مباشرة تكشف عن قدرة أبي العتاهية التعبيرية عن تلك الأجواء الزهديّة التي كان يعيشها، وهي التي توحي إلى المتلقي بالتأمّل وتعمق من تفكيره في قضيّة الموت والحساب.

وقد لقيت هذه المعاني قبولاً ورواجاً لدى الأندلسيِّين الذين طالما تعطشوا لسماعها؛ لأنَّها أسهمت في تقوية الاتجاه الشِّعري الزهدي عندهم، أو على الأقل عند بعضهم.

وإذا نحن تتبعنا رحلة الزهد في الأندلس وجدناها حافلةً بالشواهد الشِّعرية التي تجسّد معاني أشعار أبي العتاهية، فهذا يحيى بن الحكم الغزال يقول:

ألمّا يُبصروا ما خرَّبتْه الدُّ هورُ من المدائنِ والقُصورِ
لعمرُ أبيهمُ لو أبصرُوهمْ لما عُرفَ الغنيُّ من الفقير
ولا عرفوا العبيدَ من الموالي وَلا عَرفُوا الإناثَ من الذّكورِ
ولا من كان يلبسُ ثوبَ صوفٍ من البَدَنِ المباشرِ للحَريرِ

---

[1] سورة النجم، آية 39.

[2] سورة الجمعة، آية 8.

[3] سورة ق، آية 4.

[4] سورة الأنبياء، آية 47.

إذا أكـــل الثَّـــرى هـــذا وهـــذا فما فَضَلُ الكبيرِ على الحقيرِ؟![1]

إن الفكرة التي طرحها الغزال شبيهة بتلك التي وردت عند أبي العتاهية إذ يقول:

المـــوتُ بـــين الخلـــق مُشـــترَكُ لا سُـــــوقَةٌ يبقَـــــى ولا مَلِـــــكُ
مـــا ضـــرَّ أصـــحابَ القليـــلِ ومـــا أغنـــى عـــنِ الأمـــلاكِ مـــا مَلَكُـــوا
عجبـــاً تشـــاغل أهـــلُ ذي الـــ ـــدّنيا ومـــا فيهـــا لهُـــمْ دَرَكُ
طَلَبُـــوا فمـــا نـــالوا الـــذي طَلَبُـــوا فِيْهـــا وفـــاتَهُمُ الـــذي دَرَكُـــوا
لـــم يختلِـــفْ فـــي المـــوتِ مَســـلكُهمْ لا بـــلْ ســـبيلاً واحـــداً سَـــلَكُوا[2]

لعلَّ القضيّة الأبدية التي كان أبو العتاهية يعمد إلى طرحها هي قضيّة الموت، ذلك المصير المحتوم الذي تشاغل عنه الناس في طلب الدنيا، فهو لا يفرّق بين عبد وسيد ولا بين حاكم ومحكوم فالكل أمام الموت سواء.

إنَّ الفكرة التي طرحها الشاعران تلتقي في معنى واحد هو أنَّ جميع الناس أمام الموت سواء، وسوف ينتهي البشر كلهم إلى هذا المصير الذي يبيد السادة كما يبيد العبيد ويبيد الغني كما يبيد الفقر، فالكل يسلك سبيلاً واحداً مشتركاً. فقد وظف كلا الشاعرين هذه الفكرة في نصّه الشِّعري بما ينسجم وتجربته التي أراد أن يعبّر عنها، على أنَّ ثمَّة تشابهاً بين التجربتين، وهذا يؤكد قدرة الشاعرين على إبراز القيم والمعاني الزهدية التي يحرصان على إظهارها في أشعارهما.

ولم تغب هذه الفكرة عن ابن حمديس الذي أكدّ أنَّ الموت سوّى بين البشر على اختلاف طبقاتهم، حيث يقول:

ودوامُ البقـــاءِ فـــي دارِ أُخـــرى ومجـــــازاةُ فـــــاجرٍ وتقـــــيِّ

---

[1] الغزال، يحيى بن حكم، (ت250هـ)، ديوان يحيى بن حكم الغزال، ط1، حققه وشرحه وقدَّم له: محمَّد رضوان الداية، 1402هـ/ 1982م، ص86؛ ويرجِّح محمَّد الشوابكة في جمعه وتحقيقه لشعر يحيى بن هذيل القرطبي (ت389هـ)، أن هذه الأبيان ليحيى بن هُذيل. انظر: يحيى بن هُذيل، شعر يحيى بن هُذيل القرطبي الأندلسي، جميع وتحقيق: محمَّد علي الشوابكة، (1416هـ/1996م)، ط1، منشورات جامعة مؤتة، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، ص132.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص237.

كـــم مليـــكٍ وســـوقةٍ وشـــجاعٍ وجبـــــانٍ طـــــائعٍ وعصـــــيٍّ
نشـــــرتهم حيـــــاتُهم أيَّ نشـــــرٍ وطـــــواهم حمـــــامُهم ايّ طـــــيٍّ
فهـم فـــي حشـــا الضَّـــريحِ ســـواءً ولقـــد كـــان ذا لـــذا غيـــر ســـيٍّ[1]

إنّ الموت– كما يرى ابن حمديس– أعظم عامل توحيد لبني البشر، فبعد أن كانوا في الدنيا طبقات متفاوتة جاء الموت فسوى بين الملك والسوقي والشجاع والجبان والطائع والعاصي[2]، فالشاعر يكشف عن مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام، وهو المساواة بين جميع البشر أمام سطوة الموت.

وقد تردَّدت فكرة الموت في شعر أبي العتاهية بصورة واسعةٍ، حيث عبّر عنها في صورٍ مختلفة وبأساليب متعددة، فهو "يطوف حولها حيناً ويتغلغل في أعماقها حيناً آخر، ويعرض منها نماذج مختلفة"[3]، فالإنسان يلد للموت ويبني للخراب وسوف تكون نهايته إلى التراب، وفي هذا المعنى يقول:

لِـــدوا للمَـــوْتِ وابنُـــوا للخـــرابِ فكُلّكُـــمُ يَصـــيرُ إلـــى تَبَـــابِ
لِمَـــن نَبْنـــي ونحـــنُ إلـــى تُـــرابٍ نَصـــيرُ كمَـــا خُلِقْنَـــا مِـــنْ تُـــرابِ
ألا يـــا مـــوتُ! لـــم أرَ مِنْـــكَ بُـــدّاً أتيـــتَ ومـــا تحيـــفُ ومـــا تُحـــابي[4]

فأبو العتاهية يتغنى بالكأس الخالدة؛ كأس الموت الدائرة على الخلق جميعاً، إذ إن جميع الخلق سيرحلون طال الزمان أو قصر؛ لانَّ الموت أمر لا مفرّ منه وهو قادم لا محالة بل إنَّه لا يُحابي ولا يميز بين اثنين، فالكل متساوون أمامه.

ونلاحظ أنَّ أبا العتاهية بدأ أبياته بالدخول مباشرة إلى الموضوع الرئيس وهو التذكير بالموت ليكون قريباً من نفوس الناس، وتحقيقاً لهذه الغاية نجده يستخدم أساليب الأمر والنداء (لدوا– ابنوا– ألا يا).

---

[1] ابن حمديس، أبو محمَّد عبد الجبار بن أبي بكر، (ت527هـ)، ديوان ابن حمديس، 1960م، ط1، صححه وقدم له إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص526.

[2] المجدلاوي، هيام، الزهد في الشعر الاندلسي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، رسالة ماجستير غير منشورة، 2010م، جامعة الأزهر، غزة، ص78– 79.

[3] خليف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، ص90.

[4] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص46.

وفي الأبيات التالية نجد أبا العتاهية شديد الإيحاء بالمشهد الجنائزي الذي يبدأ بمرض الموت وينتهي بانسحاب المشيعين من حول القبر، وما يتبع ذلك من نسيان الناس لموتاهم حيث يقول:

وكـــأنَّ بـــالمَرءِ قـــدْ يبـــ ... كـــي عليـــهِ أقرَبُـــوهُ
وكـــأنّ القـــومَ قـــدْ قَـــا ... مُـــوا، فقـــالوا أدْرِكـــوهُ
ســـائِلوهُ، كلِّمُـــوهُ ... حَرّكـــوهُ، لقّنـــوهُ
حَرِّفُـــوهُ وجّهُـــوهُ ... مَـــدّدوهُ غَمّضُـــوهُ
عجِّلـــوهُ لرَحيـــلٍ ... عَجَّلـــوا لا تحبِســـوهُ
ارْفعُـــوهُ غسِّـــلُوهُ ... كَفِّنـــوهُ حنِّطـــوهُ
فـــإذا مـــا لُـــفَّ فـــي الأكْـــ ... فَـــانِ قـــالوا: فـــاحملوهُ
أخرِجُـــوهُ فَـــوقَ أعْـــوَا ... دِ المنَايـــا، شَـــيّعُوهُ
فـــإذا صَـــلّوا عَلَيـــهِ ... قيـــلَ: هـــاتُوا واقبُـــرُوهُ
فـــإذا مـــا اسْـــتَودَعُو ... هُ الأرضَ رهنـــاً تركـــوهُ
ودَّعـــوهُ فـــارقُوهُ ... أسْـــلموهُ خَلّفُـــوهُ
وانثنَـــوا عَنْـــهُ ... وخلّـــوهُ كـــأنْ لـــم يعرفـــوهُ[1]

لقد اختار أبو العتاهية كلماتٍ معبرة مليئة بالصور الحية للمشهد الجنائزي، حين ينعى المتوفَّى، فيصوِّر حضور المشيعين وإسراعهم في تغسيله وتكفينه، ثم يُحمل على أكتاف الرجال ليُصلّوا عليه[2]، وبعدها يوارى الثرى ويبقى وحيداً في قبره ثم ينصرف عنه المشيّعون كأنَّهم لم يعرفوه.

ويركز أبو العتاهية على جانب الإيجاع بقضيّة الموت وما يتبعها من نسيان الناس لموتاهم، ولعلَّ الأبيات تدل على اقتدار فني في التقاط المعاني البسيطة من

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص353– 354.

[2] انظر: عبدالله، محمود لطفي، التجربة الزهدية بين أبي العتاهية وابي إسحاق الإلبيري (دراسة موازنة)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس– فلسطين، ص55.

جهة وفي براعة إيقاعها من جهة أخرى. إنه لحن الموت يعزفه شاعر الموت على أوتاره الحزينة الباكية.

لم يترك أبو العتاهية شيئاً يثير في النفس الوحشة والتشاؤم إلا ذكره، ويرى يوسف خليف أنَّ أبا العتاهية يعتمد على الوزن القصير السريع– مجزوء الرمل– ليمثّل به سرعة انحدار قصة الحياة إلى نهايتها، ثم يعتمد على هذه القافية الهائية (الموصولة بمد) ليمثل بها النواح والنحيب وتلك الآهات والزفرات التي تنبعث من صدور الحزانى في مناحات الموتى حارة طويلة عميقة[1]، وهو بهذا يعتمد على التوجيهات والقيم الإسلامية والتصور القرآني لحقيقة الحياة التي تنتهي بالموت، إذ يقدِّم تفصيلاً دقيقاً لتلك النهاية التي لا بدّ منها، ويبثّ ذلك في جوٍّ شعري مؤثّر لعلَّ سامعه يؤوب إلى نفسه ليستعد لتلك اللحظات.

إنَّ هذه المعاني التي سعى أبو العتاهية نحو استجلائها والتي تمثِّل خصوصية تجربته الزهدية المتعلقة بمسألة الموت تشق طريقها عند زاهد الأندلس أبي إسحاق الإلبيري (ت460هـ)، إذ يذكر الموت ويصف مشاهده ويدعو إلى الاستعداد له، حيث يقول:

كَـــمْ آمِـــنٍ للمَنـــونِ لاهٍ ... عَـــن الـــرَّدى بـــاتَ مُطْمَئِنَّـــا
صـــبّحَهُ وافِـــدُ المَنايـــا ... فعَـــاينَ المَـــوْتَ حـــينَ عَنَّـــا
حتّـــى إذا مـــا قَضـــى بَكـــاهُ ... حَميمـــهُ مُعْـــولاً مُرِنَّـــا
وارَوْهُ فـــي لَحْـــدِهِ وســـنُّوا ... عليـــه قيـــدَ التُّـــراب سَـــنَّا
وانتهَبـــوا مـــا لَـــهُ وشـــنُّوا الـــ ... غـــاراتِ فيمـــا حَـــواهُ شَـــنَّا
لِمثْـــل هـــذا فكُـــنْ مُعِـــدّا ... مـــا قـــدْ أعَـــدَّ الهُـــداةُ مِنَّـــا
وارتقـــبِ المَـــوتَ فهـــوَ حـــتْمٌ ... يَخْتَـــرِمُ الطِّفْـــلَ والمُسِـــنَّا[2]

---

[1] خليف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، ص537.

[2] الإلبيري، أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري، (ت460هـ)، ديوان ابي إسحاق الإلبيري، حققه وشرحه: محمَّد رضوان الداية، 1411هـ/ 1991م، ط1، دار الفكر، بيروت– دمشق، ص142.

إنَّ الفكرة التي تناولها الشاعران وأجادا الحديث فيها هي فكرة الموت، إذ استشفوا منه العبرة؛ لأنَّه الجسر الذي يبلغهم الآخرة ويصلهم بها، فوصفا مشاهده المرعبة التي تنتظر الناس. فالمعاني التي تناولها الإلبيري– وهي قريبة من معاني أبي العتاهية– تذكر الإنسان بهذا المصير الذي طالما ينتظره، ويختار لشعره قافية تنتهي بالنون المشدَّدة وكأنَّه يريد أن يقرع آذان السامع ليظل في تذكّر دائم لتلك النهاية التي لا تفرّق بين الطفل والمُسن.

لقد جاءت معاني الموت صورةً صادقةً معبّرةً عن الاتجاه الزهدي وروحه عند أبي العتاهية، فقد أضفى عليها من موهبته وعبقريته ما جعل تلك المعاني مستقاة من الإبداع الفني في قدرتها على التعبير وتشكيلها الجمالي الذي يؤثّر في النفوس، يقول أبو العتاهية:

يا خائِفَ الموتِ لو أمسَيتَ خائَفهُ ... كانتْ دموعُكَ طولَ الدّهرِ تنبجسُ
أما يَهُولُكَ يومٌ لا دِفاعَ لَهُ ... إذْ أنتَ في غَمَراتِ المَوتِ تَنْغَمِسُ
إنّ الخلائِقَ في الدنيا لو اجتَهَدوا ... أن يحبسوا عنْكَ هذا المَوتَ ما حبسوا
إنّ المنيّة حَوْضٌ أنتَ تكرهُهُ ... وأنتَ عمّا قليلٍ فيه مُنغَمِسُ[1]

نلاحظ أنَّ أبا العتاهية صاغ معانيه بأساليب قريبة من عقول الجمهور ومستواهم الإدراكي حتى غدا الاتجاه الشعبي هو السّمة الغالبة على أشعاره، إذْ استطاع التقاط المعاني البسيطة المتعلقة بقضيّة الموت وتقديمها بأسلوب وعظي مؤثر، لذا حظي شعره الزهدي بجماهير تؤيده وتحفظه وتتناقله ألسنتهم.

لقد كان أبو العتاهية يمدّ ألفاظه على بساطتها بزخم من المعاني القادرة على ملامسة مشاعر المتلقي وإثارة عواطفه إزاء قضيّة الموت، وذلك إذْ يقول:

هوَ الموتُ فاصنَعْ كلَّ ما أنتَ صانعُ ... وأنتَ لكأسِ الموتِ لا بدّ جارعُ
ويا جامِعَ الدُّنيا لغَيرِ بِلاغهِ ... سَتَتْرُكُها فانظُرْ لِمَنْ أنتَ جامعُ[2]
أرى الموتَ قد أفنى القرونَ التي مضَتْ ... فلَمْ يبقَ ذو إلْفٍ ولَم يَبقَ آلِفُ
كأنّ الفتى لم يَفْنَ في النّاسِ ساعةً ... إذا أُعصِبَتْ يوماً عليه اللّفائِفُ

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص 172.
[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص196.

وقامـــتْ عليـــه عُصْـــبةٌ يندبُونَـــهُ فمُسْـــتَعبِرٌ يبكـــي وآخَـــرُ هـــاتِفُ
وغُـــودِرَ فـــي لحـــدٍ كريـــهٍ حُلُولُـــه وتُعْقَـدُ مِـنْ لَـبْنٍ عليـه السّـقائِفُ[1]
ألـم تَـرَ هـذا المـوتَ يَسـتَعرضُ الخلْقَـا تـرى أحـداً يَبقـى فتطمـعُ أن تبقـى
لكـلِّ امـرئٍ حَـيٍّ مـن المـوتِ خُطّـةٌ يَصـيرُ إليهـا حـينَ يَسـتكملُ الرّزْقـا[2]

بهذه الطريقة شكّل أبو العتاهية لوحات فنيّة ألبسها معاني شفافة ترجم من خلالها نظرته للحياة والموت، فالموت آتٍ لا محالة والإنسان الذي يجمعُ في الدنيا سوف يترك كل الذي جمع، والدليل أنَّ الموت قد أهلك القرون السابقة إذ لم يبقَ من أهلها أحد حيّ، ثم يورد أبو العتاهية مشهداً لعله أشد وقعاً وأثراً في النفس وهو حال الفتى عندما يموت فيُلفُّ في الكفن ويُعصبُ رأسه والكل يندبه ويبكيه ثم يوارى الثرى في لحده ويُسقُف عليه القبر، هذا المصير سيكون لجميع الخلق حينما تستوفي كل نفسٍ أجلها ورزقها.

ويتكرر حديث أبي العتاهية عن الموت بمعانٍ مؤثرة وتراكيب دقيقة، فالموت حقٌ ولكنّ الناس في غفلةٍ عنه:

المـــوتُ حـــقٌّ والـــدّارُ فانيـــةٌ وكُـلُّ نفـسٍ تُجـزى بمـا كَسَـبتْ
والنـاسُ فـي غفلـةٍ وقـد حَلّـتِ الـ آجـــالُ فـــي وقتهـــا واقتَرَبـــتْ[3]

فالشاعر يغني أجواءه الشِّعرية باستيحاء آيات قرآنية تمثلت في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾[5]. حيث استمد تصوّره لفكرة الموت من خلال اعتماده على الروح القرآني، فأصبح خطابه وكأنه صدى لذاك التوجّه القرآني الذي يكشف الحقيقة المستقبلية للبشر بعد موتهم.

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص217.
[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص218.
[3] القرطبي، ابن عبد البر، الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال، ص77– 78.
[4] سورة غافر، آية 17.
[5] سورة الأعراف، آية 185.

ويضفي أبو العتاهية على مسألة الموت من تجربته الشِّعرية وثقافته ما يحرك به مشاعر السامعين، فيميل إلى رقة الألفاظ وخفة المعاني، فالموت لا يفرق بين صغير وكبير ولا بين والد وولده:

الموتُ لا والداً يُبقي ولا وَلَدا ولا صَغيراً ولا شيخَاً ولا أحَداً[1]

ونجده يدعو ناسي الموت مذكّراً إيَّاه بعدم قدرته على دفع الموت، محاولاً إقناعه بالتدبر والاستعداد للرحيل:

يا ناسِيَ المَوتِ وهو يَذكُرُهُ هل لكَ بالمَوْتِ إن أتاكَ يَدُ
دارُكَ دارٌ يَموتُ ساكِنُها دارُكَ يُبلي جَديدَها الأبَدُ
تَبكي على مَنْ مَضى وأنتَ غداً يُوردِكَ الموتُ في الذي وردُوا
لو كنتَ تدري ماذا يريدُ بك الـ ـموْتُ لأبْلى جُفونَكَ السَّهدُ[2]

ولنا أن نتخيّل الأثر النفسي الذي تحقّقه أشعار أبي العتاهية في اختياره لتلك المفردات التي تساعد على تداعي المعاني في مخيلة المتلقي، إذْ إنّ لفظة الموت تخيف النفوس، فكيف بها إذا وظفت في سياق شعري مؤثر كما في قوله:

فغمّضَ عَينَهُ للمَوْ تِ واسترختْ مفاصِلُهُ
فما لَبثَ السّياقُ به إلى أنْ جاءَ غاسِلُهُ
فَجَهّزَهُ إلى جَدَثٍ سَيَكثُرُ فيه خاذِلُهُ
ويُصبحُ شاحِطَ المَثْوى مُفجَّعِةً ثَواكِلُهُ
مُخَمَّشَةً نَوَادِبُهُ مُسلّبَةً غَلائِلُهُ[3]

في هذه الأبيات يقدم أبو العتاهية تصويراً دقيقاً لمشهد الموت حينما تأتي سكرة الموت بالحق فيُغمض المحتضر عينيه مستسلماً لها وتسترخي مفاصله، ثمَّ تنزع روحه وبعدها يأتي المُغسّل ليجهزه إلى قبره ومن خلفه الثواكل والنوادب، إنه مشهد تشيب من

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص107.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص118.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، 276.

هولـه الـرؤوس، وتلين لـه القلـوب، استطاع أبـو العتاهيـة أن يقدمـه بهذه الطريقـة وذاك الأسلوب المؤثّر.

وليس هذا فحسب، فقد نوّع في وصفه للموت، إذ تناوله بأساليب أخرى تخيف النفوس وتقرع الأسماع:

مـــا أشـــدَّ المـــوْتَ حَـــدّاً ولكِـــنْ ... مـــا وراءَ المَـــوْتِ حقـــاً أشَـــدُّ

كـــلُّ حـــيٍّ ضـــاقتِ الأَرضُ عَنْـــه ... ســـوفَ يَكْفيـــهِ مـــنَ الأرضِ لَحْـــدُ

كـلُّ مـن مـاتَ سَـهَا النّـاسُ عنـه ... لـيسَ بـينَ الحَـيّ والميـتِ وُدّ[1]

سلك أبـو العتاهيـة مسلكاً تعبيريـاً اعتمـد فيـه علـى استدعاء المعـاني المـؤثرة، فاستهلَّ أبياته بأسلوب التعجب، إذ يتعجب من شدائد الموت وسكراته، ثم راح يكشف عما وراء الموت، ثم يشير إلـى حقيقـة طالمـا غفل الكثير عنهـا وهـي نسيان النـاس لموتاهم إذ تتقطع العلاقة بين الحي والميت بمجرد الموت.

وقد طرق أبو العتاهية أبواب الملوك والساسة، إذ كان كثيراً ما يذكِّرهم بالموت، جاء في الأغاني أنَّ محمَّد بن أبي العتاهية قال: قال الرشيد لأبي عِظني، فقال لـه: أخافك. فقال له: أنت آمن. فأنشده:

لا تـأمَنِ الموتَ فـي طَـرفٍ ولا نَفَسٍ ... إذا تَسَـــتّرتَ بـــالأبوابِ والحَـــرَسِ

واعلَـمْ بـأنّ سِـهامَ المـوْتِ قاصـدةٌ ... لكـــلِّ مُـــدَّرِعٍ منّـــا ومُتَّـــرِسِ

ترجـو النجـاةَ ولـم تَسْـلُك طَرِيقتَهـا ... إنّ السّـفينةَ لا تجـري علـى اليَـبسِ

قال: فبكى الرشيد حتى بلَّ كُمَّه[2].

فكأنَّ أبا العتاهية يريد إيصال رسالة مفادها إنّ الموت أكبر منكم وأعظم[3] فلا تغرنكم مظـاهر الحيـاة الـدنيا الزائلـة، وكـانوا هـم يطربـون لسماع هـذه المـواعظ؛ لأنَّهـا تنطوي على حقائق ثابتة، كتقلب الأحوال، ووقوع الموت، والحساب بعد الموت.

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص114.

[2] الأصفهاني، أبو فرج، الأغاني، المجلد الرابع، ص 84.

[3] يذكر خليف في تفسيره لحادثة السجن التي امتحن بها أبو العتاهية، أنَّ الخليفة الرشيد سجنه كي يبعده عن الأوساط الشعبية التي كان شعره منتشراً بينها انتشاراً واسعاً حتى لا تتأثر بآرائه

إنّ فكرة الموت هذه التي تناولها أبو العتاهية في زهدياته وجدت مكانها في أشعار الأندلسيِّين، وبقيت عالقة في أذهانهم، بل نجدها تلتقي في معانٍ واحدة متقاربة، يقول أبو عامر ابن سوار الشنتريني:

يـــا لِقـــومي دَفَنُـــوني ومَضـــوا ... وبَنـوا فـي الطِّـينِ فَـوْقي مـا بَنَـوا
ليـــت شـــعري إذْ رَأَوْنـــي ميتّـــاً ... وبكـــــوني أيَّ جـــــزأيَّ بكـــــوا
أنعـوا جِسْـمي فقـد صَـارَ إلـى ... مَرْكـزِ التّعفـينِ أم نفســي نَعَـوا
كيـفَ يَنْعَـوْن نُفوسـاً لـمْ تَـزَلْ ... قائمـــــاتٍ بحضـــــيضٍ وبِجَـــوّ
مـــا أَراهُـــم نَـــدَبُوا فـــيَّ سِـــوى ... فُرقَـــةِ النّـــأليفِ إن كـــانوا دَرَوا[1]

فالشاعر يعجب من صنيع قومه إذ دفنوه وبنوا فوقه الطين ومضوا عنه وانصرفوا، ثم تسيطر على الشاعر دفعة انفعالية تمثلت في صنيع قومه الذين يبكون النفوس الدنيّة التي تعلقت بالدنيا ولم تكترث بالحياة الآخرة، ثم يقرر أنَّ ندب هؤلاء الباكين إنَّما هو حزن على الفراق وليس بكاءً على المصير الذي آل إليه المتوفَّى.

وبألفاظٍ رقيقة ومعاني رائعة يتحدث ابن عبد ربه عن الموت حيث يقول:

مَنْ لـي إذا جُدتُ بين الأهلِ والولدِ ... وكـان منّـي نحـو المـوتِ قيـدُ يـدِ
والـدّمعُ يهمـلُ والأنفـاسُ صـاعدةٌ ... فالدّمعُ في صَببٍ والنّفسُ في صُعُدِ
ذاك القضـاء الـذي لا شـيء يصـرفُهُ ... حتـى يَفـرَّقَ بـين الـرّوح والجَسـدِ[2]

فالموت قريب من الإنسان، إذ لن يستطيع الأهل والأقارب دفعه، فيكتفون بذرف الدموع في الوقت الذي تصعد فيه الروح إلى بارئها، نعم إنَّه الأجل الذي لن تستطيع

التي كان يرددها كثيراً حول الملوك وهوان أمرهم بعد الموت وتساويهم في النهاية مع الناس جميعاً، وكأنّ الرشيد كان يرى فيها شيئاً يقلل من هيبته في أعين الناس ومنزلته في نفوسهم. ومن هنا يرى خليف أن سجن أبي العتاهية لم يكن إلا صورة من صور تحديد الإقامة فرضها الرشيد عليه حتى يبعده عن الشعب الذي يروي شعره ويتغنى به في كل مكان. انظر: خليف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، ص89.

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2، م1، ص479.

[2] ابن عبد ربه، أحمد بن محمَّد بن عبد ربه، (ت328هـ)، ديوان ابن عبد ربه، تحقيق وشرح محمَّد رضوان الداية، 1407هـ – 1987م، ط2، دار الفكر، دمشق، ص65.

أي قوة في الأرض من الحيلولة دونه عندما تفارق الروح الجسد ويصبح الإنسان حينها جثة هامدة لا حراك فيها.

وهذا يحيى بن حكم الغزال يتأمل مشهد الفراق ويطيل النظر في أحداث ذلك المشهد، مشهد الموت حيث يقول:

انظُـر إلـيَّ إذا أُدْرِجْـتُ فـي كَفَنـي ... وانظُـر إلـيَّ إذا أُدْرِجْـتُ فـي اللَّحـدِ
واقعـدْ قلـيلاً وعـاينْ مَـنْ يُقـيم مَعـي ... ممّـنْ يُشـيّعُ نَعشـي مِـنْ ذوي وُدّي
هيهــاتَ كُلّهُــم فــي شــأنِهِ لَعِــبٌ ... يرمـي التُّرابَ ويحثُوهُ علـى خَدّي[1]

فهو يصوِّر ما يحدث له عند وفاته حيث يُلفُّ في الكفن ثم يُدرج في قبره وبعدها ينصرف مشيّعوه من الأقارب والأخلاء وينفضّون من حوله إلى أعمالهم الدنيوية بعد أن حثوا عليه التراب وأبقوه وحيداً في قبره.

إنَّه الموت ذلك المصير المحتوم الذي ينتظر الناس جميعاً، فكرة عزف عليها الشُّعراء لينبهوا قلوب العصاة والمؤمنين على حدٍّ سواء، حيث كان الشعر أفضل الأساليب وصفاً لأحداثه وسكراته، وقد جاءت أشكال التعامل مع قضيّة الموت في الشعر الأندلسي صورة لما كان عليه شعر الزهد عند أبي العتاهية.

وها هو زاهد الأندلس أبو إسحاق الإلبيري يتناول هذه الفكرة في شعره بأسلوب مؤثر ينتقي ألفاظه بدقة وعناية، ويصوغها في عبارات محكمة فيقول مخاطباً إخوته وخلانه:

فيـا إخـوتي مَهْمـا شـهِدتُم جَنـازَتي ... فقومــوا لرَبِّــي واسْــألوهُ نَجــاتي
وجِدُّوا ابتهـالاً فـي الدُّعاء وأَخلِصـوا ... لَعَــلَّ إلهــي يَقْبَــلُ الــدَّعَواتِ
وقولــوا جَمــيلاً إن عَلِمْــتُم خِلافَــهُ ... وأغضُـوا علـى مـا كـان من هَفواتي
ولا تَصِــفوني بالــذّي أنــا أهْلُــهُ ... فأَشْـقى وحَلُّـوني بخَيْـرِ صِـفاتِ[2]

---

[1] الغزال، ديوان يحيى بن حكم الغزال، ص64.

[2] الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص63.

فالشاعر يوجه نداءه لإخوته وأصدقائه بأن يدعو له النجاة من العذاب، وأن يخلصوا له في الدعاء، وأن يذكروه بخير ويكفّوا عن زلاته وكأنَّه في طلبه هذا يستحضر حديث رسول الله –ﷺ–: "اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم"[1].

من خلال الشواهد السابقة يمكن القول إنَّ أثر أبي العتاهية في حديثه عن الموت ظهر واضحاً في مضامين الخطاب الشِّعري الأندلسي، إذْ جاء الشعر الأندلسي متأثراً بفكره وقيمه بشعر أبي العتاهية، فجاءت بعض أشعار الأندلسيِّين الزهدية التي تناولت فكرة الموت وكأنَّها مصبوبة بقوالب أبي العتاهية في ألفاظها ومعانيها. ولا يعني هذا أنَّ الأندلسيِّين قصروا جلَّ أشعارهم الزهدية على أسلوب أبي العتاهية كماً وكيفاً، وإنّما هضموا معاني تلك الأشعار وأساليبها، واكتشفوا جوانبها المضيئة، ثمَّ بدأوا يجدِّدون ويبدعون.

إنَّ ثمَّة تشابهاً كبيراً إذن بين أشعار أبي العتاهية وأشعار الأندلسيِّين في تناولهم لفكرة الموت، وهنا لنا أن نتساءل: ما مدى ما استمدّه الشُّعراء الأندلسيُّون من تصوّرات عن قضيّة الموت؟ ثم هل جاءت أشعارهم إثباتاً لقدرتهم الفنية وموهبتهم الفكرية في محاكاة شعر أبي العتاهية في لغته وأسلوبه التعبيري؟ أم أنَّ الزهد وما فيه من نظرات للحياة والموت موضوع مشترك بين الناس؟ الحقيقة إن أثر أبي العتاهية في تقوية النزعة والاتجاه الشِّعري لدى الشُّعراء الأندلسيِّين لا يمكن إنكاره. وفي هذا المجال يذهب إحسان عباس إلى القول بأنَّه من العسير أن يحكم المرء بأنَّ الأندلسيِّين استعاروا هذا الموضوع من أبي العتاهية أو اقتبسوا تماماً فنه الشِّعري؛ لأنَّ الزهد نزعة لها أصولها الاجتماعية وليست تجيء كلها اقتباساً، على أنّ أثر أبي العتاهية في تقوية تلك النزعة لا يمكن إنكاره[2].

---

[1] العجلوني، إسماعيل بن محمَّد (1162هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ط3، دار إحياء التراث العربي، 1351هـ، بيروت، ج1، ص105.

[2] عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص104– 105.

وقد أشرنا في الفصل الأول من هذه الدراسة إلى الأهمية التي أولاها الأندلسيُّون لشعر أبي العتاهية كاختيار بعضهم وانتقائهم لأشعاره وجمع أخباره في مؤلفاتهم[1]، وما ذكره ابن بسام في ذخيرته من تشبه بعضهم في طريقته الشِّعرية وتأثرهم بمذهبه الشِّعري، فكل هذه الشواهد بالإضافة إلى الشواهد الشِّعرية التي ذكرناها لشعراء أندلسيين أسهمت بوضوح في ترسيخ مذهب أبي العتاهية، حيث أوحت إليهم بمعانٍ قريبة من معانيه حتى إذا ما تداعت إلى أذهانهم مزجت بصيغ فنية ذات معان وأفكار تهدف إلى تأصيل القيم التي تعبّر عن مواقفهم إزاء الحياة والموت.

والحقيقة إن وجود التيار الديني يتفق مع المنطق الطبيعي لتطور الأشياء، فحيثما وجد اللهو والمجون وجد الزهد والورع[2]، لاسيّما إذا علمنا أنَّ البيئة الأندلسية كانت غارقة في لهوها ومجونها وترفها، إذْ أكثر الأندلسيُّون من وصف مظاهر الحياة اللاهية العابثة فوصفوا مجالس اللهو والأنس والطرب والغناء وما فيها من شراب ومجون ودعوا إلى عقدها، كما أكثروا الحديث عن الخمرة ووصف مجالسها، واقتنوا الجواري والقيان، وتعددت مظاهر الترف والبذخ في سائر جوانب المجتمع[3]، وفي مقابل ذلك شاع الزهد بين مختلف الطبقات الاجتماعية إذ كان صادراً في جملته عن روح الإسلام وكان ردة فعل لتلك الحياة الماجنة[4].

لهذا كلّه، فتحت البيئة الأندلسية نوافذ جديدة للشعر تمثّلت في ميل بعض شعرائها إلى غرض الزهد، فقد امتلكوا الأداة القادرة على مواكبة مسيرة الشعر الزهدي عند أبي العتاهية، فكأنّ ثمة رغبة جامحة عند هؤلاء الشُّعراء في عدم الانفلات من تقليد النموذج الشِّعري الزهدي الذي جسّده أبو العتاهية في بناء نسيجه الشِّعري.

---

[1] من المؤلفات التي تمت الإشارة إليها كتاب الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال لابن عبد البر القرطبي، وكتاب المختار من شعر أبي العتاهية وأخباره لأبي الحسن علي بن أحمد بن العباسي.

[2] محمود، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ص212.

[3] القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص172.

[4] القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص198.

لقد خاطب أبو العتاهية الموت على أنه كل شيء وجاءت أشعاره فيه أنموذجاً لشاعرية المبدع، التي استطاعت في ظل براعة منتجها على التأثير في الشُّعراء لاستنباط معان أشبه ما تكون بقواسم مشتركة في اختيار الألفاظ والمعاني الزهدية بين شاعر الزهد أبي العتاهية والشُّعراء الأندلسيِّين، يقول أبو العتاهية:

كـــانّي خُلِقْـــتُ للبَقـــاءِ مُخلَّـــداً ... وأنْ مُـدّة الـدُّنيا لَـهُ لـيسَ ثانيَـا
إلـى المـوتِ إلّا أن يكـون لمَـنْ ثَـوَى ... مـن الخَلـقِ طُـرّاً حيثمـا كـانَ لاقيـا
حَسَمْتَ المُنى يا موتُ حَسْماً مُبرِّحاً ... وعَلَّمْـتَ يـا مـوتُ البكـاءَ البَواكيَـا
ومزّقْتَنَـــا يـــا مَـــوْتُ كـــلَّ مَمَـــزَّقٍ ... وعَرَّفْتَنَـــا يـــا مـــوتُ منْـــكَ الـــدّوَاهِيَا
أفـي كُـلِّ يـوْمٍ نحـنُ نلقَـى جَنَـازةً ... وَفـي كـلِّ يـومٍ منـكَ نسـمعُ نادِيَـا
وفـي كُـلّ يْـومٍ منْـكَ نَرْثـي لمُعْـوِلٍ ... وَفـي كُـلِّ يـومٍ نحـنُ نُسـعِدُ بَالِيـا
ألا أيُّهـــا البَـــاني لغَيـــر بلاغَـــةٍ ... ألا لخَـرابِ الـدّهرِ أصـبحتَ بانِيـا
ألا لـــزَوالِ العُمْـــر أصـــبحتَ بانيـــا ... وأصْـبَحتَ مُختـالاً فخـوراً مُباهِيـا
كأنّـكَ قـد وَلّيـتَ عـن كُـلّ مـا تَـرَى ... وخَلّفـتَ مـن خَلْفَتَـهُ عنـكَ سـالِيا[1]

يبقى أبو العتاهية مأسوراً بكلِّ حواسّه لفكرة الموت فهو يذكّر نفسه بأنَّه لم يُخلق ليبقى مُخلداً في هذه الدنيا، فالدنيا قصيرة ونهايتها الموت، ويخاطب الموت إذ يستخدم النداء "يا موت" في بساطة متناهية وكأنَّه يريد أن يكون قريباً من نفوس الناس كي يؤثر فيهم، ويرى بعضهم أن هذا الأسلوب يسمى ظاهرة الألفة في لغة الشعر الزهدي[2]، وذلك حينما يميل الشاعر إلى الليونة والصياغة البسيطة البعيدة عن التعقيد، ولتحقيق هذه الألفة يلجأ لوسائل كثيرة منها استخدام النداء كما في الأبيات التي أمامنا، ويبدو كأنَّه يعاتب الموت الذي لأجله أصبحنا في كل يوم نشيّع جنازةً أو نرثي عزيزاً، ثمَّ راح يذكّر المؤمّلين على الدنيا إلى اليقظة والانتباه؛ لأنَّهم يبنون لخراب الدهر وزوال العمر.

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص363.

[2] عطوي، علي نجيب، شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة، ط1، المكتب الإسلامي، 1981/1401م، بيروت، دمشق، ص327.

لقد أفاد أبو العتاهية في بناء نسيجه الشِّعري من مصادر ثقافته الدينية التي استقاها من الموروث الديني واستمدها من القيم الثابتة في الدين، فالقرآن الكريم كان له أثر في تفكير أبي العتاهية واتساع دائرة ثقافته الدينية مما جعل إبداعه يقترب من قلوب القارئين ويعمق في المعنى بأداء شعري يوفر السمة الشِّعرية للنص، من هنا جاء أثر أبي العتاهية واضحاً جلياً في مضامين الخطاب الشِّعري الأندلسي الذي تناول معاني الزهد.

إنَّ ظاهرة التأثر بشعر أبي العتاهية ظلت مصاحبة للشعراء الأندلسيِّين، إذ ظلت قوالب موضوعات الزهد في شعر أبي العتاهية معيناً رحباً نهل منه أغلبهم معانيه وصوره، ففي قول أبي العتاهية:

أَنَلهُـــــو وأَيّامُنـــــا تَـــــذْهبُ ونَلعَـــبُ والمـــوْت لا يَلعَـــبُ[1]

فهو يذكّر اللاهين بتلك الحقيقة التي صرفهم اللهو واللعب عنها ألا وهي حقيقة الموت، فهذا المعنى نلحظه عند ابن عبد ربه، إذ يؤكّد حقيقة الرحيل عن هذه الحياة حيث يقول:

أتَلهُـــو بـــينَ باطيـــةٍ وزِيْـــرِ وأنـتَ مـن الهـلاكِ علـى شَـفيرِ؟[2]

وفي حقيقة الموت وأحوال الناس إزاء هذه الحقيقة يقول أبو العتاهية:

ومـا المـوْتُ إلَّا مَـوْرِدٌ دونَ مَصْـدَرٍ ومـــا النّـــاسُ إلّا وارِدٌ بَعْـــدَ وارِدِ[3]

فالموت لا بدَّ لكل إنسان أن ينهل منه وارداً غير صادر، وهذا المعنى نجده عند ابن عبد ربه، إذ يرى أنَّ الموت هو الغائب الحاضر الذي لا يمكن لأي إنسان نسيانه أو تجاهل أمره سواء كان جاهلاً أم عالماً حيث يقول:

ومـا المـوتُ إلَّا شـاهِدٌ مثـلُ غَائـبٍ ومـا النّـاسُ إلّا جاهِـلٌ مثـلُ عـالِمِ[4]

ولسنا بحاجةٍ لسرد الشَّواهد، إذْ نكتفي بالإشارة إلى قول أبي العتاهية:

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص49.

[2] ابن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربه، ص94.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبو العتاهية، ص117.

[4] ابن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربه، ص172.

ولَقْـد مَـرَرْتُ علـى القُبـورِ فمـا ميَّـزتُ بـين العبـدِ والمَـوْلى[1]

فالشاعر عندما مرَّ على المقابر لم يميّز بين قبور العبيد والأسياد، فالكل تحت الثرى سواء، فبالموت تزول كل اعتبارات التمييز في حياة الناس. وهذا المعنى نجده عن يحيى بن حكم الغزال إذ يقول:

ولا عرفُـوا العَبيـدَ مِـنَ المَـوالي ولا عرفُـوا الإنـاثَ مـن الـذُّكورِ[2]

فالناس متساوون في القبور، إذ لا فرق بين عبد وسيد أو ذكر وأنثى.

إنَّ هذه الشواهد خير مثال على مقدرة الشاعر الأندلسي على استلهام الموروث الشِّعري وتوظيفه توظيفاً فنياً يثري تجربته ويعمق فكرته، إذ يمكننا استنباط قواسم مشتركة بين شعر أبي العتاهية وأشعار الأندلسيِّين ونصوصهم الإبداعية، وهذه القواسم إما أن تكون ثقافة مستقاة من المعارف التي تكون مشاعة بين الناس يشترك فيها الشاعر وسواه، وإمَّا أن تتأتّى من مدى استجابة الشاعر لنمط إبداعي سابق يتجسَّد في خصوصية التجربة الشِّعرية من خلال توفر الوعي والقناعة في اختيار ذلك المسلك الشِّعري الذي يوافق رغبة الشاعر[3].

وعلى أيَّة حال، فقد نظر الشُّعراء الأندلسيُّون إلى أشعار أبي العتاهية الزهدية وتعاملوا معها بإحساس شعري مرهف، فأفادوا من دلالتها في إشباع طموحهم القادر على استثمار ثقافتهم وتطويعها بما يلائم طبيعة الغرض الشِّعري.

لقد أكثر أبو العتاهية الحديث عن زوال الحياة وانقضائها بالموت الذي يكمن للإنسان في كل مكان ويتربص له في كل زمان، فقد صوّر الموت أبشع صورة، ورسمه شيئاً مُفزعاً مخيفاً، فكان يربط أذهان الناس به ويعلّق أخيلتهم بصورته[4]، فيخيفهم ويزعجهم، ومن ذلك قوله:

عِلمـي بـأَنّي أذوقُ المـوتَ نغَّـصَ لـي طِيـبَ الحيـاةِ فمـا تصـفو الحيـاةُ لِيَـا

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص27.

[2] الغزال، ديوان يحيى بن حكم، ص86.

[3] الجبوري، ثقافة الشاعر وأثرها في معايير النقد العربي القديم حتى نهاية العصر العباسي، ص105.

[4] الدش، أبو العتاهية حياته وشعره، ص255.

كَـمْ مِـنْ أَخٍ تَغْتَـذي دودُ التُّـرابِ بِـهِ وكَـانَ صَـبّاً بِحُلْـوِ العَـيشِ مُغتَـدِيا
يَبْلَـى مـع المَيـتِ ذِكْـرُ الـذَّاكرينَ لَـهُ مَـنْ غـابَ غيبـةَ مـن لا يُرْتجـى نُسِـيا
مَـنْ مـاتَ مـاتَ رَجـاءُ النّـاسِ منـهُ فَـوَ لّـوْهُ الجَفَـاءَ ومَـنْ لا يُرْتجـى جُفِيَـا
إنَّ الرَّحيـلَ عَـنِ الـدُّنيا ليُزْعِجُنـي إنْ لـم يَكُـنْ رائحـاً بـي كـانَ مُغْتَدِيا[1]

لم تغب هذه الفكرة عن خواطر الشُّعراء الأندلسيِّين إذ ظلوا يعيدون بناءها بطرائق مختلفة ومعانٍ معبِّرة تكشف عن قدرة استلهامهم لإيحاءات الموت وتكون انعكاساً لأسارير النفس الشاعرة المرهفة التي تعبّر عن موقفها إزاء تلك الحقيقة التي طالما أصبحت نهاية حتمية تُخيف القلوب بسهامها، يقول محمَّد بن عبدالله بن أبي زمنين[2]:

المَـوْتُ فـي كـلِّ حـينٍ يَنْشُـرُ الكَفَنَـا ونَحْـنُ فـي غَفْلَـةٍ عمَّـا يُـراد بنـا
لا تطمـئنَّ إلـى الـدُّنيَا وبَهْجتِهـا وإنْ توشَّـحْتَ مـن أَثْوابِهـا الحَسَـنا
أيـنَ الأحبّـةُ والجيـرانُ؟ مـا فعلـوا؟ أيـنَ الـذينَ هُـمُ كـانوا لنـا سَـكَنا؟
سـقاهُمُ الـدَّهرُ كأسَـاً غيْـرَ صَـافيةٍ فصـيّرتهم لإطبـاق الثَّـرى رُهُنـا[3]

لم تكن فكرة الموت االتي عبّر أبو العتاهية من خلالها عن نظرته للكون والحياة ضمن طاقات إيحائية معبّرة استطاع من خلالها التأثير في نفوس الجماهير ووجداناتهم هي الوحيدة التي تناولها في شعره الزهدي، بل قدّم ألواناً أخرى كما ذكرنا سابقاً تمثَّت في العظات الدينية والحكم الأخلاقية والابتهالات التي تشبه ابتهالات الصوفيين.

فمن العظات الدينية التي وردت في شعر أبي العتاهية ذمّه للدنيا وتحذيره من الاطمئنان إليها، وفي ذلك يقول:

إنّمـا الـدُّنيا كَفَـيءٍ تَـولَّى وكَمَـا عانَيْـتَ فيـه الضَّـبَابَا
أنـتَ فـي دارٍ تَـرى المـوتَ فيهـا مُسْتشـيطاً قـد أذَلَّ الرّقابَـا

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص362.

[2] هو أبو عبدالله محمَّد بن أبي زمنين الإلبيري، كان عالماً فقيهاً حافظاً للمعاني قارضاً للشعر، له تآليف في الفقه والزهد والأدب، ولد سنة 324 وتوفي سنة 399هـ. انظر: ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمَّد بن عبيدالله، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ص266.

[3] ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص267.

أبــتِ الــدُّنيا علــى كُــلِّ حــيٍّ آخِــــرَ الأيّـــامِ إلا ذَهَابـــا[1]

ليس ثمّة شك أنَّ أبيات أبي العتاهية تجسّد رؤيته للحياة الدنيا وتعبِّر عمَّا يختلج قلبه تجاهها، فهي كظلٍّ تولى وأدبر، والموت فيها يحصد الرقاب ويذلها، فهو يحذّر الأحياء من الركون إليها؛ لأنَّها تأبى عليهم إلا الرحيل عنها في النهاية.

والمتصفّح لديوان أبي إسحاق الإلبيري يجد موضوع الوعظ والنصح جلياً فيه لا سيّما في قصيدته التي يخاطب فيها ابنه أبا بكر كما جاءت الإشارة إلى اسمه في القصيدة، وهي قصيدة متعددة المقاصد، فيها صور قيمة لما يوعظ به الإنسان، حيث يقدم الإلبيري نصائح لابنه مبنية على حجج منطقية إذ يقول في بعضها:

فَليْسَــت هــذه الــدُّنيا بشــيءٍ تَسُــوؤُكَ حقْبــةً وتَسُــرُّ وقْتــا
وغايتُهــا إذا فكّــرتَ فيهــا كَفَيئِــكَ أو كحُلْمِــكَ إنْ حَلَمتــا
ولَــمْ تُخلَــق لِتَعمُرَهــا ولكــنْ لِتَعبُرَهــا فَجِــدَّ لمــا خُلِقْتَــا[2]

لعلَّنا نلمح في هذه الأبيات ذاتية الشاعر الواعظ، إذ يستمد معانيه من القيم الإسلامية التي نادى بها ديننا الحنيف، فكأنَّ الشاعر في البيت الثاني يستحضر حديث رسول الله –ﷺ–: "ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها"[3]، وأما في البيت الثالث فكأنَّ الشاعر يستلهم قول الحق تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4].

وإذا ما قارنا بين أبيات أبي العتاهية وأبيات الإلبيري، فإنّ ثمّة تشابهاً بين منهج الشاعرين، فكلاهما يحذر من الاغترار بالدنيا؛ لأنَّها دار عبور لا دار مستقر، ولعلَّ

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص50– 51.

[2] الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص29.

[3] نام رسول الله –ﷺ– على حصير، فقام وقد اثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله: لو اتخذنا لك وطاء، فقال: الحديث. انظر: الترمذي، أبو عيسى، (ت279هـ)، سنن الترمذي، ط1، 1422هـ/ 2002م، بيروت– لبنان، ص681.

[4] سورة الذاريات، آية 56.

المعاني التي تناولها الشاعران تكشف عن مدى قدرتهما على التصرف في المعاني المُستقاة من الموروث الديني وتقديمها بأسلوبٍ يُظهر ثقافة المبدع وسعيه نحو تحقيق طموحه في إنتاج نصٍّ شعري متميز يقر له بعلو الشاعرية، فالأبيات التي أوردها الشاعران تجسّد طموحهما الفكري الذي يفصح عن ملامح ثقافتهما الدينية، إذ استطاعت أن تحقق استجابة لدى المتلقي؛ لأنَّ كلا الشاعرين تحدث إلى الجمهور بالأسلوب الذي يفهمونه واستخدم الألفاظ التي تدور بينهم ليحدث فيهم التأثير المطلوب، فكأنَّهما كانا يؤمنان بأنّ الموضوع هو الذي يحدد الأسلوب، فما دام موضوع شعرهما هو الزهد فيجب أن يكون الأسلوب سهلاً لا يستعصي على مدارك السامعين، والواعظ الناجح هو الذي يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويلبس لهم الرداء الذي يلبسونه حتى لا يوجد بينه وبينهم سدّاً[1]، لذا جاءت أبيات الشاعرين ملبيةً لرغبات المتلقي وقدراته.

وممَّا تناوله أبو العتاهية في عظاته مشهد يوم الحساب ذلك اليوم الذي قال الحق سبحانه وتعالى فيه: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[2]. حيث استوحى الشاعر معاني هذا اليوم من القرآن الكريم حيث يقول:

أَيُّ يْــومٍ نســيتَ يــومُ التلاقِــي ... أَيُّ يــومٍ نســيتَ، يــومُ المَعَــادِ
أَيُّ يــومٍ يــوْمُ الوقُــوفِ إلــى اللهِ ... ويــــومُ الحِســــابِ والإشْــــهادِ
أيُّ يــومٍ يــومُ الممــرّ علــى النّــا ... رِ وأهوالِهــــا العِظَــــام الشّــــداد
أيُّ يــومٍ يــومُ الخَــلاص مــنَ النّــا ... رِ، وهــولِ العــذَابِ والأصــفادِ[3]

يستمد أبو العتاهية معانيه من القرآن الكريم، إذ نجد في أبياته إشارات واضحة تدل على تأثُّره بالقرآن الكريم، فحديثه عن يوم الحساب اشتمل على جزيئات أراد من خلالها أن يبصّر الإنسان بمصيره وأن يذكّره بمشاهد ذلك اليوم، ففي البيت الأول

---

[1] خليف، الشعر في الكوفة، ص578.

[2] سورة الأنبياء، آية 1.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبو العتاهية، ص109– 110.

يستحضر المعاني القرآنية في قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾[2]، وفي البيت الثاني يستدعي الشاعر المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا﴾[3] وقوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[4] وأما في البيتين الثالث والرابع فإنّ الشاعر يحوّر المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[5]. حيث يتحدث المشهد القرآني عن نار جهنم، إذ ما من أحد من بر أو فاجر إلا وسيرد على النار، فالمؤمن للعبور والكافر للقرار، ثم ينجي الله المتقين بعد مرور الناس جميعاً ويُترك الظالمون في جهنّم قعوداً على ركبهم[6].

إنَّ المتأمل في تلك المعاني التي تناولها أبو العتاهية يجدها تهدف كلها إلى بيان قيمة الدنيا وضرورة العمل للآخرة، إنه يحاول أن يبصّر الإنسان بمصيره القادم بأسلوب وعظي ويتحدث إليه في أسلوب تقريري يقترب في واقعيته من أسلوب النثر.

وعن يوم الحساب يطالعنا أبو إسحاق الإلبيري في أبياتٍ شعرية تقترب في معانيها من تلك التي طرقها أبو العتاهية، يقول الإلبيري:

ولَـوْ قـدْ جئـتَ يـومَ الفصـلِ فَـرداً ... وأبصـــرتَ المنـــازلَ فيـــه شَـــتَّى
لأَعظمـــتَ النَّدامـــةَ فيـــه لَهفـــاً ... علـى مـا فـي حَياتـكَ قـد أضـعْتا
تَفـــرُّ مـــن الهجيـــرِ وتتّقيـــهِ ... فَهـــلَّا عـــن جَهـــنَّم قـــدْ فَرَرْتـــا؟

---

[1] سورة غافر، آية 15.

[2] سورة سبأ، آية 30.

[3] سورة الأنعام، آية 30.

[4] سورة ص، آية 53.

[5] سورة مريم، الآيتان 71– 72.

[6] الصـابوني، محمَّد علـي، صـفوة التفاسـير تفسـير القرآن الكـريم، 1421هـ– 2001ن، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج2، ص205.

ولســـتَ تُطيـــقُ أهوَنهـــا عـــذاباً ولـــو كنـــتَ الحديـــدَ بهـــا لَـــذُبتا[1]

إنّ الدارس المتعمق لهذه الأبيات يلمس بشكل جلي أن القرآن الكريم كان رافداً مهماً في ثقافة أبي إسحاق الإلبيري، فقد استوحى النص القرآني بمعانيه وألفاظه في البيت الأول وذلك بالإشارة لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[2] وفي البيت الثاني يستوحي الشاعر المعنى من قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[3].

وتتماهى أبيات الإلبيري مع معاني أبي العتاهية، إذْ إنَّ ثمة تشابهاً جلياً بين طرائق الشاعرين في أسلوبهما الوعظي، ولعلَّ القاسم المشترك الذي يبدو واضحاً لدى الشاعرين، هو احتفاؤهما بالقرآن الكريم وتأثرهما به، إذ كان مورداً عذباً يسترفدانه ويفيدان منه لإغناء إبداعاتهم، وتعميق تجاربهم الشِّعرية، حيث جاء حديث الشاعرين عن مشاهد يوم الحساب وعن هول عذاب جهنم.

أمام هذا التشابه بين معاني الشاعرين تكمن ثمة تساؤلات، يتعلق بعضها بشاعرية أبي العتاهية ويتعلق بعضها الآخر بمنهجية الإلبيري، أمَّا التي تتعلق بأبي العتاهية: فهل تكفي الموهبة الزهدية وحدها لتجسيد التفرد في تناول معاني الزهد؟ وهل يقاس هذا التفرد بمرجعيات المبدع الذي تفتّقت عبقريته؟ وأمَّا المتعلقة بالإلبيري: فهل كانت معانيه الزهدية اشتراكاً كما يسمّيها حازم القرطاجني؟[4]، أم كانت تقليداً ثقافياً

---

[1] الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص32–33.

[2] سورة مريم، آية 95.

[3] سورة الزمر، آية 56.

[4] قسّم حازم القرطاجني المعاني إلى ثلاثة اقسام: القسم الأول هي المعاني التي يُقال فيها إنها كثُرت وشاعت، والقسم الثاني ما يُقال فيه إنه قلّ أو هو على حيِّز القليل أقرب منه إلى حيّز الكثير، والقسم الثالث هو المعنى الذي يقال فيه ندر وعدم نظيره. فالقسم الأول هو مثل ما يتداوله الناس من تشبيه الشجاع بالأسد والكريم بالغمام وهذا القسم لا سرقة فيه ولا حجر في أخذ معانيه لأن الناس في وجدانها ثابتة مرتسمة في خواطرهم سواء ولا فضل فيها لأحد على أحد إلا بحسن تأليف اللفظ، فإذا تساوى تأليفا الشاعرين في ذلك فإنه يسمى الاشتراك وإن

مُستقى من المعارف المشاعة بين الناس، فأفاد من دلالتها في إشباع طموحه المفترض في استشراق آفاق جديدة للحدث الشِّعري؟

لقد ذهب القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء إلى أن أبا العتاهية ألمَّ بذكر الأحوال المفجعة كثيراً في شعره وهي تلك التي تذكر الإنسان بما يلحق العالم من الغِيَر والفساد ومآل بني الدنيا إلى ذلك[1]. وقد استطاع أبو العتاهية أن يجعل من شعره الزهدي مرحلة تأمُّل عقلي تحفزها إرادة راغبة في الدفاع عن نفسها وطبقتها، وكان من نتيجة هذا التأمُّل أن جعل التفكير في مصير الإنسان هو أقوى السّياط التي يمكن أن يجلد بها من شاء دون أن يتطاول عليه أو يفرّ من قبضته[2]، كما استطاع أن يجسَّد أفكاره ومعانيه بأسلوب العبقري المبدع الذي يسعى للوصل بين إبداعاته وبين المتلقي.

وأما الإلبيري فقد نجح في توظيف معاني الزهد وتمثلها تمثلاً فائقاً واستطاع أن يلائم بين المضمون والشكل وكأنَّه أدرك أنَّ لشعر الزهد سمات وظواهر فنية يجب على الشاعر الزاهد أن يستوعبها ويتقن تفاصيلها قبل الخوض في ممارسة إبداعه كالبساطة والسهولة والقدرة على إيصال المعنى إلى المتلقي بطريقة مباشرة.

والحقيقة التي يمكن استخلاصها من تقارب معاني الشَّاعرين، هي تأثُّر الإلبيري الواضح بأبي العتاهية وطريقته الشعريّة في منهجه الزُّهدي.

وإذا علمنا أنَّ شعر أبي العتاهية حظي بشهرة واسعة ومكانة مرموقة في الوسط الأندلسي فإنّ تأثيره في الشُّعراء أمر واقع لا محالة ولعلَّ اطلاع الشاعر على نتاج أقرانه من المبدعين قديماً أو آنياً يرسخّ قوته على التشبيه وينمّيها. إذ يرتقي بمنزعه

فضلت فيه عبارة المتأخر عبارة المتقدم فذلك الاستحقاق لأنه استحق نسبة المعنى عليه بإجادته نظم العبارة عنه، وإن قصَّر فيه عمّن تقدمه فذلك الانحطاط. انظر: القرطاجني، حازم (684هـ) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمَّد الحبيب بن خوجة، 1981م، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص358.

[1] القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص358.

[2] أبو الأنوار، الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية، ص278.

الشِّعري ويجود أسلوبه، كما يؤصَّل قوته على التميز، فيستطيع أن ينتقي ويستحضر ما ينسجم ولحظة التأليف.

ولعلَّ المعاني التي تناولها الإلبيري تعكس الروح العتاهية التي تستمد صورها ومعانيها من القرآن الكريم، إذ إنّ أبا العتاهية كان متأثراً بأسلوب القرآن الكريم في دوره المكي وطريقته في خطاب الناس خطاباً عنيفاً وقرع أسماعهم بصور العذاب والعقاب[1]، والشواهد القرآنية التي لمسناها في شعره خير شاهد على هذا التأثر.

وكذا أبو إسحاق الإلبيري تأثر هو الآخر بالقرآن الكريم فاعتمد في معانيه وأفكاره وصوره أسلوبه وطريقته وهو تأثر يعد شيئاً طبيعياً عند زاهد مسلم.

إنّ النصوص الشِّعرية التي تؤكدّ تأثر وتقارب المعاني بين أبي العتاهية والشُّعراء الأندلسيِّين كثيرة، وهي تدل دلالة قاطعة على الالتحام والتفاعل مع تجارب الشُّعراء السابقين "لأنّ النص القديم يظل فاعلاً ومؤثراً في النص الجديد، كما أنّ النص الجديد يكتسب طاقات جديدة من تلك الطاقات التي حملها النص القديم، وهذا يعني أن النص القديم هو نموذج قابل للتمدد والتجدد"[2]؛ لذا، فإنَّ الشعر الأندلسي حافلٌ بنماذج كثيرة من الأشعار التي نلمس فيها أوجه التشابه وملامح الالتقاء مع شعر أبي العتاهية وهذا يدل على قدرة الشاعر الأندلسي على تعامله مع النص القديم وتمثله وإعادة تشكيله وإنتاجه بما يتفق وتجربته الشِّعرية، يقول أبو الطاهر محمَّد بن يوسف التميمي:

هأَنذا في التُّرابِ وَحْدي ... فلا ظهيرٌ ولا نصيرُ
باللهِ هَبْ دعاءَ صدقٍ ... يسْمُو به باعيَ القَصيرُ
أَسرفْتُ يا ربّ في خطايا ... أنتَ بها عالمٌ بصيرُ
فامنُنْ بعفْوٍ وجُدْ برُحمى ... إليكَ يا ربيَ المصيرُ[3]

---

[1] خليف، يوسف، حياة الشعر في الكوفة، ص522.

[2] الياسين، إبراهيم منصور، استيحاء التراث في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ط1، دار الكتاب الحديث، إربد، 2006م، ص145.

[3] ابن دحية، ابو الخطاب عمر بن الحسين بن علي، (ت633هـ)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، 1997، دار الكتب المصرية، القاهرة.

تُظهر الأبيات بريق بصمات الزهد عند التميمي، فهو يذكّر نفسه بالحقيقة التي لا بد منها، والنهاية التي لا مفرَّ منها، وهي نزوله القبر وحيداً دون نصير أو ظهير، إذ هو أحوج ما يكون إلى دعوة صادقة تكفّر عنه ذنوبه وخطاياه؛ لأنه يعترف بأنه أسرف على نفسه بما ارتكب من الخطايا والآثام ويدعو الله تعالى أن يمنّ عليه بعفوٍ ورحمة منه فإليه تعالى المصير.

وتكشف الأبيات في مجملها عن عمق ثقافة الشاعر وقدرته على توظيف هذه الثقافة توظيفاً يعكس قدرته على تطويعها لخدمة غرضه الشِّعري والإفادة منها للكشف عن موقفه الشعوري ورؤيته الفكرية، والأبيات في مجملها قريبة من معاني أبي العتاهية إذ يقول:

كم من عزيزٍ عظيم الشّأنِ في جَدَثٍ ... مُجــدَّلٍ بتــرابِ الأرضِ مُلتَحِــفِ
أُخيَّ آخِ المُصَفّى ما استَطَعتَ ولا ... تَستَعذِبنَّ مُواخــاةَ الأخِ النّطِـفِ[1]
يــا رَبّ إنّــي لــكَ فــي كُــلّ مــا ... قَــدّرْتَ عبْــدٌ آمِــلٌ شــاكِرُ
فــاغْفِر ذُنُــوبي إنّهــا جَمّــةٌ ... واستُر خَطــائي إنّــك السّــاتِرُ[2]

إنَّ لغة التميمي الشِّعرية تقترب كثيراً في معانيها من لغة أبي العتاهية ذلك أنَّ شعر الشاعرين نابعٌ من فؤاد صادق وشعور لا يعرف الزّيف ونفس مجبولة على الطبع.

والذي يهمّنا هو كيفية إفادة الشاعر الأندلسي من تراثه الأدبي المتمثل بشعر الزهد في التعبير عن أفكاره، إذ إنّ القارئ يلمس بوضوح تشابهاً بيّناً بين الشِّعرين، فكلاهما يُشير إلى وحشة القبر بعد أن يوارى الإنسان الثرى ويبقى وحيداً تحت طيات الثرى، وكلاهما يطلب عفو الله تعالى ومغفرته وكأنهما متأثِّران بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص 213– 214.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص 156.

فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

لقد استوحى الشاعران المعنى القرآني لمدّ لغتهم الشِّعرية بطاقات تعبيرية هائلة تقوّي نتاجهم وتحسّن أداءهم الشِّعري وربَّما كان هذا التشابه قاسماً مشتركاً بين الشاعرين دلَّ على تأثرهم بالقرآن الكريم وقدرتهم على تطويع آياته الكريمة لخدمة أغراضهم الفنية.

[1] سورة آل عمران، آية 135.

3.2 الحِكَم الأخلاقية:

ومن ألوان شعر الزهد عند أبي العتاهية، الحكم الأخلاقية[1] التي كانت تدور في أغلبها حول محور النفس الإنسانية وما يعتمل فيها من صراع بين الخير والشر، فالنفس الإنسانية أمّارة بالسوء وبينها وبين العقل صراع طويل، وخير ما يفعله الإنسان أن ينتصر لعقله على نفسه وأن يحاسب نفسه؛ لأنَّ من أهمل نفسه صعب عليه إصلاحها فهي كالطفل ينشأ على ما رُبّي عليه[2]، وشر ما يفعله الإنسان إهمال نفسه، يقول أبو العتاهية في مخاطبة النفس:

أيا نفسُ ما الدُّنيا بأهلٍ نُحِبّها ... دَعيها لأَقوامٍ عَليها تعادَتِ
ألا قلَّما تبقَى نُفوسٌ لأَهلِهَا ... إذا راوحتْهُنَّ المَنايا وغادَتِ
ألا كُلّ نفسٍ طالَ في الغيّ عُمْرُها ... تموتُ، وإنّ كانتْ عنِ المَوتِ حادَتِ
ألا أينَ مَنْ وَلّى به اللهوُ والصّبا ... وأينَ قُرونٌ قبلُ كانَتْ فباءَتِ
كأنّ لم أكُنْ شيئاً إذا صرتُ في الثّرى ... وصارَ مِهَادي رَضرَضا وَوِسَادَتي
وما مَلجَأٌ لي غَيرَ مَنْ أنَا عَبْدُهُ ... إلى الله أُنْهِي شَقْوَتِي وسَعادَتي[3]

---

[1] يذكر يوسف خليف إن أهم عمل فني قام به أبو العتاهية في الجانب الأخلاقي أرجوزته التي سمّاها "ذات الأمثال" وهي قصيدة في مجموعة شعره الأخلاقي، ولكنْ لم يصل إلينا من تلك الأرجوزة إلا عدد قليل من أبياتها، وقد سجّل فيها أبو العتاهية خلاصة تجاربه وآرائه في الحياة وصاغها صياغة مركزة لتأخذ شكل الأمثال السائرة، وهي تعرض لموضوعات متعددة وتناولت أفكاراً شتى متفرقة. انظر: خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص561– 562.

[2] جاء في بردة البوصيري، محمَّد بن سعيد بن حماد (608– 695هـ) في حديثه عن هوى النفس:

وخالف النفسَ والشيطانَ واعصهما ... وإن هما محضّاك النُّصح فاتّهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
والنفسُ كالطفل إن تهمله شبَّ على ... حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم

انظر: بوذينة، محمَّد قصيدة البُردة ومعارضتها، 1994م، المطابع الموحّدة مجموعة سراس للنشر، تونس، ص20– 21.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص77.

وفي قصيدة أخرى يكشف أبو العتاهية عن الطريق الذي سلكه في مجاهدة نفسه إذْ يقول:

بُليتُ بِنفْسٍ شَرِّ نَفْسٍ رأَيتُها ... بجُرْحٍ تَمادَى بي إذا ما نَهَيْتُهَا
فكَمْ مِن قبيحٍ كُنتُ مُقْترِفاً به ... وكَمْ مِنْ جناياتٍ عِظَامٍ جَنَيتُها
وكَمْ مِن شَفيقٍ باذلٍ لي نصيحَةً ... ولَكِنّني ضيّعْتُها وأَبَيْتُها
دَعَانِي إلى الدُّنيا دواعٍ من الهَوَى ... فأرسَلْتُ ديني من يَدٍ وأتَيْتُها
وَلِي حِيلٌ عِندَ المَطامِع كُلّها ... تَلطّفْتُ للدّنْيا بها فَرَميتُها
أقولُ لِنَفْسي إنْ شَكَت ضِيقَ نفسها ... كأنّي بها في القَبْر قد ضاقَ بيتُها
وَلي مدّةٌ لا بُدّ يوماً ستَنْقَضِي ... كأنْ قدْ أتانِي وقتُها فقَضَيتُها
فَلَوْ كنتُ في الدّنيا بَصِيراً وقد نعت ... إلى ساكِنيها نَفْسَها لنَعَيْتُها
ولو أَنّني مِمّنْ يُحاسِبُ نَفْسَه ... فخالفتُ نفسِي في الهَوَى وعَصَيْتُها
أيا ذا الذي في الغَيّ أَلقَتْه نَفْسُه ... ومَنْ غَرَّه منها عَسَاها ولَيتُها
كفانا بهَذا مِنْكَ جَهْلاً وغِرَّةً ... لأنّك حيُّ النّفسِ في الأرضِ مَيتُها[1]

يصوّرُ أبو العتاهية في النَّصَّين موجات النفس التي طالما تتجاذبه في أعماق نفسه، ويصوّر كذلك الصراع بين الخير والشر ثم يرسم السبيل الذي سلكه في مجاهدة نفسه الأمارة بالسوء وكيف استطاع في النهاية أن ينتصر لعقله على نفسه، وإذا علمنا أنّ المقطوعتين جاءتا على البحر الطويل الذي يعد من أكثر بحور الشعر ملاءمة للتعبير عن الحزن والشكوى[2]، إذ يشكو الشاعر هوى النفس ويحزن ويتحسَّر على النهاية التي تنتظر هذه النفس، فأسقط أحاسيسه عليها لينهي صراعه منتصر الإرداة، حيث غلب الخير على عنصر الشّر.

وفي الجانب الأندلسي يتعجّب الإلبيري من ميل النفس إلى الباطل لأنها تُلهي الإنسان بلذة عارضة ولربما خسر آخرته لاتباعه هوى نفسه إذ يقول:

مَا أَمْيَلَ النَفسَ إلى الباطلِ ... وأهْوَنَ الدُّنيا عَلَى العاقلِ

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص84– 85.

[2] جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، ص142.

تُرضِـي الفَتـى فـي عاجـلٍ شَـهْوةٌ لـو خَسِـرَ الجَنَّـة فـي الآجـلِ
يبيـعُ مـا يَبْقـى بمـا يَنْقضِـي فِعْـل السَّـفيه الأحمَـقِ الجاهِـلِ[1]

إنَّ الحديث عن هوى النَّفس وشهواتها من الموضوعات العامة التي ربما يتطرق لها أيّ شاعر في كل زمان، إذ لا نستطيع أن نجزم أنَّ الإلبيري تأثر بحديثه عن النفس بأبي العتاهية، ولكن طبيعة شعر الزهد تتقارب في معانيها؛ لأنَّ الزهد في مفهومه العام يدور حول معنى الاتجاه إلى الله تعالى وعدم الاشتغال بالدنيا والانقطاع عن الشهوات[2]، وهذه المعاني كما ذكر القرطاجني تكون مرتسمة في كل فكر حيث يقول: "إنَّ من المعاني ما يوجد مرتسماً في كل فكر ومتصوراً في كل خاطر"[3].

إنَّ شعر الإلبيري يعدُّ تعبيراً عن روح الجماعة، إلى جانب أنَّه تعبير عن الوجدان الفردي، إنَّه ينطلق من النفس من داخل الإنسان ووجدانه في محاولة لإصلاح الواقع الاجتماعي لأن الشعر من أقوى المؤثرات في توجيه الناس، والنفس هي الموجّه الرئيس للإنسان:

ونَفْسَـكَ ذُمَّ لا تـذمُمْ سِـواها بعَيْـبٍ فهـيَ أجـدرُ مَـنْ ذَمَمْتـا! [4]

والذي يبدو أن أبا العتاهية والإلبيري اتخذا شعر الزهد وسيلة للتعبير عما يجيش في صدريهما من أفكار وآراء؛ لأنّهما عدّا الشعر أهم وسيلة للتخاطب بين النفوس والتأثير عليها لما له من قدرة على الوصول لمسامع الآخرين ولما يلاقيه من تجاوب النفوس أكثر من أي وسيلة أخرى.

ولعلَّ التشابه بين موضوعات الزهد أمر واضح إذ تلتقي موضوعات أبيات الشاعرين في ذم الدنيا الزائلة والتذكير بالموت والحساب والقناعة بما قسم الله لعباده من الرزق، والتحذير من هوى النفس وذم الحرص على جمع المال[5]، غير أنَّ أسلوب

---

[1] الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص66.

[2] بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي، ص147.

[3] القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص192.

[4] الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص32.

[5] عطوي، شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة، ص84.

التعبير عن هذه الموضوعات يختلف من شاعر لآخر، إذ تكمن في ذاني الشاعرين طاقات وإمكانات هائلة لا يمكن أن يعبّر عنها إلا بلغته الخاصة التي تكوّن المعجم الشِّعري لديه بما يحويه من ألفاظ وتراكيب، وهذا المعجم قد يشترك فيه شاعر مع شاعر آخر، ولكنه يبقى مميزاً من خلال أمرين اثنين: "أولهما نوعية هذه الألفاظ التي يختارها الشاعر وهو المضمار الذي تدور حوله؛ لأنَّ ذلك يعكس نفسيته وطبيعة تجربته. والأمر الثاني هو طريقة الشاعر في التعامل مع هذه الألفاظ وكيفية تركيبه لها"[1].

فالشاعران يتميَّزان فيما بينهما بما تحويه معجم كل منها من مخزون لفظي وتركيب لغوي، ولما كانت محاور شعر الزهد متشابهة عند الزهاد فلا بدَّ من وجود ملامح تأثُّرية بينهما، لذا جاءت أشعار الإلبيري تحمل قيمة روحية تمثَّلت في ترجمة ذات الشاعر إزاء النفس وميلها إلى الباطل ومدى تأثيرها على نهجه الخلقي، وهذه الرؤية تتلاءم مع نهج أبي العتاهية الزهدي، وتؤكِّد تواصل الشاعر الأندلسي والتقاء أفكاره بغيره من الشُّعراء الذين في وجد في أشعارهم ما يؤكِّد وحدة التجربة الإنسانية.

ويطالعنا ابن حمديس بأبيات شعرية يوضح فيها أثر النفس التي يبحث في أغوارها عن مشاعره وأحاسيسه تجاه تلك النفس، التي غالباً ما تنقاد وراء شهواتها، إذ يقول:

ألا آمَـنَ الـرحمن خـوفي بعفـوه ... فإنِّي مِن نَفْسي أخافُ على نَفْسي[2]

فويحـكَ هـل عَبَـرتْ سـاعةٌ ... ونفسُـكَ عـن زلـةٍ راغبـة

كـأنَّ لنفسـك مغنيطسـاً ... غـدتْ للـذنوب بـه جاذبـة[3]

---

[1] غنيم، كمال أحمد، عناصر الإبداع في شعر أحمد مطر، 1998، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص108.

[2] ابن حمديس، ديوان ابن حمديس، ص286.

[3] ابن حمديس، ديوان ابن حمديس، ص41.

ففي البيت الأول يرجو عفو الله؛ لأنَّه يخاف على نفسه مما جنته نفسه، وكأنه يستحضر المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1]، وأمَّا في البيتين الثاني والثالث فيحذّر من رغبات النفس وميلها إلى الزلل وجذب الذنوب وكأنها أصبحت أداة جاذبة للذنوب، لذا على الإنسان أن يحذر هوى النفس التي أُلهمت الفجور والتقوى وأن يرجّح كفة الخير على الشر لا أن يطلق لنفسه العنان فيصبح منقاداً لها ولشهواتها. من هنا جاءت أبيات ابن حمديس من فكرة الإحساس بأثر النفس على صاحبها، وتميزت لغته بالميل إلى البساطة والاقتراب من لغة العامة كما اللُّغة عند أبي العتاهية الذي وجّه خطابه للنفس، إذْ يقول:

يـــا نَفْـــسِ! إنّ الحـــقَّ دينـــي	فَتَـــــذلّلي ثـــــمَّ اســـــتَكِيني
فـــــإلى متـــــى أنـــــا غافِـــلٌ	يـــا نفـــسِ! ويحَـــكِ، خَبّرينـــي
وإلـــى مَتـــى أَنـــا مُمْسِـــكٌ	بُخـــلاً بمـــا مَلكَـــت يَمينـــي
يـــا نفـــسِ! لا تتضـــايقي	وثِقـــي بربّـــكِ واســـتَعيني
يـــا نَفـــسِ! أنـــتِ شـــحيحَةٌ	والشّـــحُّ مـــن ضُـــعفِ اليقـــينِ
يـــا نفـــسِ! تُـــوبي مِـــنْ مُـــؤا	خـــاةِ الأخِ البَطـــرِ البَطـــينِ
وتَعلّقـــــي بمعَـــــالِقِ الـــــ	مكـــرُوبِ ذي القَلْـــبِ الحـــزِينِ
وتفكّـــري فـــي المـــوت أحـــ	يانـــــاً لعلّـــكِ أن تَلينـــي[2]

فهو يدعو نفسه إلى أن تتذلل وتخضع لخالقها، وأن تستعن بالله وتثق به سبحانه، وأن تتجنّب مصاحبة جاحد النعمة، ثمَّ يدعوها إلى التفكر بالموت لعلها تلين.

ونراه يخاطب نفسه بأداة النداء المستخدمة للبعيد إشارة منه لغفلة النفس وكأنها بعيدة عن طريق الصواب، فهي بحاجة إلى تنبيهها من هذه الغفلة، لذا نراه يخاطبها بحرقة (ثِقي، توبي، تفكري) لعلها تعود إلى رشدها.

---

[1] سورة النساء، آية 79، ولمزيد من الاطلاع حول الآيات القرآنية التي تحدثت عن النفس وأسرارها انظر: عبد الباقي، محمَّد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، 1422هـ-2001م، ط1، دار الحديث، ص803- 807.

[2] أبو العتاهية، دبوان أبي العتاهية، ص332.

إن الحديث عن هوى النفس ورغباتها لا يكاد يختلف في جوهره عند شعراء الزهد، وغالباً ما يستمدُّون معاني أشعارهم في حديثهم عنها من القرآن الكريم الذي طالما تكرر الحديث فيه عن النفس بألفاظ ومعان مختلفة.

4.2 الابتهالات الدينية:

ومن الألوان الزهدية في شعر أبي العتاهية الابتهالات الدينية التي تشبه الابتهالات الصوفية التي يُمجَّدُ الله تعالى فيها ويسبح له، وهي التي تدور كلها في جوٍّ إسلامي بل في جوٍّ قرآني خالص[1]، حيث يبدأها عادة بعبارات التسبيح والتحميد، ويكثر فيها من ترديد أسماء الله تعالى الحسنى والثناء عليه سبحانه، ومن ذلك قوله:

كـلُّ امـرئٍ فكَمـا يـدينُ يُـدانُ ... سُـبحانَ مَـنْ لـم يخْـلُ منـه مكَـانُ
سُبحانَ من يُعطي المُنى بخَواطِرٍ ... فـي الـنّفسِ لـم ينطِـقْ بِهـنَّ لسـانُ
سُبحانَ من لا شـيءَ يحجُبُ عِلمَه ... فالسـرُّ أجمـعُ عِنـدَه إعـلانُ
سُـبحانَ مـن هُـوَ لا يـزالُ مُسَـبَّحاً ... أَبَـداً ولـيس لغيـرِهِ السُّـبحانُ
سـبحانَ مـن تجـري قضـاياه علـى ... مـا شَـاءَ منهـا غائـبٌ وعِيـانُ
سُـبحانَ مـن هُـوَ لا يـزالُ ورِزْقُـهُ ... للعـالمينَ بـه عَلَيـهِ ضَـمانُ
سُبحانَ مَنْ في ذِكْره طُرُقُ الرّضَى ... مِنْـه وفيـه الـرَّوحُ والرّيحـانُ
مَلِـكٌ عَزيـزٌ لا يُفـارِقُ عِـزَّه ... يُعصَـى ويُرجـى عنـدَه الغُفـرانُ[2]

في هذا الأسلوب القرآني الجميل جاءت ابتهالات أبي العتاهية تنسج خيوطها بالتسبيح والتمجيد، مظهرة أسمى صور العبودية لله تعالى، إذْ يستمد معانيه وألفاظه من

---

[1] خليف، يوسف، حياة الشعر في الكوفة، ص563– 564.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص315.

آيات التسبيح الواردة في القرآن الكريم[1]، كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3].

وفي مرضه الذي مات فيه مستغفراً ربه، ومتضرِّعاً إليه أن يغفر ذنوبه، حيث يقول:

إلهي لا تعذّبْني فإنّي ... مُقِرٌّ بالّذي قدْ كانَ مِنّي
ومالي حيلَةٌ إلا رجائي ... وعَفْوكَ إنْ عفْوتَ وحسنُ ظنّي
فكَمْ من زلّةٍ لي في البَرايا ... وأنتَ عَليَّ ذو فضلٍ ومَنِّ
إذا فكّرتُ في نَدَمي عليها ... عَضَضتُ أناملي وقرعتُ سنّي
يَظُنّ الناسُ بي خيراً وإنّي ... لشَرُّ الناسِ إن لم تعْفُ عَنّي
أُجَنّ بزهرةِ الدّنيا جُنوناً ... وأُفني العُمرَ فيها بالتمَنّي
وبينَ يَدَيَّ مُحتَبَسٌ ثقيلٌ ... كأنّي قد دُعيتُ له كأنّي
ولو أنّي صدقْتُ الزّهدَ فيها ... قَلَبتُ لأهلِها ظَهرَ المِجَنّ[4]

إنَّه إقرار بالذنب ورجاء في العفو وندم على ما مضى، إنها ابتهالات رائعة يعزف عليها شاعر الزهد ويقدمها في جوٍّ شعري يعبق بالندم والرجاء ليختم به أشعاره وينتقل بعدها إلى المصير المحتوم الذي كان شاغله الأكبر في حياته.

وفي هذا الاتجاه يطالعنا أبو إسحاق الإلبيري في قصيدته التي يكرر فيها لفظ الجلالة في أواخر أبياتها كلها، حيث يقول:

يا أيُّها المُغتَرُّ باللهِ ... فِرَّ مِنَ اللهِ إلى اللهِ
ولُذْ بهِ واسْألهُ مِن فضلِهِ ... فقدْ نجا مَنْ لاذَ باللهِ
وقُمْ لَهُ والليلُ في جنحِه ... فحبّذا مَنْ قامَ لله

---

[1] لمزيد من الاطلاع حول الآيات القرآنية المتعلقة بالتسبيح انظر: عبد القاضي، محمَّد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص415– 417.

[2] سورة يس، آية 83.

[3] سورتي الصف والحشر، آية 1.

[4] الأصفهاني، أبو فرج علي بن الحسين، (ت356هـ)، الأغاني، المجلد الرابع، ص87؛ أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص319– 320.

واتــلُ مِــنَ الــوَحْي ولــو آيــةً ... تُكســـي بهـــا نـــوراً مِـــنَ اللهِ
وعَفِّـــر الوَجْـــهَ لـــهُ ســـاجِداً ... فعـــــــزَّ وجـــــــهٌ ذَلَّ للهِ
فمـــــا نعـــــيمٌ كمُناجاتـــــه ... لقانـــــــــتٍ يُخلـــــــصُ للهِ
وابعـــدْ عـــن الـــذنب ولا تاتـــهِ ... فبُعـــــدُهُ قُـــــربٌ مِـــــنَ الله
والْحَـــظْ بعَينيـــك أديـــمَ السَّـــما ... ومـــا بهـــا مـــن حِكمَـــة الله
تـــــرى بهـــــا الأفـــــلاك دوارةً ... شـــــــاهِدةً بالمُلـــــــكِ للهِ
مـــا وقَفـــتْ مُـــذ أُجرِيَـــتْ لمْحَـــةً ... أو دونَهـــــا خوفـــــاً مـــــن اللهِ
وهـــيَ ومـــا غـــابَ ومـــا قـــدْ بـــدا ... مـــــن آيـــــةٍ فـــــي قبضـــــةِ الله
توحِّـــــدُ الله علـــــى عرشـــــهِ ... فـــــي غَيبـــــه فـــــالأمرُ للهِ[1]

إنَّها ابتهالات يلوذ بها الشاعر إلى الله، حيث يوجه خطابه إلى مجهول ويدعوه إلى العودة إلى الله تعالى والتوبة من الذنوب، ويستطرد إلى تسبيح الأفلاك وكل ما في الكون لله جلَّ وعلا.

وفي قصيدةٍ أخرى يبتهل الإلبيري إلى الله تعالى ويرجو عفوه، ويعترف بتقصِيره ويلوّم ذاته ويطلب المغفرة منه سبحانه، حيث يقول:

أتيتُـــكَ راجيـــاً يـــا ذا الجَـــلالِ ... ففـرِّج مـا تَـرَى مـن سـوء حـالي
عَصَـــيتُكَ ســـيِّدي ويلـــي بجَهْلـــي ... وعَيْـبُ الـذَّنْبِ لـم يخطُـرْ ببـالي
إلـــى مَـــنْ يَشْـــتكي المَملـــوكُ إلّا ... إلـــى مَـــولاهُ يـــا مَـــوْلى المَـــوالي
لعَمْـــري ليـــتَ أُمِّـــي لـــم تَلِـــدْني ... ولـــم أُغضـــبْك فـــي ظُلَـــمِ اللَّيـــالي
فهـــا أَنـــا عَبـــدُكَ العاصـــي فقيـــرٌ ... إلـــى رُحمـــاكَ فاقبَـــلْ لـــي سُـــؤالي
فـــإنْ عاقبْـــتَ يـــا رَبّـــي تُعاقِـــبْ ... مُحقّـــــاً بالعـــــذابِ وبالنَّكـــــالِ
وإنْ تعـــفُ فعفـــوكَ قَـــدْ أرانـــي ... لأفعـــــالي وأوزاري الثّقـــــالِ! [2]

إنَّ قصيدتي أبي إسحاق الإلبيري السابقتين تلتقيان مع قصيدتي أبي العتاهية في مواطن عدة، ففي القصيدة الأولى يدعو الإلبيري إلى التمسُّك بحبل الله واللجوء إليه

---

[1] الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص75– 77.

[2] الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص139.

ومناجاته والبعد عن الذنوب والآثام، ثم ينتقل للإشارة إلى الأفلاك السماوية الشاهدة على قدرة الله تعالى، فهي في قبضته مسيرة بأمره سبحانه، وهي توحّد الله وتسبح بحمده لأنّ الأمر كله له وحده سبحانه، ويلاحظ أنَّه يختم كل بيت بلفظ الجلالة تسبيحاً وتمجيداً لله تعالى. وهذه الابتهالات قريبة في مضمونها من قصيدة أبي العتاهية التي يبتهل ويتضرَّع بها إلى الله تعالى مكرراً التسبيح والتمجيد لبيان عظمته سبحانه، ولإيصال رسالة إلى المتلقي مفادها ضرورة الخضوع لسلطانه والانقياد لأوامره سبحانه؛ لأنَّ كل شيء في الوجود مُسيّرٌ بأمره جلَّ وعلا.

وإذا كان أبو العتاهية قد كرَّر في قصيدته التسبيح، إذ بدأ أبياته بلفظة "سبحان" فإنّ الإلبيري ختم أبياته بلفظ الجلالة لذات الغاية التي أرادها أبو العتاهية وهي ضرورة التذلل إلى الله تعالى وطاعته في كل أمر؛ لأنَّه سبحانه هو المهيمن على كل شيء. فكأن صوت الإلبيري يمتزج بصوت أبي العتاهية، وهنا يمكن أن نتساءل: هل جاءت أشعار الإلبيري نتيجة التحام وتفاعل مع تجارب أبي العتاهية الشِّعرية؟

الحقيقة إنَّ الشُّعراء الأندلسيِّين قاموا باستنطاق شعر أبي العتاهية كما تمت الإشارة سابقاً، إذ إنَّ أثر أبي العتاهية في شعرهم لا يمكن إنكاره، ولكن قدرات الشاعر الأندلسي وبراعته الفنية مكنته من إعادة تشكيل معاني تلك الأشعار وإنتاجها بما ينسجم ورؤيته الشعورية، ثمَّ إنّ موضوع الزهد– رغم تشابه موضوعاته ومعانيه– يفتح المجال أمام الشُّعراء لتأدية إبداعات جديدة من خلال ثقافة الشاعر الإبداعية القادرة على السمو بالنص الشِّعري إلى مستوى الإبداع وذلك عندما يكون إثباتاً لقدرات الشاعر الفنية وتعبيراً عن تجربة عامة في الحياة.

وقد امتلك الأندلسيُّون ثقافة مميزة مكنتهم من تحويل روافد تلك الثقافة إلى نسق شعري يجسّد الصفة الشِّعرية للنص[1]، وإن كانت موضوعات الزهد مشتركة إلَّا أنَّهم استغلوا طاقات اللُّغة فمنحوا أشعارهم قيماً فنية وجمالية متعددة.

---

[1] انظر: الجبوري، سعد، ثقافة الشاعر وأثرها في معايير النقد العربي القديم حتى نهاية العصر العباسي، ص183.

ومن خلال التتبع الاستقرائي لشعر الزهد الأندلسي في هذا البحث يظهر أنَّ الأندلسيِّين قد نظموا أشعاراً كثيرة وقصائد متعددة في موضوع الزهد، وكانوا يميلون إلى التَّجديد في تناولهم لموضوعاته غير أن ميلهم هذا لم يبعدهم عن التأثُّر بأبي العتاهية إذ كانوا يدينون له بتلك القيم الموروثة ويعملون على ترسيخها بأساليب وطرائق متنوعة وبمعانٍ مختلفة.

وربَّما يتراءَى للنَّاظر أنَّ الباحث يُقيم دراسة مقارنة بين شعر أبي العتاهية الزُّهدي وأشعار الأندلسيين، ولكنَّ الأمر يختلف تماماً، إذْ إنَّ طبيعة الموضوع تفرض روحها على الدراسة، وتحدِّد مدى حاجة الباحث إلى التوسُّع في تناول أشعار أبي العتاهية بتلك الطريقة التي رأيناها؛ ليثبت إلى أي مدى أثَّرت تلك الأشعار في شعر الأندلسيين.

5.2 تجديد الأندلسيِّين في معاني أبي العتاهية:

لقد كانت حركة التَّجديد من سمات المحدثين الذين وقفوا موقف التحدِّي في العصر العبَّاسي، وقد تجلَّى تجديدهم في الصياغة والموضوعات والأعاريض، وكان هذا التَّجديد من أسباب الصراع بين القدماء والمحدثين[1].

وقد ذهب ابن الأثير إلى "أنَّ باب الابتداع للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة، ومن الذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية؟ إلاَّ أنَّ من المعاني ما يتساوى الشُّعراء فيه، ولا يُطلق اسم الابتداع لأول قبل آخر؛ لأنَّ الخواطر تأتي به من غير حاجة إلى ابتداع الآخر الأول"[2]. لقد استطاع الأندلسيُّون أن يقدّموا شعر الزهد في ثوبٍ جديد ويبرعوا في رسمه وتكوينه من خلال توليد معانٍ جديدة طبعوها بأفكارهم،

---

[1] الجبوري، ثقافة الشاعر وأثرها في معايير النقد العربي القديم حتى نهاية العصر العباسي، ص294.

[2] ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله محمَّد بن محمَّد عبد الكريم، (ت637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، مصر، 1358هـ/1939م، ص363.

وما دام أفق القول الشِّعري رحباً وفسيحاً، فإنّ الشاعر يستطيع أن يحلّق فيه كيف شاء إذ إنّ "الشعر ميدان والشُّعراء فرسان"[1].

ويعدُّ توليد المعاني من معانٍ أخرى دليلاً على قدرة الشاعر على استثمار هذه المعاني وإعادة صياغتها[2]، مع ضرورة الإشارة إلى من سبق إلى تلك المعاني، يقول ابن بسام: "وإذا ظفرت بمعنى حسن أو وقفت على لفظ مُستحسن، ذكرتُ من سبق إليه وأشرتُ إلى من نقص عنه أو زاد فيه"[3].

وقد عرَّف ابن رشيق التوليد بقوله: "والتوليد: أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه، أو يزيد فيه زيادة، فذلك يسمى التوليد وليس باختراع، لما فيه من الاقتداء بغيره، ولا يقال له أيضاً سرقة إذا كان ليس آخذاً على وجهه"[4]. فالتوليد عند ابن رشيق يكون باستخراج معانٍ جديدة من معاني شعراء سابقين أو الزيادة في تلك المعاني ثم راح يفرِّق بين التوليد والسرقة ليدرأ الشبهة ويبرّئ الشاعر من شبهتها.

وإذا علمنا أنَّ التراث الشِّعري العربي ظلَّ يحفر تياراته القوية في وجدان الشُّعراء الأندلسيِّين[5]، فإنَّ اؤلئك الشُّعراء مدينون لذاك التراث الذي أسهم في تطوير الاتجاهات الشِّعرية عندهم من خلال هضم التراث واكتشاف كل جوانبه المضيئة ثم البدء بالتَّجديد من أبعد نقطة وصل إليها التراث، فالتراث مجال التَّجديد ومادته.

إنَّ عمليتي إنتاج النص وتلقّيه تدعونا إلى النظر في الروافد الثقافية التي تأثر بها منتجو النصوص، فثمة إشارات واضحة في كل نصّ تدلّ على تأثره بغيره من النصوص السابقة، وقد تناول النقاد هذه المسألة بطرائق مختلفة، حيث استعمل حازم

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، م1، ص19.

[2] الكفاوين، عمر، تاثير امرئ القيس في الأدب الأندلسي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة مؤتة2011م.

[3] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1/ م1، ص18.

[4] القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، (ت463هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،1401هـ – 1980م، ط5، حققه وعلّق حواشيه محمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ج1، ص263.

[5] محمود، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ص112.

القرطاجني مصطلح الإحالة للإشارة إلى حضور نصّ سابق في نصّ شعري معين حضوراً يخضع لصور شتّى من عمليات التحوير والتغيير[1].

والحقيقة التي يريد القرطاجني طرحها هي أن الشُّعراء يؤسسون قصائدهم في صياغة الشعر اعتماداً على ركيزتين الأولى: ذاتية تتعلق بقدرة الشُّعراء على التخيّل والتفكّر، والثانية: عامة تقوم على اقتباس المعاني من المصادر المعرفية التي يتصلون بها، وهو بهذا الطرح يقدم تصوّراً حول كيفية تكوُّن النصوص وإفادتها من نصوص سابقة[2].

وبناء على هذه الرؤى يمكننا القول: إنّ الشعر الأندلسي لم ينقطع عن الماضي انقطاعاً كاملاً، إذ لم يخل في الغالب من محاكاة الأساليب الفنية التَّقليدية ولكن في المقابل وُجد شعراء تحرروا من قيد المحاكاة واستطاعوا أن ينطلقوا على دروب التَّجديد ولعل الشواهد على ذلك كثيرة، والذي يهمنا الآن هو مدى تجديد الأندلسيِّين على معاني أبي العتاهية لاسيّما الزهدية منها.

كان للقصيدة الزهدية عند أبي العتاهية خصائص فنية مميزة، وكانت لغة الزهد تختلف عن غيرها، والزهد كما يقول أبو العتاهية: "ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب، وهو مذهبٌ، أشغفُ الناسِ به الزّهادُ وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرّياء والعامة، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه"[3].

إنَّ شعراء الزهد الأندلسيِّين كان يشغلهم تفكيرهم في المعنى الزهدي الذي يريدون أن يعبّروا عنه، وكانوا يسعون إلى إيصال معانيهم إلى سامعيهم أو قارئيهم بطريق مباشر[4]، من هنا فقد التقت منهجيتهم الشِّعرية مع منهجية أبي العتاهية، إذ كانوا جميعاً يختارون اللُّغة القريبة إلى إفهام الناس؛ ليتمكَّنوا من التأثير على نفوسهم ويبثّوا بينهم رسالتهم التي يؤمنون بها.

---

[1] الزعبي، زياد، المثاقفة وتحولات المصطلح، دراسات في المصطلح النقدي عند العرب، 2007م، ط1، دار الثقافة، عمان– الأردن، ص91.

[2] الزعبي، المثاقفة وتحولات المصطلح، دراسات في المصطلح النقدي، ص38–39.

[3] الأصفهاني، أبو فرج، الأغاني، ص56.

[4] عطوي، شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة، ص323.

وقد أشرنا سابقاً إلى مدى إعجاب الأندلسيِّين بأشعار أبي العتاهية وإلى المنزلة التي بلغتها تلك الأشعار في نفوسهم، إذ إنّ المتمعِّن في تلك الأشعار يجد تجديداً في بعضها، حيث جدد الشُّعراء الأندلسيُّون في معاني أبي العتاهية واقترن تجديدهم في الإبداع الشِّعري، إذ ليس ثمة شك في أن الطابع العام لشعر الزهد يمثل نسيجاً ثقافياً عند أبي العتاهية والشُّعراء الأندلسيِّين، لذا فإنّ المتأمل في شعر الزهد الأندلسي وأشعار أبي العتاهية يجد ثمة قواسم مشتركة بينهما، وهذه القواسم لا تنحصر فقط في موضوعات القصائد أو تشابه مضامينها وإنما تتجاوز ذلك إلى تناول المعنى وتجديده بأساليب فنية مختلفة.

والذي نفهمه من هذا كلّه، أنَّ الشعر الأندلسي يُعَدُّ نقطةً مضيئةً على طريق بداية الإبداع الشِّعري في الأندلس دون الخروج على الأساليب الشِّعرية القديمة[1].

وقد تفنّن الشُّعراء الأندلسيُّون في انتقاء أساليب التَّجديد في معاني أبي العتاهية الزهدية، يقول ابن حمديس باكياً على الشيب الذي طالما غزاه في وقت مبكر من العمر:

وُعْظـــتَ بلمّتـــك الشـــائبهْ ... وفقـــد شـــبيبتكَ الذاهبـــهْ
وســـبْعين عامـــاً تـــرى شمسَـــها ... بعينِـــكَ طالعـــةً غاربـــهْ
فوَيْحَـــكَ هـــل عَبَـــرتْ ســـاعةٌ ... ونفسُـــك عـــن زلّـــةٍ راغبـــهْ
فَرغـــتَ لصـــنعكَ مـــا لا يقيـــكَ ... كأنّـــك عاملـــة ناصـــبهْ
فيـــا حاضـــراً أبـــداً ذنبُـــهُ ... وتوبتـــه أبـــداً غائبـــهْ
أذبْ منْـــك قلبـــاً تُجـــاري بـــه ... ســـوابقَ عبرتَـــك الســـاكبهْ
عســـى الله يـــدرأ عنـــك العقـــابَ ... وإلا فقـــد ذُمّـــت العاقبـــهْ[2]

إنّ الذي يقرأ هذه الأبيات يحس بأنّ ابن حمديس يجدد في أشعار أبي العتاهية التي يبثُّ فيها شكوى الزمان، ويعبّر عن تجربة حقيقية من تجارب الحياة، إذ يقول:

بكَيـتُ علـى الشّـبابِ بـدَمْع عَيْنـي ... فلـم يُغـنِ البُكـاءُ ولا النّحيـبُ

---

[1] محمود، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث للهجرة، ص116.

[2] ابن حمديس، ديوان ابن حمديس، ص40–41.

فيــا أسَــفاً أسِــفتُ علــى شَــبابٍ نَعــاهُ الشّــيبُ والــرّأسُ الخَضــيبُ
عَرِيــتُ مــنَ الشّــبابِ وكــان غُصْــناً كمــا يقــوى مــن الــوَرَقِ القضــيبُ
فيــا ليــتَ الشــبابَ يعــودُ يومــاً فــأُخبِرَه بمــا فَعَــل المشــيبُ[1]

ومن تأملنا في الأبيات السابقة نجد كلا الشاعرين يسعى إلى تعميق القيم الإسلامية من خلال التدبر في حال الإنسان الذي سرعان ما يخضبه الشيب، فراح أبو العتاهية يشبه حال الشيب بالغصن الذي تتساقط أوراقه، فيشدّه الشوق إلى زمن الشباب ويتمنّى أن يعود إليه شبابه وأنّى له ذلك؟ في حين جدَّد ابن حمديس في هذه المعاني وراح يذكّر الإنسان بالتوبة والبكاء على الخطيئة عسى الله أن يشمله بعفوه وينجّيه من العذاب، حيث نلمس تأثراً واضحاً بالقرآن الكريم من لدن ابن حمديس في عجز البيت الرابع حيث وظّف الآية القرآنية ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[2] بنصّها القرآني الذي وردت فيه وهو أمر يكشف عن أثر القرآن الكريم في شعر الأندلسيِّين إذ كان رافداً مهماً في ثقافتهم إذ تعاملوا مع نصوصه الكريمة تعاملاً واعياً يدل على عمق قراءتهم وفهمهم له.

لقد وجد الشاعر الأندلسي ضالته في شعر أبي العتاهية الزهدي، ونحا نحو أساليبه ومعانيه في كثير من قصائد الزهد، يقول أبو العتاهية:

يــا عجبــاً للنّــاسِ لَــوْ فكّــروا وحاســبوا أنفسَــهُم أبصَــروا
وعبَــروا الــدُّنيا إلــى غيرهــا فإنّمــا الــدّنيا لهُــمْ مَعْبــرُ
لــيعْلمَنّ النّــاسُ أنّ التّقــى والبِــرَّ كانــا خيــرَ مــا يُــذخَرُ[3]

فقد تناول الزاهد أبو بكر محمَّد بن الوليد الفهري الطرطوشيّ[4] هذا المعنى وجدّد في طريقة العرض ودقة التعبير حيث يقول:

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص45– 46.

[2] سورة الغاشية، آية 3.

[3] أبو العتاهية، ديوان ابي العتاهية، ص140– 141.

[4] هو الفقيه أبو بكر محمَّد بن الوليد الفهريّ الطرطوشيّ، سكن الشام ومصر وكان إماماً عالماً زاهداً، رحل إلى المشرق فحجَّ ودخل بغداد والبصرة وسكن الشام وكان ورعاً متواضعاً متقشفاً منقللاً في الدنيا راضياً منها باليسير، توفي بالإسكندرية سنة 520هـ، انظر: ابن سعيد، أبو

إنَّ لله عبـــــــــاداً فُطُنـــــــــا طلَّقـــوا الـــدُّنيا وخـــافوا الفِتَنـــا
فكّـــروا فيهـــا فلمّـــا عَلِمـــوا أنّهـــا ليســـت لحـــيٍّ وطَنَـــا
جَعلوهـــــا لُجَّـــــةً واتخـــــذوا صـــالحَ الأعمـــالِ فيهـــا سُـــفُنا[1]

إنَّ الفكرة التي أراد الشاعران طرحها هي بيان حقيقة الدنيا الزائلة وأنّها دار ممرّ لا دار مقرّ، فصوّرها أبو العتاهية بأنها جسر يعبره الناس إلى الآخرة ثم جدد الطرطوشيّ في المعنى إذ جاء بصورة فنية تعكس قدرته على معالجة الحدث الشِّعري من دون تكلف، فشبّه الدنيا بالبحر العميق، وشبّه العمل الصالح بسفينة النجاة التي ينجو بها الإنسان.

إنَّ هذا التَّوظيف لصورة الدنيا، إنَّما يثير المشاعر الإنسانية ويُوقظها لدى المتلقي؛ لأنَّ الشاعر أحسن اختيارها، وهذا الأمر يدل على قدرة الشاعر الأندلسي على الإفادة من طاقات اللُّغة وإمكاناتها في تجديد المعاني وتقديمها بصورة جديدة ومعبّرة.

والمتأمِّل في شعر أبي العتاهية الزهدي يجده صورة من مجاهدة النفس ورفض لزخرف الدنيا وزينتها، وحرص على العمل الصالح الذي ينتهي بصاحبه إلى السعادة في الآخرة، وكان في عِظاته يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف، ويذكر الناس بحقيقة الحياة التي طالما تنتهي بالموت، يقول في إحدى قصائده:

ألا تـــاتي القُبـــورَ صَـــباحَ يـــومٍ فَتَسْـــمعَ مـــا تُخبِّـــرُكَ القُبـــورُ؟
أُعيـــذُكَ أنْ تُسَـــرّ بعـــيشِ دارٍ قلـــيلاً مـــا يَـــدومُ لهـــا سُـــرورُ[2]

إنَّ المعنى الذي تضمَّنته الأبيات نجده بأسلوبٍ آخر عند الشاعر ابن عبد ربه، إذ يقول:

أتفْـــرَحُ والمنيّـــةُ كُـــلَّ يـــومٍ تُريـكَ مكـانَ قَبْـرِكَ فـي القبـورِ؟!

الحسن علي بن موسى، (ت685هـ)، المُغرب في حُلى المَغرب، ط3، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ج2، ص424.

[1] ابن سعيد، المُغرب في حُلى المَغرب، ج2، ص424.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص145.

هــي الــدّنيا فــإن ســرَّتْك يومــاً فــإنَّ الحُــزنَ عاقبــةُ الغــرورِ[1]

فأبو العتاهية يدعو بأسلوب استفهامي إلى زيارة القبور لأخذ العظة والعبرة ثم يحذّر الإنسان من أن يغترَّ بالحياة الدنيا التي لا يدوم سرورها لأن أيامها معدودة عما قليل ستنتهي، وأمَّا ابن عبد ربه، فقد استطاع بموهبته الشِّعرية أن يأتي بالمعنى بأسلوب جديد إذ يوجّه سؤاله للإنسان الغافل الذي نسي حقيقة الموت كيف يطيب له الفرح والموت قريب منه، إذ لا يكاد يمضي يوم إلا ونزور المقابر مودّعين مشيّعين، فهو وإن سُرَّ يوماً فإنَّ هذا السرور لا يدوم إذ يعقبه حُزن. وهذا يدعو على عدم الركون للدنيا لأن نعيمها زائل لا محالة، وقد صاغ ابن عبد ربه شعره في قوالب لغوية بسيطة وأساليب تعبيرية قريبة من عقول الجمهور ومستواهم الإدراكي كما أبو العتاهية في طريقته الشِّعرية، كما جاءت الأبيات عند الشاعرين على البحر الوافر وهو أحد البحور الذي غالباً ما يُستخدم في القصائد ذات الموضوعات الهامة والمواقف الجادّة.

ولنسمع قول يحيى الغزال الذي يستخدم في تزهده معاني أبي العتاهية ويحورها بطريقة فنية حيث يقول:

انظُـرْ إلـيَّ إذا أُدْرجـتُ فـي كَفنـي وانظُـر إلـيَّ إذا أُدرجـتُ فـي اللّحـدِ
واقعـدْ قلـيلاً وعـاينْ مَـنْ يُقـيمُ مَعـي ممّـن يُشـيّعُ نَعشـي مِـنْ ذَوي وُدّي
هيهــاتَ كُلّهُــم فــي شــأنِهِ لِعــبٌ يرمـي التُّرابَ ويحثُوهُ على خَدّي[2]

إن الشاعر الغزال في هذه الأبيات يلتزم منهج أبي العتاهية إذ يقول:

كــلُّ حــيٍّ ضَــاقتِ الأرضُ عنــهُ ســوْفَ يكفيــه مــن الأرضِ لحــدُ
كــلُّ مــن مــاتَ سَــهَا النَــاسُ عنــهُ لــيسَ بــينَ الحــيّ والمَيــتِ وُدُّ[3]

إنّ المعاني التي تضمَّنتها أبيات الغزال تُؤكّد تأثّره بأبيات أبي العتاهية، فهو يدور في معانيه ضمن الإطار الذي قدَّمه أبو العتاهية المتعلق بمصير الإنسان وإدراجه في لحده داخل القبر وانصراف المشيعين عنه ثم انشغالهم بأمور الدنيا

---

[1] ابن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربه، ص94.

[2] الغزال، ديوان يحيى بن حكم الغزال، ص64.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص114.

ونسيانهم له وانقطاع علاقتهم به، وقد أعاد الغزال بناء هذا المشهد من جديد إذْ قدّم وصفاً مُفصَّلاً للحدث طلب فيه من المتلقي أن ينظر إلى حاله حين يُكفّن، وأن ينظر إليه لحظة لحده، ثمَّ يطلب منه أن يقعد معه ليرى موقف أقاربه وأصدقائه، فكأنّهم تنكّروا له فحثوا عليه التراب، ثمَّ انشغلوا عنه كأنهم لم يعرفوه.

وقد جدد الغزال في معاني أبي العتاهية، إذْ فصَّل جزيئات المشهد مستعيناً بأسلوب الطلب الذي جاء بصيغة الأمر من خلال استخدام الأفعال (انظر– اقعد– عاين) وذلك ليعمّق الأثر في النفس بشكل أوسع ويحرك مشاعر المتلقي.

لقد مضى الشعراء الأندلسيُّون في توليد مزيد من الأفكار والمعاني، وتفنَّنوا في صورهم وأساليبهم فظهر التَّقليد والتأثر في شعر أبي العتاهية في شكله الخارجي وظهر الجديد في أجزائه الداخلية، فكأنّ الشاعر الأندلسي جمع بين التأثر والتَّجديد دون أن يفقد شعره جماله ورونقه، وقد أكدّ ابن بسام أحقيّة الشُّعراء بأخذ المعاني من غيرهم وتوليدها ولكن ضمن شروط معيّنة بقوله: "إذا اعتمدت معنىً قد سبقك إليه غيرك فأحسن تراكيبه وأرقَّ حاشيته، فاضربْ عنه جملة، وإن لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن لتنشطَ طبيعتُك وتقوى مُنّتك"[1]. وبناء عليه فإن الشُّعراء الأندلسيِّين لا يأخذون أيّ معنى لأيّ شاعر وإنما يختارون المعاني الحسنة لأحسن الشُّعراء[2]، لذا فقد حظيت أشعار أبي العتاهية بمنزلة سامية في نفوس الأندلسيِّين مما جعلهم يروونها ويجددّون فيها ويُضفون عليها من تجاربهم وثقافتهم.

ولنسمع إلى أبيات أبي العتاهية في ذم الدنيا وعدم الركون لها:

اقطَعِ الدُّنيا بما انقَطَعت ... وادفَع الدُّنيا إذا اندفَعَت

واقبَلِ الدُّنيا إذا سَلِست ... واترُكِ الدُّنيا إذا امتَنَعت

يطلُبُ الدّنيا الفتى عَجَباً ... والغِنَى في النّفس إذ قَنِعت[3]

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، م1، ص287.

[2] الكفاوين، عمر، تأثير امرئ القيس في الأدب الأندلسي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة مؤتة، الأردن، 2011، ص185.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص82.

يلحظ الدارس أنَّ أبا العتاهية يُحذّر من غرور الدنيا بأسلوب إنشائي، إذ استخدم فعل الأمر (اقطع- اقبل- اترك) وكأنَّه واعظ منقذ يريد الخير للإنسان ويبين له الطريقة المثلى في التعامل مع الدنيا، ثم بيّن أنَّ القناعة تكمن في غنى النفس. وهذا المعنى نجده عند ابن الخراط[1] ولكن بطريقة أخرى، حيث يقول:

واهـــاً لـــدنيا ومغرورهـــا كـــم شـــابت الصَّـــفو بتكـــديرِها
أيُّ امـــرئٍ آمـــن مـــن سِـــربه ولـــم يَنَلـــه ســـوءُ مقـــدورِها؟
وكـــانَ فـــي عافيـــةٍ جســـمُه مِـــن مـــسِّ بلواهـــا وتَغْييرهـــا
وعنـــده بُلْغـــةُ يـــومٍ فَقَـــد حِيـــزَت إليـــه بحـــذَافيرِها[2]

إنّ المتمعن في هذه الأبيات يلمس فيها حضور قول الرسول -ﷺ-: "من أصبح منكم آمناً في سربه مُعافى في جسده عنده قوت يومه فكأنَّما حيزت له الدنيا بحذافيرها"[3] حيث نقل ابن الخرَّاط هذا الحديث من سياقه الشَّريف إلى سياقات جديدة تناسب غرضه الشِّعري وتنسجم مع المعنى الذي أراد أن يعبّر عنه وهو بيان قيمة الدنيا وأهمية القناعة فيها.

والحقيقة أنَّنا أمام قضيّة مهمَّة في قراءتنا لأبيات ابن الخرَّاط، هي قضيّة الاعتماد على النُّصوص السَّابقة، وكيفية حضورها في النَّص الشِّعري، على تلك الشاكلة التي رأيناها عند ابن الخراط؛ الذي أفاد من نصٍّ ديني سابق وأعاد إنتاج معانيه إنتاجاً جديداً منحها أبعاداً جديدة تتعلَّق بالقناعة والرِّضى.

---

[1] هو أبو محمَّد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبدالله ابن حسين الازدي الإشبيلي المعروف بابن الخرَّاط، ولد سنة 510هـ، وتوفي سنة 581هـ، كان خطيباً ببجاية فقيهاً محدثاً حافظاً زاهداً فاضلاً أديباً شاعراً متواضعاً متقللاً من الدنيا، قسم نهاره بين عبادة وتعليم وتأليف وقضاء لحوائج الناس. انظر: الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمَّد، (ت748هـ)، تذكرة الحفَّاظ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، 1956م، ج4، ص1352.

[2] الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج4، ص1350.

[3] النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، (ت676هـ)، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، 1428هـ- 2007م، ط1، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن عويضة، دار المنار، القاهرة، ص140.

فالشاعر الأندلسي إذن أصبح مُنتجاً يمتلك مرجعيات معرفية يستقي منها ويتصرف بمادتها في سبيل تحقيق وجود نصّه[1]، فالدنيا عند كلا الشاعرين (أبي العتاهية والخراط) دار زائلة، وكل منهما يرشد الإنسان إلى طرائق الخير التي يحقق فيها نجاته وفلاحه، فأبو العتاهية يرى أنّ القناعة طريق لغنى النفس وفلاحها، وأما الخراط فيجدد المعنى من خلال تفصيل جزئيات طرق الفوز والنجاح وهي: الأمان، عافية البدن، القوت. وهي التي استوحاها من الحديث النبوي الشريف، وكشفت عن جهود إبداعية امتلكها الشاعر كانت قد أثمرت في تأسيس ثقافة شعرية متجددة من خلال قدرته على تطويع ثقافته الدينية في خدمة موضوعه الشِّعري.

إنَّ تجديد الشُّعراء الأندلسيِّين في معاني أشعار أبي العتاهية، يكشف عن قدرة هؤلاء الشعراء على فهمهم لأبعاد تجربة أبي العتاهية الزهديّة، واستيعابهم لمعاني أشعاره، إضافة إلى قدرتهم على تجاوز تلك المعاني بما أملته عليهم ظروف تجربتهم الزهدية ومقدرتهم الفنيّة على التعبير عن هذه التجربة، يقول أبو العتاهية:

قد سَمِعْنا الوْعظَ لو ينْفَعُنا ... وقَرأنَا جُلَّ آياتِ الكُتُبْ
كلُّ نفسٍ ستُوافى سَعْيها ... ولَها ميقاتُ يوْمٍ قد وَجَبْ
جَفّتِ الأقلامُ من قبلُ بما ... حَتَمَ اللهُ علينَا وكَتَبْ
يَهْرُبُ المرءُ مِنَ الموتِ وهلْ ... يَنْفعُ المرءَ منَ الموتِ الهَرَبْ
حسْبيَ اللهُ إلهاً عادِلاً ... لا لَعَمْرُ اللهِ ما ذا بِلَعِبْ[2]

يشير أبو العتاهية إلى أنَّ النفوس ستوفّى أجورها بعد موتها، إذْ إنَّ لها ميقات يوم قُدّر في علم الله تعالى، وهذا الموت الذي قُدرت لحظته لا يستطيع أحد أن يهرب منه إذ لا ينفع الإنسان الهرب، ثمَّ يضرع إلى الله تعالى بالدعاء بأنَّه سبحانه كافيه فهو الإله العادل الذي يحكم بالحق.

---

[1] الزعبي، المثاقفة وتحولات المصطلح، ص96.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص43-44.

لا شكَّ أن قدرة الشاعر الأندلسي على تمثّل أساليب الشُّعراء القدماء وانتهاجه منهجهم يعدُّ معياراً يُحكم فيه على شاعرية هذا الشاعر، من هنا يمكن أن نلمس تأثر وتجديد أبي بكر محمَّد بن أصبغ الكاتب[1] بأبيات أبي العتاهية حيث يقول:

إنّـي دُعيـت لـوِرْدٍ مـا لـه صَـدْرُ وجـاء مـا كُنـتُ أخْشـاه وأنتظـرُ
وأقبـلَ المـوتُ نحـوي فـي عسـاكره فـالنفسُ سـائلةٌ والجسـمُ ينفطـرُ
لـو كـانَ يُغنـي فِـرارٌ منـه أو وَزَرٌ لكـان عنْـدي مَفَـرٌّ منـه أوْ وَزَرُ
لكنَّـهُ أجَـلٌ قَـدْ خَطَّـه قَلَـمٌ فـي اللّـوح يحفـره الميقـاتُ والقـدرُ
اللهُ حسـبيَ لا ربٌّ سِـواه ولا لـي موئـلٌ غَيـره أرجـو وأعتصـرُ[2]

يتحدَّث ابن أصبغ عن لحظات الموت، فالموت يقبل كأنَّه جيش بعساكره وجحافله ولعلها إشارة إلى ملك الموت وأعوانه، وفي تلك اللحظات يتمنّى لو يستطيع الفرار أو الهرب لكنّه أمر محال لأن أجل الموت مقدر لن يتأخر عن موعده لحظة واحدة، ثمَّ يدعو الله تعالى ويرجوه فهو سبحانه كافيه وناصره.

إنَّ ثمة جزئيات متشابهة بين أبيات الشاعرين، أهمها لحظة الموت، فهي أجل مكتوب ومقدر وكأنهما يستلهمان الآية القرآنية الكريمة: ﴿فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3]، وعدم إمكانية الهروب أو الفرار من الموت، إذ يستحضر الشاعران قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾[4] ثمَّ اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء فهو سبحانه كافيهما وكأنهما يستلهمان المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾[5].

---

[1] هو أبو بكر محمَّد أصبغ، كان من أهل العلم باللُّغة والشعر وله حظ من العربية وكان جيد الخط، وكان شاعراً مطبوعاً، سهل الكلام، وكان سكنه حاضرة إشبيلية. انظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص308.

[2] الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص308.

[3] سورة الأعراف، آية 34.

[4] سورة الجمعة، آية 8.

[5] سورة التوبة، آية 129.

إنَّ استلهام الشاعرين لمعاني تلك الآيات القرآنية إنَّما يكشف عن علاقتهما بالقرآن الكريم وأنهما استغلا كل طاقاتهم الإبداعية في الوصل بين تجاربهم ونصوصه، فأنِسُوا إلى تلك اللُّغة التي أصبحت تجري على ألسنتهم على أنها لغتهم الخاصة[1]، وهذا راجع إلى مكوِّناتهم الثقافية التي كان مصدرها الأول ومنبعها الغزير القرآن الكريم.

وعلى الرغم من وجود تشابه واضح بين تناول الشاعرين لتلك المعاني، فقد أضفى ابن أصبغ من خلال لغته الشِّعرية وأسلوبه التعبيري بُعداً جماليّاً، أسهم في إبراز معانيه وأفكاره التي تكشف عن مشاعره وقدرته على الملاءمة بين فنِّه وعاطفته.

إنَّ الشواهد التي تعكس صورة التَّقليد والمحاكاة ثمَّ التَّجديد من قبل الشُّعراء الأندلسيِّين في أشعار أبي العتاهية كثيرة، إذْ إنَّها تمثِّل نسق الحياة الأدبية التي تطمح إلى الإبداع والتَّجديد دائماً، والسؤال الذي يمكن طرحه الآن هو هل كان هذا التَّجديد ناتجاً عن تأثير البيئة الأندلسية في حياة الشعر آنذاك؟ الحقيقة إنَّ البيئة لها أثرها ولكنها ليست وحدها القادرة على التأثير، وإنَّما كانت العبقرية الذاتية والنبوغ، فالتَّجديد الذي لمسناه كان توليداً إبداعياً ناجماً عن مواهب الشُّعراء وسعة خيالهم وموهبتهم الفنية وحصافة عقولهم، إذ استطاعوا من خلال هذه المقومات تهيئة آفاق ثقافية جديدة في توليد معانٍ جديدة رغم تمسكهم بالنهج التَّقليدي الذي سار عليه أبو العتاهية.

وما من شكّ في أنَّ المقام يطول بنا إذا نحن واصلنا الحديث عن تجديد الأندلسيِّين في معاني أبي العتاهية، ولكن حسبنا ما أوردنا من الشَّواهد الدَّالة على تجديدهم في معانيه بأساليب متنوِّعة.

---

[1] شراد، شلتاغ، عبود، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، 1408هـ- 1987م، ط1، دار المعرفة، دمشق، ص986.

الفصل الثالث

تأثير شعر أبي العتاهية في بناء الخطاب الشِّعري الأندلسي

لقد سعى الشعراء الأندلسيون سعياً جادَّاً في محاكاة شعر أبي العتاهية، إذْ وجدوا فيها مرتعاً خصباً أسعفهم في استكمال بناء شخصيتهم الثقافية، كما رأوا في تلك الأشعار تصويراً لخوالج شخصية صادقة، وبناءً مثاليَّاً لا بدَّ لهم من التأثُّر به؛ لذا بات لزاماً عليهم أن يعيدوا إنتاج تلك الأشعار في قوالب جديدة يبدو فيها الأثر العتاهي جليَّاً واضحاً. من هنا، فقد تفنَّن الشعراء الأندلسيون في انتقاء أساليب التأثُّر بشعر أبي العتاهية، فأخذوا يحوِّرون معاني شعره، ويعارضون قصائده، ويضمِّنون أبياته، ويعيدون بناء صوره.

إنَّ الحديث عن فكرة التأثُّر بشعر أبي العتاهية، تدفعنا إلى طرح التساؤلات الآتية: هل نجحت محالاوت الشعراء الأندلسيين في تحوير أشعار أبي العتاهية، بأن أظهروا نصوصهم الشعرية برؤية جديدة تظهر خصوصيّة الإبداع الفني لديهم؟، وهل كان تضمينهم لأشعار أبي العتاهية تفاعلاً مع تجاربه وإحياءً لطريقته الشعرية؟، وهل استطاع الشعراء الأندلسيون إثبات تفوُّقهم من خلال معارضتهم لشعره؟، ثمَّ، هل شكَّلت صور أبي العتاهية الشعرية رافداً لدى الشعراء الأندلسيين من خلال تأثُّرهم بها؟.

إنَّ الصفحات القليلة القادمة، ستحاول الإجابة عن هذه التساؤلات ومثيلاتها.

1.3 تحوير المعاني[1]:

يُعدُّ التحوير أسلوباً فنيَّاً يدخل به المؤلف على نصٍّ ما مجرياً بعض التغييرات التي تجعله ملائماً لسياق خطابه[2].

وقد تأثَّر الشُّعراء الأندلسيُّون بمعاني أبي العتاهية الزهدية، ووظفوا تلك المعاني توظيفاً يعكس جانباً من ثقافتهم وقدرتهم على نقل تلك المعاني إلى دلالات جديدة، حيث أفادوا من تلك المعاني ما يخدم تجاربهم الشِّعرية، وقد تبيَّن في الفصل السابق بعض ملامح تجديد الشُّعراء الأندلسيِّين في معاني أبي العتاهية، وسيحاول الباحث في هذا الفصل الكشف عن مدى إفادة الشُّعراء الأندلسيِّين من تحوير معاني أبي العتاهية وإخراجها في أُطرٍ جديدة.

يقول أبو العتاهية في الشكوى من الزمان:

إِنَّ الزَمـــــانَ يَغُرُّنـــــي بِأَمانِـــــهِ وَيُـــذيقُني المَكـــروهَ مِـــن حِدْثانِـــهِ
وَأَنـا النَـذيرُ مِـنَ الزَمـانِ لِكُـلِّ مَـن أَمســـى وَأَصـــبَحَ واثِقـــاً بِزَمانِـــهِ[3]

يشير أبو العتاهية إلى أنَّ الزمان لمْ يعطهِ الأمان حتى إذا ما اطمئنَّ إليه فاجأه وأذاقه الحوادث الموجعات، لذا فهو يحذر كل من وثق بزمانه أنَّ الزمان لا أمان له.

---

[1] جاء في لسان العرب: التحوير: التبييض، وأصل التحوير في اللغة من حارَ يحُوْرُ وهو الرجوع، انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمَّد بن مكرم (711هـ) لسان العرب، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت، د.ت، مادة (حور)؛ والتحوير: الترجيع، وحوّره: بيّضه وحوّره ودوّره. انظر: الزبيدي، مرتضى الحسيني، (ت1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الكريم الغرباوي، راجعه عبد الستار أحمد فراج، 1392هـ 1972م، مطبعة حكومة الكويت، ص112؛ وحوَّرتُه فاحْوَرّ: أي بيّضته فابيضَّ، انظر: الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفار عطّار، 1404هـ - 1984م، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، ج2، مادة (حور).

[2] القيسي، جماليات الخطاب الأدبي في النثر العربي القديم، قراءات في الرؤيا والتشكيل، 2012م، وزارة الثقافة الأردنية، ص150.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص335.

ويظهر أنَّ الشاعر يحيى بن حكم الغزال قام باستدعاءٍ واعٍ لبيتي أبي العتاهية وحوّرهما وأعاد إنتاجهما بطريقة فنية حيث قال:

أَلَســتَ تــرى أَنَّ الزَمــانَ طَــواني وَبَــدَّلَ خَلقــي كُلَّــهُ وَبَرانــي

تَحَيَّفَنــي عُضــواً فَعُضــواً فَلَـم يَـدَع سِوى اِسمي صَحيحاً وَحدَهُ وَلِساني[1]

إن الزمان يأخذ من عمره شيئاً فشيئاً، فأعضاؤه تضعف وتشرف على الموت ولا يبقى إلَّا اسمه ولسانه؛ أي ممَّا قاله من شعر وغيره.

إنَّ المعنى الذي تناوله الشاعران هو الشكوى من الزّمان، إذ أعاد الغزال بناء معنى أبي العتاهية بطريقة تدعو للتأمُّل، وهذا يعني أنَّه أفاد من معنى سابق، وكأنّه يريد أن يؤكّد أن نقل المعنى بهذه الصورة، إنَّما هو عملية إبداع لا تتأسس على مجرد القدرة الذاتية للشاعر، بل لا بدَّ من الاستعانة بالتراث الحافل بالتجارب، وهذا يعني أن شاعريّة الشاعر وقدرتها على التصرف في المعاني لا تكسب قيمتها إلّا من خلال علاقتها بالتراث.

لم يكن شعراء الأندلس بعيدين عن معاني أبي العتاهية، فقد تفاعلوا معها وكأنّهم أضافوا إليها من مقوّمات ثقافتهم، ثمَّ أعادوا نسجها من جديد وفق نظريتهم الشعورية، يقول السميسر[2]:

جملــــةُ الــــدُّنيا ذَهــــابُ مِثْــــلَ مــــا قــــالوا ســــرابُ

والــــذي منهــــا مَشــــيدٌ فخــــرابٌ ويبــــابُ

وأرى الــــدَّهر بخــــيلاً أبــــداً فيــــه اضــــطرابُ

---

[1] الغزال، ديوان يحيى بن حكم الغزال، ص112.

[2] هو أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري المعروف بالسميسر، ذكر صاحب المغرب بأنه من أعلام شعراء إلبيرة في مدة ملوك الطوائف، وكثر في شعره الهجاء، وأنحى ابن بسّام عليه باللائمة في بعض شعره ذي الاتجاه المتفلسف وقال: إنَّ السُّميسر يقصر في مطولات الأشعار ويجيد في القصار منها وخصوصاً المزدوجات، وذكر له كتاباً سماه "شفاء الأمراض في أخذ الأعراض". انظر: ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى (610-685 هـ) رايات المبرزين وغايات المتميّزين، تحقيق محمَّد رضوان الداية، 1987، ط1، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ص156، ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص100.

سالبٌ ما هو مُعطٍ فالذي يُعطي عذابُ
وليومِ الحَشْرِ إنعا مٌ سؤالٌ وجَوابُ
وصراطٌ مُستَقيمٌ يَوْمَ لا يُطوى كتابُ
فاتَّقِ اللهَ وجنّب كلَّ ما فيه حسابُ[1]

إنّ أبيات السميسر هذه تذكر القارئ بأبيات أبي العتاهية التي يقول فيها:

أيَّها البَاني لهَدمِ اللّيالي ابنِ ما شئْتَ سَوْفَ تلقَى خَرَابا
لو تَرَى الدّنيا بعَيْنَي بَصِيرٍ إنّما الدُّنيا تُحاكي السّرَابا
أبَتِ الدُّنيا على كلِّ حَيٍّ آخِرَ الأيّامِ إلّا ذَهَابا
غَيْرَ أنَّ الموتَ شيءٌ جليلٌ يَترُكُ الدُّورَ خراباً يبَاباً
ليت شعري على لساني أيَقوى يَوْمَ عَرْضي أن يُردَّ الجوابَا
ليت شعري بيَميني أُعْطَى أمْ شِمالي عند ذاك الكتابا[2]

إنَّ المتمعِّن في هذه الأبيات يلمس تقارباً واضحاً بين أبيات الشاعرين، فهل كانت أشعار أبي العتاهية رافداً أصيلاً من الروافد التي ألهمت السميسر وأغنت تجربته الشِّعرية؟ وهل فتحت أشعار أبي العتاهية أمامه أبواباً جديدة في تمثّل حقيقة الحياة وما بعدها؟ لا شك أنَّ التقارب في تناول هذه المعاني يكشف عن مدى ما استمده الشُّعراء الأندلسيُّون من شعر أبي العتاهية وما استلهموه من معانيه، وجسَّدوه في أشعارهم.

إذ لا يخفى تحوير السميسر في معاني أبي العتاهية، فهو يمعن النظر في حقيقة الدنيا التي شبّهها بالسّراب الذي يخدع الناظر، وكل ما فيها سيؤول إلى خراب، والزمن في هذه الحياة إنّما هو بخيل؛ لأنَّه يأخذ ما يحب، ثم إنَّ الشاعر يمدُّ شعره بتصوراته عن يوم الحشر والحساب والصراط، وهي تصوّرات تكشف عن إيمان حقيقي وثقافة قرآنية واضحة.

إنَّ تمكّن السميسر من صنعة الشعر قد منحته القدرة على الإفادة من أساليب ومعاني الشُّعراء الآخرين، بل وأحيت فيه طموحاً شعرياً يتّسع نحو إظهار ثقافته القرآنية

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، م2، ص889.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبو العتاهية، ص50-51.

التي تعدُّ معياراً ثقافياً يستطيع أن يرفد به سياقه الشِّعري، ويرسم طريقة تفكيره إزاء عملية الإبداع، فكأنَّ المعاني التي تضمنتها أبيات أبي العتاهية جاءت بشكل تفصيلي عند السميسر، إذ قصد الشاعر إلى استحضار مشهد قرآني من خلال توظيف بعض المفردات القرآنية القادرة على جعل الصياغة الشِّعرية صياغة تصويرية تساعد على تداعي المعاني والصورة في مخيلة المتلقي ذي الثقافة القرآنية، وتجعل المدلول الشِّعري أوسع وأغنى من الدلالة المباشرة[1].

فيوم الحشر والصراط المستقيم والحساب كلها مفردات قرآنية تحمل دلالات ومعاني تمكن القارئ الذي له صلة بالأجواء القرآنية أن يستنبط من النص الشِّعري معاني جديدة ربما تكون أبعد من دلالتها الظاهرية، وبهذا يكون السميسر قد حوّر المعنى الوارد في أبيات أبي العتاهية وأخرجه في سياق جديد يشهد له بالقدرة على الإفادة من تجارب الآخرين في إثراء تجربته الشِّعرية والتعبير عنها بأساليب جديدة.

إنَّ الدارس للقصيدة الزهدية الأندلسية يزداد اقتناعاً بالتقارب بينها وبين القصيدة الزهدية العتاهية وإن اختلفت طرق البناء، وعلى الرغم من أن قصائد أبي العتاهية الزهدية قد تركت بصماتها الواضحة في قصائد الأندلسيِّين فإنَّنا نجد تطوّراً واضحاً في المعاني والصور لدى الشُّعراء الأندلسيِّين، أي إنهم انتقلوا إلى مراحل أخرى في التَّقليد من خلال التوظيف الجديد الذي ظهر في ألفاظهم وصورهم[2]، ولنتأمل قول أبي العتاهية:

أحـــاطَ الجديـــدانِ جمعـــاً بِنَـــا فلـــيسَ لَنـــا عنهُمـــا مَهـــربُ
وكُـــلٌّ لَـــهُ مُـــدَّةٌ تنْقضـــي وكـــلٌّ لَـــهُ أثـــرٌ يُكتـــبُ[3]

يشير أبو العتاهية إلى عدم إمكانية الهرب من الموت سواء حان وقته في الليل أم في النهار، لأنَّ كل إنسان له أجل محدود، فإذا ما انقضى هذا الأجل الذي قدّره الله

---

[1] شرّاد، أثر القرآن في الشعر الحديث، ص116.

[2] ابن ثقفان، عبد الله بن علي، المقومات الفنية في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1422هـ/2001م، ص49.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص50.

تعالى بعلمه فإنَّ الموت سينهي حياة هذا الإنسان، وهذا المعنى نجده بأسلوب جديد عند الشاعر الأندلسي ابن الرّيولي[1]، إذ يقول:

أيـــــامُ عمـــــرِك تـــــذهبُ وجميـــــعُ ســـــعيك يُكتـــــبُ

ثـــمَّ الشـــهيدُ عليـــكَ منـــكَ فـــأينَ أيـــنَ المَهـــربُ؟[2]

إنّ عمر الإنسان يذهب ويكتب له سعيه ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: 30، 40][3]، وسوف تشهد عليه أعضاؤه، إذ يستلهم الشاعر الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور: 24][4].

لقد كان الزمن عاملاً مشتركاً شكا منه الشاعران، والزمن هو العدو الأكبر للإنسان كما صوّره التراث الشِّعري، فهو الذي ينقل الإنسان من الحياة إلى الموت[5]، لكن الشاعر الأندلسي نقل المعنى إلى سياق جديد أحاطه بأثر قرآني كشف عن إطار ثقافي عام اكتسبه من ثقافته القرآنيّة، وكشف أيضاً عن قدرته على التفاعل مع شعر أبي العتاهية في المعنى والصدور عنه في الأسلوب وطريقة العرض.

لقد كشف بعض الشعراء الأندلسيين عن ميلِ كثيرٍ من الناس إلى الإقبال على الحياة الدُّنيا والتعلُّق بأسباب اللهو والمجون، ممَّا دفع بعض الشعراء الذين كشفوا أمر

---

[1] هو القاسم بن محمَّد بن يوسف المعروف بالريولي، ولد سنه 388 هـ، وكان شاعراً أديباً صادقاً ورعاً متقللاً بالدنيا عالماً بكتاب الله تعالى، وعالماً بالقراءات السبع والحديث، توفي سنة 451هـ، انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص690.

[2] ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص690.

[3] سورة النجم، الآيات 39، 40.

[4] سورة النور، آية 24.

[5] الرباعي، عبد القادر، جماليات المعنى الشِّعري التشكيل والتأويل، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، 1999م، ص202.

الدُّنيا وزوالها إلى توجيه خطابهم الشعري إلى هذه الفئة من المجتمع الإندلسي، يقول الأعمى التطيلي[1]:

تنافسَ الناسُ في الدنيا وقدْ علموا ... أنْ سوفَ تقْتُلهم لذاتُها بَدَدا
قل للمُحدِّث عن لُقمانَ أو لُبَدٍ ... لم يَتْركِ الدّهرُ لُقماناً ولا لُبَدا
وَللَّذي همَّه البُنيانُ يرفعُهُ ... إنَّ الرَّدى لمْ يُغادرْ في الثّرى أحدا
ما لابنِ آدمَ لا تَفنَى مطامعُهُ ... يَرْجو غداً وعسى ألَّا يعيشَ غدا[2]

إنَّ الناظر في هذه الأبيات يجد فيها تقارباً واضحاً مع أبيات أبي العتاهية التي يقول فيها:

اِيْأس منَ النّاسِ وارْجُ الواحدَ الصّمَدَا ... فإنّهُ هُوَ أعلى مِنَّةً ويَدَا
إن كانَ مَنْ نالَ سلطاناً فسادَ بهِ ... مُسْتَيقِناً أَنَّه يبقى لهُ أبدَا
فقُلْ لهُ: تِهْ! لَقد أُعطيتَ مَنْزلةً ... لم يُعطِها اللهُ في تدبيرِهِ أحَدَا
أوْ لا فويْحَكَ لا تَلعَب بنفسِك إذْ ... لم تدْرِ في اليْومِ ما يقضي عليك غدا[3]

إنَّ المعنى الذي تدور حوله أبيات الشاعرين هو عدم الركون إلى الدنيا وسلطانها وجاهها، إذ مهما بلغ الإنسان من علوٍّ في الدنيا فإنّ ذلك لن يدوم إذ سيكون الموت هو النهاية، وما يدري الإنسان لعلَّ هذه النهاية ستكون غداً أي قريبة جداً.

فكأنَّ التطيلي قدّم المعنى الذي تضمنته أبيات أبي العتاهية بثوب جديد؛ أي إنَّه نجح في إنتاج نص شعري جديد يتسم بخصوصية فنية مع المحافظة على التصاقه بالموروث الشِّعري المتمثل بشعر أبي العتاهية ومحاولة تقليد مسلكه الفني.

---

[1] هو الأديب أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة الأعمى التطيلي، توفي سنة 525هـ، ولم يعمر طويلاً، ترجم له ابن بسام في الذخيرة، ق2، م2، ص728، والفتح في القلائد، ص850، وابن سعيد في المغرب، ص451.

[2] ابن خاقان، قلائد القعيان ومحاسن الأعيان، ص865-866، محسن، عيسى خليل، أمراء الشعر الأندلسي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، 1428هـ/2007م، ص135.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص112.

وقد اختار الشاعران بحر البسيط وهو من البحور التي تخلو من النغمة الموسيقية الغنائية الواضحة؛ لذا كثر استعماله في المدائح الصوفية والنبوية حتى أطلق عليه من باب التنكيت بحر الدراويش[1].

إنّ العقلية المبدعة في الأندلس لم تعانِ من أي~ة حواجز أو قيود أمام أساليب التأثر، إذ وقفت على زهديات أبي العتاهية واحتوت ما فيها من إبداعات[2]، وهذا يدل على أنّ الشاعر الأندلسي قرأ الدواوين المشرقية وربما حفظها ومن ثم انطلق متأثراً بها، فخرج هذا التأثر بواقع بلاده وما فيها من مؤثرات، فتبلورت حينئذٍ القصيدة الأندلسية وأصبحت تعتدّ بذاتها أمام القصيدة المشرقية.

ويطالعنا الشاعر أبو وهب القرطبي وهو من كبار الزهاد في الأندلس، حيث وفد من الشرق زمن بني العباس وحطّ رحاله بقرطبة، ولا يُعرف على وجه التحقيق هل حلّت به حالة الزهد وهو في قرطبة حينما رأى فيها اللهو والإقبال على الدنيا ممَّا لم يرضَ به، أم أنَّه جاء من بغداد زاهداً[3]، إذ يقول:

تَنـــامُ وقَـــدْ أُعِـــدَّ لـــكَ السُّـــهادُ وتُـــــوقِنُ بالرَّحيـــــلِ ولـــــيس زادُ
وتصـبحُ مثـلَ مـا تُمسـي مضـيعاً كأنّـــكَ لســـت تـــدري مـــا المـــرادُ
أتطمـــعُ أن تفـــوزَ غـــداً هنيئـــاً ولـم يـكُ منـك فـي الـدّنيا اجتهـادُ[4]

إنَّ هذه الأبيات تقرب في معناها من قول أبي العتاهية:

المنايـــا تجـــوسُ كـــلَّ الـــبلادِ والمنايـــــا تُبيـــــدُ كُـــــلَّ العِبـــــادِ
أَيُّهـا المزمـعُ الرّحيـلَ عـن الـدُّنيا تـــــزوّدْ لـــــذاكَ مِـــــنْ خيـــــرِ زادِ

---

[1] خليل، إبراهيم، (2007م)، عروض الشعر العربي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ص205.

[2] ابن ثقفان، عبد الله بن علي، المقومات الفنية في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، ص145.

[3] الشعكة، مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، 1983م، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، ص58-59.

[4] المقَّري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص57.

لَتنالَنّـــــكَ الليـــــالي وشـــــيكاً بالمنايـــا، فكُـــنْ علـــى اســـتعدادِ[1]

إنَّ مضمون الأبيات عند الشاعرين يدور حول الاستعداد ليوم الرحيل، وقد أضفى أبو وهب على أبياته لمساتٍ فنية عبّرت عن تجربته الشِّعرية وقدرته على تحوير المعاني بطريقة سلسة، وهذا يكشف عن قدرته على تفهّم معاني أبي العتاهية واجتهاده في الزيادة عليها، إذْ إنّ قدرته على تحويل تلك المعاني وتقديمها في نسيج شعري بنسبٍ معينة ينبئ عن وعيه باستثمار ثقافته وتطويعها بما يلائم غرضه الشِّعري، وقد أشار حازم القرطاجني في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" إلى أنَّ ثقافة الشاعر تعد منطلقاً لاقتباس المعاني في مسلكين يعتمد أحدهما قوة الخيال ودقة الملاحظة، ويعتمد الثاني جملة المعارف التي تهيّأت للمبدع[2]، ولا شك أن أبا وهب يعي خصوصية تجربته الشِّعرية في اختيار المسلك الشِّعري الذي يتوافق مع رغبته وميوله.

لقد تعددت معاني الموت عند الشُّعراء الأندلسيِّين كما تعددت من قبل عند أبي العتاهية، لكن المعنى الذي ظلَّ غالباً على الموت هو أنَّه لا يغفل، لذا بقي هذا المعنى يحرك مشاعر الشُّعراء نحو الاستعداد ليوم الرحيل، يقول أبو عمران موسى بن عمران المارتلي[3]:

إلـــى كـــمْ أقـــولُ ولا أفعـــلُ وكَـــمْ ذا أحُـــوْمُ ولا أنـــزلُ
وأَزْجُـــرُ عينـــي فـــلا تَرْعَـــوِي وأنصَـــحُ نفســـي فـــلا تَقْبَـــلُ
وفـــي كـــلِّ يـــومٍ يُنـــادِي بنـــا مُنـــادي الرَّحيـــلِ: ألا فـــانزِلوا
أمِـــنْ بعـــد ســـبعينَ أرجـــو البقـــا وســـبعٌ أتَـــتْ بَعْـــدَها تَعجـــلُ
كـــأنْ بـــي وشـــيكاً إلـــى مَصْـــرَعِي يُســـاقُ بِنَعْشـــي ولا أُمْهَـــلُ[4]

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص108-109.

[2] القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص38-39.

[3] كان منقطع القرين في الورع والزهد والعبادة والعزلة، له في ذلك آثار معروفة مع الحظ الوافر من الأدب والتقدّم في قرض الشِّعر في الزّهد، وكان ملازماً لمسجده داخل إشبيلية، توفي سنة 604هـ عن اثنتين وثمانين سنة. انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص406.

[4] ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص406-407.

إنَّ هذه المعاني التي تدور في خيال الشاعر الأندلسي تبدو قريبة من معاني أبي العتاهية، إذ يقول:

لا يَـــــذْهَبنّ بـــــكَ الأمَـــــلْ حتـــى تُقَصّـــرَ فـــي العَمَـــلْ
واعْلـــمْ بـــأنَّ المـــوْتَ لَيـــسَ بغافـــلٍ عمَّـــنْ غَفَـــلْ
مـــــا إنْ رأيـــــتُ الوالِـــــدا تِ يَلِـــــدْنَ إلَّا للثّكَـــــلْ
فكـــأنَّ يومَـــكَ قـــد أتـــى يَسْـــعى إلَيْـــكَ علـــى عَجَـــلْ
وكـــأنّني بـــالموتِ أغـــ فَـــلَ مـــا تَـــرَى بـــكَ قـــدْ نَـــزَلْ[1]

فالموت عند المارتلي لا يغفل رغم أنّ الشاعر يؤمل طول العيش وربما يغفل أحياناً ويتناسى الموت، ولكنَّه في النهاية يعلم علم اليقين بأنَّه سيستجيب لمنادي الرحيل وسوف يُحمل على أكتاف الرجال دون مهل، فكأنَّ المارتلي انطلق في أبياته متأثراً بأبيات أبي العتاهية وكأنَّه عمد إلى تحوير المعنى تحويراً طفيفاً ليناسب طبيعة الموقف الشِّعري ويوفّق بين الاستعمال الأول عند أبي العتاهية والاستعمال الثاني عنده[2]، فمن خلال أسلوب التحوير لجأ إلى تحوير طريقة الخطاب من المخاطب إلى المتكلم (أسلوب الالتفات) فقد جاءت طريقة الخطاب الشِّعري عند أبي العتاهية موجهة إلى المخاطب في حين جاءت عند المارتلي موجهة إلى المتكلم.

ويمكن القول إن أخيلة الشُّعراء الأندلسيِّين طوت الموت في عالمها كما الحال عند أبي العتاهية، فأصبحت فكرة الموت تتضمن مواقفهم ومشاعرهم وهمومهم تجاهه[3]، ومعلوم أنَّ الموت احتلَّ في فكر شعراء الزهد مساحة واسعة إذ كانت تجليّاته واضحة في أشعارهم، بل إنَّها تثير المشاعر وتفتح القصيدة الزهدية على معانٍ متعددة.

ومن الشُّعراء الأندلسيِّين الذين تأثروا بمذهب أبي العتاهية الزهدي وتشبهوا به في طريقتهم أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشبوني، الذي قرأ العلم بقرطبة وأخذ عن علمائها وأكثر من حَفِظ الآداب والأشعار، وكان من الأدباء النبلاء والشُّعراء

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص268-269.

[2] القيسي، جماليات الخطاب الأدبي في النثر العربي القديم، ص143.

[3] الرباعي، جماليات المعنى الشِّعري التشكيل والتأويل، ص203.

المحسنين، ومال إلى النسك والتقشف، ونظم في تلك المعاني أشعاراً رائعة وضروباً من الحكمة تناقلها الناس وحفظوها[1]، وفيه يقول ابن بسام: "وكان يعرف عندنا بالطيطل[2]، ممن نظم الدر المفصّل لاسيّما في الزهد، فإنَّ أهل أوانه كانوا يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه"، ثمّ أورد له قصيدة في وصف نملة كان يتأمل في دقة خلقتها بما يشهد على قدرة الله الذي هيأ لها رزقها، حيث يقول: [3]

وذَاتِ كَشْحٍ أهْيَفٍ شَخْتِ ... كأنَّما بُولِغَ في النَّحْتِ
زِنْجيّةٍ تَحْمِلُ أقواتَها ... في مِثْلِ حَدَّي طَرَفِ الجفْتِ
كأنَّما آخرَها قطرةٌ ... صغيرةٌ مِنْ قاطرِ الزّفْتِ
أو نقطةٌ جَامِدَةٌ خَلفَها ... قَدْ سَقطَتْ مِن قَلمِ المُفتي
تَسْري اعتسافاً ولقَدْ تَهْتَدي ... في ظُلْمةِ الليلِ إلى الخرْتِ
تَشْتدُ في الأرض على أرجلٍ ... كشعرة المخدَجِ في النبتِ
تَشْهدُ أنَّ اللهَ خلّاقُها ... رازقُها في ذلكَ السَّمتِ
سبحان من يعلم تسبيحها ... ووزنها من زنةِ البُخْتِ

فالأبيات تكشف عن رغبة الشاعر الاستدلال على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وبديع صنعه في المخلوقات، والمتأمل في الأبيات يلمس أبعاد تأثير القرآن الكريم المباشر على الشاعر الأندلسي، فالشاعر في البيت الأخير يستوحي المعنى من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[4].

([1]) عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ط6، دار الثقافة، بيروت، 1985م، ص133.

([2]) يُقال أنه حفظ شعر عشرين امرأة وكان مشاركاً في الحديث والفقه، واتّخذ لنفسه رابطة في رقعة من جنة على بحيرة شقبان عرفت برابطة الطيطل ولزم بها العبادة إلى أن توفي، انظر ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2، م2، ص797.

([3]) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2، م2، ص797.

([4]) سورة الإسراء، آية 44.

ومن أشعار الطيطل الزهدية التي أوردها ابن بسام في الذخيرة قوله: [1]

يـــا غـــافلاً شَـــأنُهُ الرقَّـــادُ كأنَّمـــا غَيـــرَك المُـــرادُ
والمـوتُ يَرْعَـاكَ كـلَّ حـينٍ فكَيـفَ لـم يَجْفُـكَ المِهـادُ
فهـــــيِّ زاداً وزِدْ مَـــــزاداً فقـد طـوى عُمـرَكَ النفَّـادُ
إذْ سَـفَرُ المـوتِ فيـه شَـحْطٌ والقـربُ منـهُ هُـوَ البعـادُ
مـا حـالُ سَـفْرٍ بغيـرِ زادٍ والأرضُ قفـــرٌ ولا مَـــزادُ
ضـمِّرْ جَـواداً ليـومِ سَـبْقٍ لمثلـــه يُرْفَـــعُ الجَـــوادِ
أَيْـــنَ فـــلانٌ وكـــم فـــلانٍ قد غُيّبوا في الثَّرى فَبَادوا
لا تبـــغِ دُنيـــا فـــإنَّ عنهـــا المـــؤمنُ المتّقـــيُّ يُـــذادُ
فـابنِ لهـا بـالتّقى بروجـاً تـــأمنْ إذا رُوِّعَ العِبَـــاد
واعتبـرِ الأَرضَ كَيْـفَ مُـدّتْ فهـي لهـذا الـورى مِهـادُ
ثُـمَّ السَّـماءَ التـي أظلّـت قَـدْ رُفعـت مـا لهـا عِمـادُ
كمـا بَناهـا يَبْنـي سِـواها كَمَـا بَـدانا كـذا نُعـادُ

ثمَّة قضيّة واضحة نلمسها في شعر الطيطل هي مدى إجادته في تقريب مشهد الموت وربطه بمشهد نهاية الحياة مما يدل على أنّ الزهد كان موضوعاً خصباً لدى الشُّعراء الأندلسيِّين، فأشعاره تنضح بالمعاني الإسلامية والأفكار السامية والمفاهيم الرفيعة التي حرص الإسلام على إشاعتها وبثّها في نفوس المؤمنين، ويؤكِّد هذا كلّه أنّ الثقافة القرآنية التي يمتلكها الشاعر ظهرت جليّة في شعره، فالآيات القرآنية التالية: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾[2]، و﴿للّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[3]، و ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾[4]، نجد الشاعر يستوحي معانيها في الأبيات الثلاثة الأخيرة.

([1]) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2، م2، ص798.

([2]) سورة الانشقاق، آية 3.

([3]) سورة الرعد، آية 2.

([4]) سورة الأنبياء، آية 104.

وقد سلك الطيطل خُطى أبي العتاهية في طريقه الزهدي، فقد ظهرت في الأبيات السابقة مقدرته الشِّعرية على سبك الحقائق في قوالب شعرية جميلة، فهو يذكر أهوال الموت وأهوال يوم القيامة بمعانٍ لطيفة سهلة كما هو الحال في شعر أبي العتاهية في هذه الموضوعات.

ويطالعنا ابن العسَّال[1] (487هـ) زاهد طليطلة المشهور بالكرامات وإجابة الدعوات بقوله:

انْظُر الدُّنيا فإنْ أَبْـ ... ـصَرْتها شيئاً يدُومُ
فاغدُ منها في أمانٍ ... إنْ يُساعدك النّعيمُ
وإذا أَبْصَرتَها منـ ... ـك على كرهٍ تهيمُ
فاسْلُ عَنْها واطَّرِحْها ... وارتحِلْ حيث تقيمُ[2]

إنَّ هذه الأبيات تلتقي في مضمونها مع قول أبي العتاهية:

ومَنْ يأمَنِ الأيامَ جَهْلاً وقدْ رأى ... لهُنَّ صُرُوفاً كيدُهنَّ عظيمُ
فإنَّ مُنى الدُّنيا غُرُورٌ لأهلها ... أبى اللهُ أنْ يبقَى عليه نَعيمُ[3]
ركنتَ إلى الدُّنيا على ما ترى منها ... وأنتَ مُذْ استَقْبَلتها مُدْبرٌ عنْها[4]
إذا كُنتَ بالدُّنيا بصيراً فإنّما ... بلاغُك منها مثلُ زادِ المسافرِ[5]

يشير أبو العتاهية إلى منزلة الدنيا إذ إنَّ الذي يأمن أيامها ويركن إليها وهو يرى تقلباتها وصروفها فإنها تغرُّ به وبكل الذين يعلقون عليها آمالهم لأنَّ حكمة الله تعالى شاءت بزوال نعيمها، لذا يذكّر أبو العتاهية الإنسان البصير الواعي بأنه في هذه

---

[1] هو أبو محمَّد عبد الله العسّال، زاهد طليطلة المشهور بالكرامات وإجابة الدعوات، وكان شاعراً مفلقاً ومتفنناً فصيحاً توفي سنة 487هـ، وقد نيف على الثمانين، انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص21.

[2] المقَّري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص59.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص297-298.

[4] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص336.

[5] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص139.

الحياة على سفر، وإنما يكفيه ما يكفي المسافر من زاد يتزود به في سفره، فلا تكن الدنيا همّه إذ عليه أن يستعدّ لما بعدها.

لقد تقاربت معاني العسال مع معاني أبي العتاهية فكلاهما يحذر الإنسان من أن يغتَّر بالدنيا، وكلاهما يوضح حقيقتها التي طالما عرفها الناس جميعاً، وإذا كان شعر أبي العتاهية الزهدي يدور في دائرة موضوعية محددة، إذْ إنَّ المعاني والأفكار الزهدية التي يعرض لها تتكرر في كل قصائده ومقطوعاته وهي مجموعة تحتشد في ذهنه وتملأ عليه نفسه[1]، إذ ينظر إليها مرة من هذه الزاوية ومرة أخرى من تلك الزاوية وقد يضيف إليها شيئاً جديداً أو يلونها بلون جديد، فإذا كان هذا هو شأن الزهد عند أبي العتاهية، فإنَّ الشُّعراء الأندلسيِّين أدركوا أسرار صنعته من خلال تتبعهم أشعاره التي أصبحت تشكل رافداً مهماً في ثقافتهم إذ أصبح الواحد منهم وفياً للتمثل بمنهجه الشِّعري المتعلق بأشعار الزهد.

لقد تعامل الشُّعراء الأندلسيُّون مع شعر أبي العتاهية تعاملاً واعياً يدل على عمق قراءتهم له، وإعجابهم به، وإفادتهم منه في بعض الجوانب للكشف عن رؤيتهم الفكرية، يقول الأمير عبد الله بن محمد[2]:

يـــا مـــن يراوغـــه الأجَـــلْ حتّـــــام يُلهيـــــكَ الأَمَـــــلْ
حتّـــام لا تخـــش الـــرّدى وكَأنّـــه بـــكَ قَـــدْ نَـــزَلْ
أَغفلـــتَ عـــن طلـــب النجـــا ةِ ولا نجـــاةَ لمـــن غَفَـــلْ

---

[1] خليف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، ص575.

[2] هو الأمير عبد الله بن محمَّد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام، ولي بعد أخيه أبي الحكم المنذر بن محمَّد بن عبد الرحمن في صفر سنة خمس وسبعين ومائتين، وتوفي سنة ثلاثمائة وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، فكانت خلافته خمساً وعشرين سنة، وكان أديباً شاعراً بليغاً بصيراً باللغة والدين وأيام العرب، وفي أيامه اضطرمت نار الفتنة بالأندلس، فتنغّص عليه ملكه، انظر: ابن الأبار، أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، (ت658هـ)، الحلة السِّيراء في تراجم الشُّعراء من أعيان الأندلس والمغرب، من المائة الأولى للهجرة إلى المائة السابعة، تعليق علي إبراهيم محمود، 2008م – 1429هـ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص74.

هَيْهـــــاتَ يُشـــــغلكَ الرّجـــــا ءُ ولا يـــــدومُ لـــــك الشـــــغلْ[1]

إنَّ المتمعن في هذه الأبيات يلمس أنّ الأمير عبد الله يستدعي أبيات أبي العتاهية التي يقول فيها:

لا يَـــــذْهَبنّ بـــــكَ الأمَـــــلْ حتـــــى تُقَصّـــــرَ فـــــي العَمَـــــلْ
إنّـــــي أرى لَـــــكَ أن تكـــــو نَ مـــــن الفَنَـــــاء علـــــى وَجَـــــلْ
واعلَـــــمْ بـــــأنّ المـــــوتَ ليـــــ ـــــسَ بغافـــــلٍ عمَّـــــن غَفَـــــلْ
فكـــــأنَّ يومـــــك قـــــد أتـــــى يســـــعى إليـــــكَ علـــــى عَجَـــــلْ
وكَـــــأنّني بـــــالموتِ أغـــــ ـــــفَـــلَ مـــا تَـــرَى بِـــكَ قَـــدْ نَـــزَلْ[2]

لقد سلك الأمير عبد الله في أبياته السابقة طريقة أبي العتاهية الزهدية، إذ كرَّر ألفاظه ومعانيه مثل (الأمل – الغفلة – نزول الموت) وتشكَّل هذه الألفاظ نسيجاً شعرياً واحداً عند كلا الشاعرين، وهذا التشابه يدفعنا إلى التساؤل: هل كان الأمير عبد الله يعيد كتابة نص أبي العتاهية ويخرجه من جديد؟

لقد استطاع الأمير أن يستوعب ظاهرة توظيف الموروث الثقافي المتمثل بشعر أبي العتاهية، كما استطاع بموهبته الشعرية أن يجمع المعاني المستمدة من شعر أبي العتاهية ويصوغها بلغته وأساليبه الخاصّة وأن يضيف إلى المعاني السابقة مما أملته عليه ظروف بيئته ومحيطه الحضاري[3]، وهذا يعني أن شعر الأمير عبد الله عبّر عن رؤيته تأثراً وتأثيراً، فهو تأثر بشعره بمعاني أبي العتاهية ثم أضفى عليها من رؤيته وتجربته الشخصية باعتباره عملاً فنياً يتميز بأصالة الإبداع، كما أنَّه تفاعل مع الموروث تفاعلاً إيجابياً حتى حقق لعمله الفني أصالته.

لقد كانت عملية استحضار أشعار أبي العتاهية وتحويرها وإخراجها في سياقٍ جديدٍ سمةً بارزة في بعض جوانب الشعر الأندلسي، وقد استطاع الشاعر الأندلسي أن

---

[1] ابن الأبار، الحلة السيراء، ص76.

[2] فيصل، شكري، أبو العتاهية أشعاره وأخباره، 1965م، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ص314-315.

[3] القيسي، جماليات الخطاب الأدبي في النثر العربي القديم قراءات في الرؤيا والتشكيل، ص150.

يُظهر نصّه برؤية جديدة تتفاعل مع شعر أبي العتاهية من جانب وتضيف من خصوصية أدائه من جانب آخر، يقول صالح بن يزيد الشاعر[1]:

الموتُ سرُّ اللهِ في خلقِه ... وحكمةٌ دَلّت على قهره
ما أصعبَ الموتَ وما بعدَه ... لو فكَّرَ الإنسانُ في أمْرِه
أيامُ طاعاتِ الفتى وَحْدَها ... هي التي تُحسَبُ من عمره
لا تُلهِكَ الدّنيا ولذاتُها ... عن نهي مولاكَ ولا أمره
وانظر إلى مَنْ مَلَكَ الأرضَ هل ... صحّ له فيها سِوى قَبْره[2]

لقد تمثَّل صالح الروح العتاهية، وذلك باستيحاء معانيها بما يعزّز انتماءه للثقافة المشرقية ولتراث أمته، فأبياته قريبة في معناها من قول أبي العتاهية:

لَوْ أنَّ ذِكرَ الموتِ لازَمَنا ... لم يَنْتفع بالعيشِ ذاكِره
أينَ الملوكُ وأينَ جُندهمُ ... صاروا مصيراً أنت صائرُه
فسبيلُنا في المَوْتِ مُشتَرَكٌ ... تَتْلو أصاغِرَه أكابرُهُ
من كانَ عندَ اللهِ مُذّخراً ... فسَتَستبينُ غداً ذخائِرُهُ
يا مُؤثِرَ الدُّنْيا وطالِبَها ... والمُستعِدّ لمَنْ يُفاخِرُهُ
نَلْ ما بدا لكَ أن تنالَ من الـ ... دُّنيا فإنَّ الموت آخِرُهُ[3]

إنَّ مضمون أبيات أبي العتاهية تدور حول فكرة الموت والتذكير به، حيث يتساوى أمامه الناس جميعاً، فهو مصير الملوك كما هو مصير الناس جميعاً، ومن يعمل الآن سوف يبين نتاج عمله في يوم الحساب، ثمَّ يوجِّه أبو العتاهية تحذيراً وعظياً

---

[1] هو صالح بن يزيد بن صالح بن شريف الشاعر ولد سنة 601هـ، وهو شاعر مجيد في المدح والغزل وله مشاركة في الحساب والفرائض، كان معدوداً من أهل الخير والدين والفضل، وكان فاضلاً متخلقاً ينحو في شعره إلى التصوّف، توفي سنة 684هـ، انظر: المراكشي أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي، (ت703هـ)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، القسم الثاني 1984م، تحقيق: محمَّد بن شريفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص528.

[2] المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ص529.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، شرح وتقديم عمر فاروق الطباع، ص159-160.

لطالب الدنيا مفاده بأنَّه مهما نال من أغراض الدنيا فإنّ الموت هو المحطة الأخيرة التي لا بدَّ منها.

أمَّا الشاعر صالح بن يزيد، فقد تناول فكرة الموت ذاتها ولكنه لم يستعر التعبير العتاهي بلفظه، وإنما حوَّر فيه تحويراً طفيفاً ليلائم سياق خطابه، فالموت يشكل عند الشاعرين همَّاً كبيراً، وقد اجتهدا في رؤية ما بعده من حقائق، فانعكس ذلك على النمط الشِّعري الذي سلكه كل منهما لبناء نصّه.

وقد قال الخليل بن أحمد: "الشُّعراء أمراء الكلام يصرِّفونه أنّى شاؤوا ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم"[1]، وقد ذهب النقاد إلى أنَّ أهمّ ما يميِّز الشاعر عن غيره هو قدرته التخييلية التي تجعله قادراً على الجمع بين العناصر المتباعدة في علاقات متناسبة تُزيل التباعد وتخلق الانسجام والوحدة"[2].

فقد استدعى صالح الشاعر معاني أبي العتاهية، ثمَّ أعاد بناءها بطريقة جديدة، وكأنَّه يحاول نقل التجربة العتاهية لتجربته الذاتية، ويؤكِّد قدرته على التعامل مع النص التراثي بوعي وإدراك.

لعلَّ هذه الشواهد جاءَت مؤكِّدة لفكرة أثر شعر أبي العتاهية في الخطاب الشِّعري الأندلسي المتمثل بتحوير معانيه، ومدى تناغم أشعار الأندلسيِّين مع مذهبه الزهدي، إذ التفتوا إلى شعره واستمدوا كثيراً من معانيه وأساليبه ثم صاغوها في قوالب جديدة تشهد لهم بالقدرة على تطويع موروثهم الأدبي لخدمة أغراضهم الشِّعرية.

2.3 التضمين:

من الظواهر الفنية التي ظهرت ضمن تأثير شعر أبي العتاهية في أشعار الأندلسيِّين ظاهرة تضمين أشعارهم أبياتاً وأشعاراً من شعر أبي العتاهية لتحسين

---

[1] الحُصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، (ت453هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت– لبنان، 1972م، ج3، ص687.

[2] عصفور، جابر، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، 1978م، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ص436.

عباراتهم وإتمام معانيهم وتأكيدها،وهم في ذلك، إنَّما حذوا حذو الشعراء العرب المشارقة الذين كانوا يستعيرون الأنصاف والأبيات من شعر غيرهم، ويُدخلون إيَّاها في أثناء قصائدهم[1].

وقد عرَّف أبو هلال العسكري التضمين بأنَّه: "استعارتك الأنصاف والأبيات من شعر غيرك وإدخالك إياها في أثناء أبيات قصيدتك"[2]، وعرفه ابن رشيق القيرواني بأنه "قصدك إلى البيت من الشعر أو القسيم فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل"[3].

ويعدّ التضمين بهذا صورةً من صور الاقتباس، إلا أن الاقتباس ينصرف إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، في حين ينصرف التضمين إلى الشعر عموماً، ويأتي التضمين على نوعين: الأول التضمين النصّي للأبيات سواء أكان تضميناً تاماً للبيت أو لجزء منه، وأما النوع الثاني فهو التضمين الإشاري، وهو أن يشير النص الحاضر إلى النص الغائب من دون أن يستحضره مباشرة[4].

وللتضمين فوائد عديدة ووظائف مختلفة التفت إليها النقَّاد والدَّارسون المحدثون منها: توكيد المعنى وتوضيحه، يقول ابن الأثير: "إن قيمة التضمين تكمن في زيادة

---

[1] والتضمين لغة مشتق من الفعل (ضمّن) وفسَّره ابن منظور بقوله: ضمّن الشيء: أودعه إياه كما تودع الوعاء المتاع، والميت القبر. انظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة ضمن؛ والمضمّن من الشعر ما ضمنته بيتاً، وقيل: المضمّن من الشعر: ما لم يتم معنى قوافيه إلا في الذي قبله أو بعده. انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، معجم العين، ترتيب ومراجعة داوود سلوم وآخرون، 2004م، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، ص475.

[2] انظر: العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبدالله بن سهل، (395هـ)، الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، 1984م – 1404هـ، ط2، دار الكتب العلمية، ص47.

[3] االقيرواني، ابن رشيق، (ت440هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمَّد يحيى الدين عبد الحميد، 1981م – 1401هـ، ط5، دار الجبل، بيروت، ج1، ص84.

[4] انظر: الجبوري، جمعة حسين، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين، 2012م – 1433هـ، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، مؤسسة دار الصادق الثقافية، العراق، ص269.

المعنى وتوكيده، فالمعنى قبل التضمين تام، وبالتضمين يزداد توضيحاً وتوكيداً"[1]، وقد عدّه حازم القرطاجني في منهاج البلغاء آلية من آليات إتمام المعنى وتحسين العبارة[2].

وأشار بعضهم إلى وظائف التضمين وأنه يأتي لتوثيق دلالة أو تأكيد موقف أو ترسيخ معنى أو لمؤازرة النص إمّا بتضمين صريح وإمّا بتلميح وتلويح، أو يكون – من وجه آخر– رفضاً لمقولة أو نفياً لمعتقد، شريطة أن يكون التناص التضميني متشيئاً في النسق الأدائي وأن يتضام مع مصاحبات أدائية متداخلة، وليس كتلة لغوية فاصلة بين سابق النص ولاحقه، ولا يكون –كذلك– مجرد لصق نتوءات تسترخي على سطح النّص[3].

من هنا يمكن القول إنَّ التضمين عملية ليست سهلة، إذ لا يتقنها إلا الشاعر المتمرس، وتكمن صعوبتها في مدى قدرة الشاعر وهو يضمّن شعر سواه أن يجعل ذلك البيت المضمّن جزءاً من بنية القصيدة، ومدى تمكنه كذلك من إيصال الدلالة إلى المتلقي الذي يفترض فيه الشاعر إحاطته بما ضمنه من أبيات سواه[4]، وتتجلى قدرة الشاعر الفنيّة عندما يستطيع أن يوظِّف ما استحضره من نصوص أخرى توظيفاً فنياً يثبت امتلاكه صفة الشاعرية.

وليس هذا فحسب بل إنَّ التضمين يكشف عن قدرات الشُّعراء في تمثلهم للنصوص القديمة وقدرتهم على تطويعها لخدمة أغراضهم الفنية.

---

[1] ابن الأثير، محمَّد ضياء الدين (637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، 1962م، ط1، مكتبة النهضة، القاهرة، ج3، ص203.

[2] القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص39.

[3] عيد، رجاء، القول الشِّعري: منظورات معاصرة، (د.ت)، منشاة المعارف، الإسكندرية، ص232.

[4] الياسين، استيحاء التراث في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص143.

1.2.3 التضمين النصّي:

لقد قام الشُّعراء الأندلسيُّون باستنطاق أشعار أبي العتاهية ونقلوا تجربته المماثلة لتجاربهم الذاتية ومعاناتهم الخاصة، فالنصوص في حقيقتها لا تولد من فراغ وإنما تأتي نتيجة الالتحام والتفاعل مع تجارب السابقين[1]، ومن الشواهد الدالّة على ذلك تأثر الشاعر أبي إسحاق الإلبيري بشعر أبي العتاهية إذ راح يضمّن مقطوعة شعرية بأبيات شعرية وردت في إحدى قصائد أبي العتاهية، يقول الإلبيري في مطلع تلك المقطوعة:

كُـلُّ امـرئٍ فيمـا يـدينُ يُـدانُ سبحانَ مَنْ لم يَخْلُ منه مكانُ[2]

فهذا البيت المضمَّن هو مطلع قصيدة لأبي العتاهية يقول فيه:

كُـلُّ امـرئٍ فكمـا يَـدينُ يُـدانُ سبحانَ مَنْ لم يَخْلُ منه مكانُ[3]

فقد ضمَّن شعره بيت أبي العتاهية بنصِّه باستثناء كلمة واحدة وهي كلمة (فكما) إذ أدخل عليها الإلبيري تحويراً طفيفاً فجاءت عنده (فيما)، ولم يكتفِ الإلبيري بهذا التضمين، بل راح يضمِّن أبيات مقطوعته كلها من قصيدة أبي العتاهية، حيث يقول:

يـا عـامرَ الـدُّنيا ليَسْـكُنهَا ومـا هِـي بـالتي يَبْقـى بهـا سُـكَّانُ
تَفْنَـى، وتبقـى الأرضُ بَعْـدَكَ مِثْلَمَـا يَبْقـى المُنـاخُ وتَرْحَـلُ الرُّكبـانُ
أأُسَـرُّ فـي الـدّنيا بكُـلِّ زيـادةٍ وزِيـادَتي فيهـا هـيَ النُّقْصـانُ! [4]

فقد وردت هذه الأبيات في قصيدة أبي العتاهية إذ يقول:

يـا عـامرَ الـدُّنيا ليَسْـكُنهَا ولَيْـ سَـتْ بالـذي يَبْقـى لهـا سُـكَّانُ
تَفْنَـى، وتبقـى الأرضُ بَعْـدَكَ مِثْلَمَـا يَبْقـى المُنـاخُ ويَرْحَـلُ الرُّكبـانُ
أأُسَـرُّ فـي الـدّنيا بكُـلِّ زيـادةٍ وزِيـادَتي فيهـا هـيَ النُّقْصـانُ[5]

---

[1] الياسين، استيحاء التراث في الشعر الأندلسي عصر المرابطين الموحدين، ص145.

[2] الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص140.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، شرح وتقديم عمر فاروق الطباع، ص315.

[4] الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص140-141.

[5] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص316.

إنَّ الذي يقرأ هذه الأبيات يجدها بنصِّها الحرفي عند الإلبيري باستثناء التحوير الذي أجراه في البيت الأول إذ اختار لفظة (وما هي) بدلاً من لفظة (وليست)، وكلتا اللفظتين تفيدان النفي، وتؤدِّيان معنى واحداً، كما غير في الاسم الموصول، فجعل (بالتي) بدلاً من (بالذي) وهي تحويرات جزئية بسيطة لم تحدث تغييراً في المعنى كما بقيت محافظة على الوزن والقافية والروي، أمَّا الأبيات الأخرى في مقطوعة الإلبيري فقد جاءت مضمّنة من قصيدة أبي العتاهية.

ولعلَّ الأبيات تكشف عن رؤية الشاعرين حول حقيقة الموت، وعدم الخلود في الدنيا وأن الإنسان يتناقص عمره في كل يوم، ويعجب كل منهما بموقف الإنسان إذ كيف يُسرّ بمرور كل يوم وإنَّما هو يأخذ من رصيد عمره.

إنَّ تضمين الإلبيري أبيات أبي العتاهية يكشف لنا عن مدى تأثره بمذهبه الزهدي، وقد جاءت الأبيات تعبيراً صادقاً لالتزام الإلبيري بالروح العتاهية، وإذا كان الاتجاه الزهدي قد جاء تعبيراً صادقاً عن مواقف فنية ورؤية حسية ومحاسبة للذات أمام حقيقة الموت بقصد توصيل المعنى الشِّعري والتأثير به في نفوس المتلقين، فإن الإلبيري نجح في إيصال رسالته الزهدية الممزوجة بنفحات الزهد العتاهي إلى المجتمع الأندلسي لتؤدي دورها الفني في الصياغة وفي المعنى الزهدي ثم تؤثر في أوساطه.

ومن شواهد التضمين النصّي قول ابن حمديس متحسراً على أيام الصبا:

ماذا تقولُ ولجُّ البحرِ يَسْحبُه ... إنّ السفينةَ لا تجري على اليَبسِ

قِفْ بالتّفكُرِ يا هذا على زَمَنٍ ... جمِّ الخطوبِ ومَثِّلْ صَرْفه وَقِسِ[1]

فهو يضمّن عجز بيته الأول من قول أبي العتاهية في الزهد:

أرَاكَ لسْتَ بوقّافٍ ولا حَذِرٍ ... كالحاطب الخابطِ الأعوادَ في الغَلَسِ

ترجو النجاةَ ولم تسلُكْ مَسالكهَا ... إنَّ السّفينةَ لَا تجري على اليَبَسِ[2]

---

[1] ابن حمديس، ديوان ابن حمديس، ص285.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص177.

فقد ضمَّن ابن حمديس شطراً من بيت أبي العتاهية الثاني المثل الشِّعري إن "السفينة لا تجري على اليبس" مراعياً متطلبات المعنى وجماليات التعبير الشِّعري، إذ زاد هذا التضمين بيته وضوحاً وإحكاماً في النسيج الشِّعري.

إنَّ التماثل في التجارب بين الشُّعراء يعد من أكثر الأوجه المحققة للتضمين؛ لأنَّ تشابه النصوص في الحقيقة يضفي على العمل الشِّعري عراقة وأصالة، ويمثِّل نوعاً من امتداد الماضي في الحاضر[1]، من هنا نجد ابن الأبّار يفيد من تجربة أبي العتاهية إذ يقول:

لقد أبرقت فيها المنايا وأرعدت ... ومالك عن طول الذّهول مُطرَّدُ
تجرّد من الدُّنيا فإنك إنما ... خَرجْتَ إلى الدُّنيا وأنت مجرَّدُ[2]

فابن الأبار يضمّن بيته الثاني قول أبي العتاهية في الوعظ:

ألا كلُّ مولودٍ فللموتِ يولَدُ ... ولستُ أرى حيّاً لشيءٍ يُخلّدُ
تجرّد من الدُّنيا فإنك إنما ... سقطتَ إلى الدُّنيا وأنت مجرَّدُ[3]

إنّ تضمين ابن الأبار لبيت أبي العتاهية يكشف عن قدرته على استلهام معاني الزهد السابقة للتعبير عن خلجات نفسه ومشاعره من جانب، وتؤكِّد تواصله مع موروثه الشِّعري المتمثل بشعر أبي العتاهية من جانب آخر، إذ إنَّ سعة اطلاعه وتمكنه من قراءة أشعار أبي العتاهية جعلته قادراً على الإفادة منها لتأدية إبداعات جديدة تنسجم مع تصوُّراته.

إنَّ هذه الشواهد، تدلُّ على حضور أشعار أبي العتاهية في أذهان الأندلسيِّين، إذْ لمْ يكن الباحث يهدف إلى استقصاء شواهد الاقتباس النصِّي بقدر ما كان يهدف إلى إثبات تلك الظاهرة من خلال شواهد محدَّدة، والتحليق في فضاءاتها وقيمها الجماليّة؛ لبيان الصِّلة القويّة بين أشعار أبي العتاهية وأشعار الأندلسيِّين.

---

[1] الياسين، استيحاء التراث في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص145.

[2] ابن الأبار، أبو عبد الله محمَّد بن الأبار (658هـ) ديوان ابن الأبار، تعليق عبد السلام الهراس، 1405هـ/1985م، الدار التونسية للنشر.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص106.

2.2.3 التضمين الإشاري:

ربما يكون هذا النوع من أكثر أنواع التضمين في الشعر الأندلسي الذي شهد تأثير شعر أبي العتاهية، فقد هضم الشُّعراء الأندلسيُّون الشعر العتاهي وظهرت مضامينه في نتاجاتهم على شكل أفكار ورؤى ومعانٍ وألفاظ غير ملتزمين بإيراد نص البيت الشِّعري أو القصيدة التي ضمّنوا منها[1]، ولعل هذا ما منح الشُّعراء الأندلسيِّين حرية كبيرة في التعامل مع شعر أبي العتاهية وفي إعادة صياغته من جديد بحلة جديدة وبأفكار ومعانٍ ودلالات تتلاءم مع أغراضهم الشِّعرية وتجاربهم الذاتيّة التي يريدون التعبير عنها.

من هنا فقد كان لحضور شعر أبي العتاهية أثر واضح ودلالات متميزة في أشعار الأندلسيِّين، يقول أبو العتاهية:

خانَـــكَ الطَـــرفُ الطَمـــوحُ ... أَيُّهـــا القَلـــبُ الجَمـــوحُ
لِـــدَواعي الخَيـــرِ وَالشَـــ ... ـــرِ دُنُـــوٌّ وَنُـــزوحُ
أَحسَـــنَ اللَـــهُ بِنـــا ... إِنَّ الخَطايـــا لا تَفـــوحُ
فَـــإِذا المَســـتورُ مِنّـــا ... بَـــينَ ثَوبَيـــهِ فُضـــوحُ[2]

فقد تناول يحيى الغزال هذه المعاني وبثَّ فيها من ذاته حيث يقول:

إِذا أُخبِـرتَ عَـن رَجُـلٍ بَـريءٍ ... مِـنَ الآفـاتِ ظـاهِرُهُ صَـحيحُ
فَسَـلهُم عَنـهُ هَـل هَـوَ آدَمِـيٌّ ... فَـإِن قـالوا: نَعَـم، فَـالقَولُ ريـحُ
وَلَكِـن بَعضُـها أَهـلُ اِسـتِتارٍ ... وَعِنـدَ اللَـهِ أَجمَعُنـا جَـريحُ
وَمِـن إِنعـامِ خالِقَنـا عَلَينـا ... بِـأَنَّ ذُنوبَنـا لَيسَـت تَفـوحُ[3]

توضِّح هذه الأبيات حقيقة البشر، فهم جميعاً يخطئون، إذ ليس الكمال إلَّا لله تعالى وحده، ومن فضله تعالى ورحمته بعباده أنه يستر عيوبهم وذنوبهم، وتُظهر أبيات الغزال قدرته على الإفادة من نصوص أبي العتاهية، وهذه الإفادة لا تقع في إطار

---

[1] الجبوري، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين الموحدين، ص291.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص96.

[3] الغزال، ديوان يحيى بن حكم الغزال، ص59.

قضيّة السرقات الشِّعرية وإنَّما تقع ضمن علاقة الغزال بتراثه وقدرته على محاورته وبنائه من جديد عبر وضعه في سياقٍ جديد، حيث أشار الغزال في البيت الأخير إلى بيت أبي العتاهية الثالث وضمّنه تضميناً إشارياً مستلهماً منه دلالة رحمة الله ولطفه بعباده، إذ منَّ عليهم بستر ذنوبهم ومعاصيهم.

ويشير الشاعر غربيب الطليطلي[1] إلى حتمية الموت ووقوعه لا محالة، مهما اتخذ الإنسان من الحرس والحجاب ومهما شاد من حصون وقباب، حيث يقول:

لعَمْـرك مـا يَـردُّ المـوتَ حصـنٌ إذا انتـاب الملـوكَ ولا حجـابُ[2]

إذ لا يستطيع أحدٌ من الخلق أن يردَّ الموت مهما أوتي من قوة ومهما بلغ من جاه ولو أحيط بالحرس الشداد، إذ لن يدفع عنه ذلك وقوع الموت، فالله تعالى جعله نهاية حتمية لكل مخلوق، ولعلَّ الطليطلي في بيته هذا يستلهم قول أبي العتاهية التالي، ويضمّنه تضميناً إشارياً:

لا تَأمَنِ المَوتَ في طَرفٍ وَلا نَفَسٍ وَإِن تَمَنَّعتَ بِالحُجّابِ وَالحَرَسِ[3]

فالإنسان مهما تحصّن بالحراسة والحماية، فإنَّ ذلك لن يمنع الموت عنه ولن تحميه تلك الحراسة مهما بلغت من الحصانة والشدّة.

وفي بيت آخر يشير الطليطلي إلى أحد أبيات أبي العتاهية ويضمّنه تضميناً إشارياً مستلهماً من دلالة الأجل في حتمية نهاية الإنسان، يقول الطليطلي:

لـه أجـلٌ ولـي أَجـلٌ وكـلٌّ سَـيَبْلغُ حيـث يَبْلُغُـه الكتـابُ[4]

---

[1] من أهل طليطلة، كان شاعراً حكيماً داهية، وكان أهل طليطلة يلجؤون إلى رأيه، وظلت طليطلة ممتنعة على أمراء بني أمية طوال حياة غربيب، وهذا يعني أنَّ غربيباً من أوائل الشُّعراء في الأندلس وأنَّ وفاته كانت في حدود 200هـ، لم يصلنا من شعره إلَّا أبيات قليلة، وقيل إنَّ شعره كان يتداوله الناس لرقته وحكمته، انظر: الضبّي، أحمد بن يحيى (599هـ) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، 1967م، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص442، ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص23.

[2] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص24.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص176.

[4] ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص24.

فهو يضمّن بيته الشِّعري قول أبي العتاهية في تأكيد حتمية الموت عندما يحين الأجل:

وإنّ لكُـــــلّ مُطّلَـــــعٍ لَحَـــــدّاً وإنّ لكُـــــلّ ذي أجَـــــلٍ كِتابَـــــا[1]

فالطليطلي بهذا التضمين الإشاري يفيد من تجربة أبي العتاهية، إذ لا يخفى على القارئ ما في البيتين من أوجه تشابه وملامح التقاء، فكأنَّ الشاعرين يستلهمان المعنى القرآني الماثل في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[2]، وكذلك المعنى القرآني في قوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [3]، ثم يوظفانهما توظيفاً يتناسب وتجربتهما الشِّعرية.

ومن شواهد التضمين الإشاري لشعر أبي العتاهية من قبل الشُّعراء الأندلسيِّين قول الشاعر الغزال في بيان تساوي الخَلْق كلَّهم أمام الموت، إذْ لو أبصروا حقيقته لَمَا عُرِف الغنيّ من الفقير:

وَلا عَرَفــوا العَبيــدَ مِــنَ المَــوالي وَلا عَرَفــوا الإنــاثَ مِــنَ الــذُكورِ[4]

ففي البيت الثالث يشير الغزال إلى مبدأ المساواة بين الناس في القبور، إذ لا فرق بين عبد ومولى ولا بين ذكر وأنثى، ويبدو أن هذا البيت يتداخل مع بيت أبي العتاهية حيث يقول:

وَلَقَــد مَــرَرتُ عَلــى القُبــورِ فَمــا مَيَّــزتُ بَــينَ العَبــدِ وَالمَــولى[5]

فالشاعر عندما مرّ على المقابر لم يميز بين قبور العبيد والأسياد فالكل تحت أطباق الثرى سواء، وبالموت تزول كل اعتبارات التمييز في حياة الناس.

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص176.

[2] سورة الرعد، آية 38.

[3] سورة الأعراف، آية 34.

[4] الغزال، ديوان يحيى بن حكم الغزال، ص86.

[5] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص27.

لقد تأثّر الغزال بهذا المعنى وذهب يضمنه تضميناً إشارياً ويعيد تشكيله وإنتاجه برؤية جديدة ووعي شديد يكشفان عن مدى تداخل النصوص وتفاعلها مع بعضها بعضاً[1].

ويتأثر أبو إسحاق الإلبيري بأبي العتاهية، ويضمّن بيته الآتي تضميناً إشارياً، يقول الإلبيري:

لـــو شُـــغل المـــرءُ بتركيبـــهِ كـــانَ فـــي شُـــغْلٍ شـــاغلِ[2]

فالبيت فيه تضمين إشاري من قول أبي العتاهية:

ولا تلومـــوا فـــي اتّبـــاع الهـــوى فـــإنني فـــي شُغُـــل شاغـــلِ[3]

فأبو العتاهية يطلب من رفاقه ألا يلوموه في اتباع الهوى القاتل لأنَّه يؤكد لهم أنَّه في شغل دائم وهو الاستعداد ليوم الرحيل، وقد استطاع الإلبيري أن يقدِّم هذه الفكرة برؤية جديدة ويعيد إنتاجها بطريقة قريبة من طريقة أبي العتاهية، ذلك أنَّ الإنسان لو أشغل نفسه في تذكر الرحيل عن هذه الحياة لوجدته في شغل دائم مستمر.

لقد ظلَّ الشُّعراء الأندلسيُّون يبحثون عن كل ما من شأنه إغناء معانيهم، فتأثروا بالأشعار المشرقية وأعادوا صياغتها من جديد، فالشاعر ابن عبد ربه، يقول في مكارم الأخلاق:

إنَّ الحيـــــــاةَ مـــــــزارعٌ فـــازرعْ بهـــا مـــا شـــئتَ تحصُـــدْ[4]

فالشاعر يشبه الحياة بالمزرعة، والإنسان يحصد منها ما زرع، فإن زرع خيراً حصد خيراً، وإن زرع شرّاً حصد شرّاً، وهذا المعنى سبق إليه أبو العتاهية إذ يقول:

مـــا يُنـــالُ الخيـــرُ بالشـــر ولا يَحصـــدُ الـــزّارع إلَّا مـــا زَرَعْ[5]

---

[1] الياسين، استيحاء التراث في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص125.

[2] الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيدي، ص67.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص292.

[4] ابن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربه، ص73.

[5] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص197.

فقد استطاع ابن عبد ربه أن يضمّن بيته تضميناً إشارياً يتفق مع رؤيته الفنية، ويؤكد قدرته على تأدية إبداعات جديدة تنسجم مع تصوّره ونظرته للحياة، فالمعنى الذي تضمّنه البيتان واحد، ولكنه جاء عند ابن عبد ربه بصيغة الأمر الذي يفيد الطلب مع جوابه، في حين جاء عند أبي العتاهية بطريقة الاستثناء المفرّغ[1].

لعلَّ هذه الشواهد كافية لبيان أهمية التضمين الإشاري لشعر أبي العتاهية من لدن الشُّعراء الأندلسيِّين، واعتمادهم عليه كواحدٍ من المرتكزات التي ينطلقون منها للتعبير عن تجاربهم.

إنَّ الذي نريده من هذه الشواهد هو معرفة مدى تأثر الشُّعراء الأندلسيِّين بشعر أبي العتاهية واجتهادهم في الإفادة من شعره، ولم يكن هدفنا أن نمضي بعيداً في ترصُّد جميع شواهد التأثّر والإحاطة بها من كل جانب، إنّما أردنا تسليط الضوء على بعضها لنتعرف من خلالها على مدى تفاعل الشُّعراء الأندلسيِّين مع أشعار أبي العتاهية واستلهامهم لمعاني شعره وقدرتهم على ابتكار أساليب جديدة تشهد لهم بالشاعرية والقدرة على كساء المعاني ألفاظاً تليق بها.

3.3 المعارضات:

المعارضة في اللغة: المقابلة، وعارضت كتابي بكتابه أي قابلته، وفلان يعارضني أي يباريني، وعارض في السير: سار حياله وحاذاه، وعارضته بمثل ما صنع أي أتيت إليه بمثل ما أتى، وفعلت مثل ما فعل، ويقال: عارض فلان فلاناً إذا أخذ في طريق وأخذ في طريق آخر فالتقيا[2].

أمَّا المعارضة في الاصطلاح فهي أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما من أي بحر وقافية، فيأتي شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة بجانبها الفني وصياغتها

---

[1] أحد أحكام الاستثناء بإلا، حيث يكون المستثنى منه ليس مذكوراً، وفيه يعرب ما بعد إلا حسب موقعه من الإعراب وكأنَّ إلّا غير موجودة وهذا لا يكون إلا في النفي، لمزيد من الإطّلاع انظر: مغالسة، محمود حسني، النحو الشافي، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1422هـ/ 2001م، ص439.

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادة (عرض).

الممتازة، فيقول قصيدة من بحر الأولى وقافيتها وفي موضوعها، أو مع انحراف عنه يسير أو كثير، حريصاً على أن يتعلق بالأول في درجته الفنية أو يفوقه فيها دون أن يعرض لهجائه أو سبّه، ودون أن يكون فخره صريحاً علانية، فيأتي بمعانٍ أو صورٍ بإزاء الأولى تبلغها في الجمال الفني، أو تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل أو جمال التمثيل أو فتح آفاق جديدة في باب المعارضة[1].

من خلال استعراض المعنيين اللغوي والاصطلاحي نرى اتفاقاً على مفهوم اشتراك أمرين في فعل واحد يؤدي الطريقة ذاتها وعلى النمط نفسه فيحدث التلاقي المعبر عن انبهار الثاني بالأول[2].

من هنا يمكن أن نعدّ المعارضة نوعاً من التعبير عن الإعجاب وإثبات القدرات الإبداعية التي تميز شخصية صاحبها الأدبية وهي في الوقت نفسه مظهر من مظاهر استحضار الماضي والتواصل معه، ولا يشترط المعاصرة في المعارضات، فقد يعارض شاعر معاصر شاعراً معاصراً له، وقد تكون المعارضات لأزمانٍ بعيدة الأمد تفصل بينها قرون طويلة[3].

ويقارن النقاد بين المعارضة التامة وهي التي تتفق في الوزن والقافية وحركة الروي والموضوع، والمعارضة الناقصة التي تخلو من أحد هذه الأركان[4].

ويرى بعضهم أنَّ المعارضة نصّ متداخل مع نص سابق له إذ إنَّ النّص ليس ذاتاً مستقلة أو مادة موحّدة ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى[5].

---

[1] الشايب، أحمد، تاريخ النقائض في الشعر العربي، ط3، دار النهضة المصرية، 1998م، ص7.

[2] الجمل، إيمان، المعارضات في الشعر الأندلسي، 2007م، ط1، دار الوفاء للطباعة، الاسكندرية، ص49.

[3] نوفل، محمَّد محمود، تاريخ المعارضات في الشعر العربي، ط1، دار الفرقان، عمان- الأردن، مؤسسة الرسالة، 1403هـ/1983م، ص15.

[4] الجبوري، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين الموحدين، ص294.

[5] الغذامي، عبد الله، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، ط1، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، 1405هـ/1985م، ص321.

والمعارضة في حقيقتها تأليف جديد للكلام يضيف معاني جديدة إلى الموضوع المطروق، ويفتح فيه منافذ توسع آفاق معانيه وتنحو بمبانيه منحى الجدة والطرافة.

وقد دعم القرآن الكريم معنى المعارضة ولكن في غير مادة (عرض)، والمادة التي تردد هذا المفهوم هي عبارة الإتيان بالمثل[1]، إذْ إنَّ الآيات القرآنية الكريمة التي تعبّر عن هذا المعنى كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾[2]، ومنها قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [3].

إنَّ المعارضات الشِّعرية تكشف عن موقف الشُّعراء من تراثهم الأدبي، إذ يمكن للشاعر أن يأخذ من التراث من منطلق التناص معه حيث يستطيع من خلاله إذابة مضامين الموروث في بوتقة جديدة تصدر باسمه وباسم عصره، لذا تظل الصور التراثية ذات قيمة كبيرة من خلال مرورها في ذاكرة الشاعر[4]، وقد شكلت هذه المعارضات ظاهرة فنية بارزة في الشعر الأندلسي، والذي يعنينا في هذا المقام هو معارضة الشُّعراء الأندلسيِّين لأبي العتاهية، إذ راح بعضهم يعارضون قصائده وينسجون على غرارها محاولين إظهار مقدرتهم الشِّعرية وإثبات أصالة انتمائهم لتراثهم الأدبي.

1.3.3 المعارضات التامة:

أول ما يطالعنا من تلك المعارضات قصيدة الزبيدي التي يقول فيها:

لقـــد فـــاز الموفـــقُ للصَّـــوابِ وعاتـــبَ نفسَـــهُ قبـــلَ العتـــابِ

ومـــن شُـــغلِ الفـــؤادِ بحـــبّ مـــولى يُجـــازي بالجزيـــل مـــن الثّـــوابِ

---

[1] ريدان، سليم، ظاهرة التماثل والتمييز في الأدب الأندلسي من القرن الرابع إلى السادس هجرياً، 2001م، ط1، جامعة منوبة، منوبة، تونس، ص112-119.

[2] سورة الطور، آية 34.

[3] سورة الأنفال، آية 31.

[4] التطاوي، عبد الله، المعارضات الشِّعرية أنماط وتجارب، ط1، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص84.

فـــذاك يَنـــالُ عِـــزّاً لا كِعـــزٍّ مـن الـدُّنيا يصـيرُ إلـى ذَهـابِ
تفكّـرْ فـي الممـاتِ فعَـنْ قريـبٍ يُنـادى بالرَّحيـلِ إلـى الحسـابِ
وقـدّم مـا تُرجّـي النفـعَ منـه لـدارِ الخُلـدِ واعمـل بالكتـابِ
ولا تغتـــرّ بالـــدنيا فعمّـــا قريـبٍ سـوف تُـؤذنُ بـالخرابِ[1]

إنَّ المتمعن في هذه الأبيات يلمح فيها معارضة الزبيدي لأبي العتاهية في قصيدته التي يقول فيها:

لِـدُوا للمـوتِ وابنُـوا لِلخَـرابِ فكُلّكُـمُ يَصِـيرُ إلـى تَبـابِ
لمـنْ نبنِـي ونحـنُ إلـى تـرابٍ نصِـيرُ كمَـا خُلِقْنَـا مـنْ تـرابِ
ألا يـا مَـوْتُ! لـم أرَ منـكَ بُـدّاً، أتيـتَ ومـا تحِيـفُ ومـا تُحَـابِي
كأنّـكَ قـد هَجَمـتَ علـى مَشـيبي، كَمـا هَجَـمَ المَشـيبُ علـى شَـبابي
وإنَّـكِ يـا زمـانُ لـذُو صـروفٍ وإنَّـكَ يـا زمـانُ لـذُو انقـلابِ
وهـذا الخلـقُ منْـكَ علـى وفـاةٍ وأرْجلُهُـمْ جميعـاً فـي الرِّكـابِ
وموعِـدُ كـلِّ ذِي عمـلٍ وسـعيٍ بمَـا أسـدَى ، غـداً دارُ الثّـوَابِ
ومَهمـا دُمـتُ فـي الـدّنْيا حَريصـاً، فـإني لا أوفّـقُ للصَّـوابِ
سأسـألُ عـنْ أمـورٍ كُنْـتُ فِيهَـا فَمـا عـذرِي هُنَـاكَ وَمَـا جـوَابِي[2]

لقد اتَّفقت قصيدة الزبيدي مع قصيدة أبي العتاهية في الوزن والقافية وحركة حرف الروي والموضوع، فجاءت القصيدتان على بحر الوافر كما اتفقتا في الموضوع وهو الحديث عن رحلة الموت وما بعدها، وضرورة الاستعداد لتلك الرحلة، ونلمس في بعض أجزاء قصيدة الزبيدي تضميناً إشارياً ظهر في صدر بيت الزبيدي الأول، إذ تداخل مع عجز البيت قبل الأخير في قصيدة أبي العتاهية، فكأنَّ القصيدتين تقاسمتا إحساساً واحداً هو المصير الذي ينتظر الإنسان بعد الموت، فالإنسان كما خلق من تراب سيصير إلى تراب، فالتراب هو البداية والنهاية ثمَّ يكون البعث والحساب.

---

[1] الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد محمَّد قميحة، 1403هـ/1983م، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص82.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص46.

إنَّ معارضة الزبيدي لأبي العتاهية إنَّما تمثِّل امتداد الماضي في الحاضر، وتحقق نوعاً من اتصال الشعر الأندلسي بالشعر العباسي، وتضفي على الشعر صفة الديمومة والتجدد وهي استعادة واستيحاء لجزء من التراث الشِّعري بهدف الحفاظ عليه وعلى مقوماته، والاعتماد عليه لتكوين بناء شعري جديد متميز في شكله ومضمونه[1].

وقد أظهرت القصيدتان مدى طواعية فن الزهد للتعبير عن المواقف الإنسانية وما يكتنف مشاعرها تجاه قضيّة الموت، واستطاعت أن تعبِّرا تعبيراً شافياً عن مدى حاجة الإنسان في رحلة الحياة إلى الاستعداد ليوم الرحيل.

لقد استطاعت أشعار أبي العتاهية بكل سماتها أن تشق طريقها إلى أسماع الأندلسيِّين، فمات أبو العتاهية وبقيت أشعاره، وكأنّ اللغة هي التي تتكلم وليس المؤلف على حد تعبير رولان بارت رائد النقد الحديث الذي ذهب إلى أن المؤلف لم يعد هو الصوت الذي خلف العمل أو المالك للغة أو مصدر الإنتاج لأن وحدة النص لا تتبع من أصله ومصدره ولكنها تأتي من مصيره ومستقبله[2]، لذا يعلن بارت إن ولادة القارئ لا بد أن تكون على حساب موت المؤلف، فاللغة –كما ذكرنا – هي التي تتكلم وليس المؤلف، فحذف المؤلف لمصلحة الكتابة وأعطي القارئ مكان المؤلف[3].

وإذا كانت نظرية النقد الحديث تذهب إلى أنَّ كل نص إبداعي إنما هو مزيج من تراكمات سابقة[4]، فإنَّ أشعار أبي العتاهية كانت في طليعة تلك التراكمات بالنسبة للشعراء الأندلسيِّين، وليس أدل على ذلك من صور التأثر التي لمسناها لأولئك الشُّعراء، إذ لم يكن لهذا التأثر أن يصل لحد الإعجاب والمعارضة لولا المنزلة الشِّعرية التي بلغتها قصائد أبي العتاهية في خواطر الأندلسيِّين.

وإذا كانت المعارضة في النقد الحديث تندرج في إطار مفهوم التناص الذي يعد بمثابة الهواء والماء والزمان والمكان للإنسان إذ لا حياة له من دونهما ولا عيشة له

---

[1] الياسين، استيحاء التراث في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص105.

[2] الغذامي، خطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، ص294.

[3] قصّاب، وليد، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، 1428هـ-2007م، ط1، دار الفكر، دمشق، ص225.

[4] قصّاب، مناهج النقد الحديث رؤية إسلامية، ص224.

خارجهما[1]، فإن الشاعر الأندلسي استطاع أن يضيف إلى معاني أبي العتاهية مما أملته عليه ظروف بيئته ومحيطه الحضاري، وأن يجمع بين تلك المعاني المستمدة من التراث العربي المشرقي ورؤيته الذاتية للأمور وأن يصوغها بلغته وصوره وأساليبه الخاصة[2].

إنَّ عاطفة الإعجاب والتحدي دفعت الزبيدي إلى معارضة أبي العتاهية في تلك القصيدة بعد أن اطمأنّ إلى منافسته والإتيان بمثل قصيدته، وثمة أمر آخر يمكن طرحه وهو تشابه المواقف التي تحيط بالشاعرين إذ استطاع الزبيدي أن يترجم ذاك الإعجاب بتلك القصيدة متعقباً أثر أبي العتاهية شكلاً ومضموناً، حيث تبين أن أصداء التأثر تراءت في تلك القصيدة.

ولم تقف معارضات الأندلسيِّين لأبي العتاهية عند غرض الزهد فحسب، وإنّما شملت غرض المديح، ففي مواكبة الشعر للمقامات الكبرى في المواسم والأعياد أنشد الشاعر طاهر بن محمد المعروف بالمهنّد[3] قصيدة مدح فيها الخليفة الحكم المستنصر في يوم عيد الفطر سنة 363هـ، قال فيها:

تــولّى الخلافــة فــي عصْــرِها ... فأَحسَــــنَ تقــــواه إكمالَهــــا
وكانــــت ديانتُــــه زينَهــــا ... وأيامُــــه الزّهــــرُ أشــــكالَها
فلــــو رفعــــت خطــــةٌ فوقهــــا ... لمــــا كــــانَ يَصْــــلحُ إلّا لهــــا
ومــا صــفةٌ حسـنتْ فــي الهُـدى ... مِــــنَ الــــذّكر إلَّا وقــــد نالهــــا

---

[1] مفتاح، محمَّد، تحليل الخطاب الشِّعري استراتيجية التناص، 1986م، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص121.

[2] القيسي، جماليات الخطاب الأدبي في النثر العربي القديم، ص152.

[3] هو طاهر بن محمَّد البغدادي المعروف بالمهند، هاجر إلى قرطبة من بغداد فوصلها بعد دخول القالي لها بحوالي عشر سنين، أي حوالي 340هـ، وكان عمره يومئذٍ يناهز الخامسة والعشرين، وقد انقطع لمدح المستنصر وتقدم عنده حتى سمّي شيخ الشُّعراء وكسب كثيراً من المال، غير أنه تزهد في آخر عمره وأنشأ شعراً ورسائل في معاني الزهد، توفي سنة 390هـ، انظر: الحميدي، أبو عبدالله محمَّد بن أبي نصر فتوح، (ت488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ص229.

فهنّـــــــــأه الله أعيـــــــــادَه وبلّغـــــــــه الله أمثالهـــــــــا[1]

ففي هذه القصيدة نلمح معارضة الشاعر المهنّد لأبي العتاهية في قصيدة أنشدها في حضرة الخليفة المهدي مهنئاً له بالخلافة حيث يقول:

أَتَتـــــهُ الخِلافَـــــةُ مُنقـــــادَةً إِلَيـــــهِ تُجَـــــرِّرُ أَذيالَهـــــا
وَلَـــمْ تَـــكُ تَصـــلُحُ إِلا لَـــهُ وَلَـــم يَـــكُ يَصـــلُحُ إِلا لَهـــا
وَلَـــو رامَهـــا أَحَـــدٌ غَيـــرَهُ لَزُلزِلَـــــتِ الأَرضُ زِلزالَهـــــا
وَلَـــو لَـــم تُطِعـــهُ بَنـــاتُ القُلـــوبِ لَمـــا قَبِـــلَ اللَـــهُ أَعمالَهـــا
وَإِنَّ الخَليفَـــةَ مِـــن بُغْـــضِ "لا" إِلَيـــهِ لَيُـــبغِضُ مَـــن قالَهـــا [2]

لقد اتفقت القصيدتان في الوزن والقافية وحركة حرف الروي والموضوع، وإذا كان أبو العتاهية مادحاً ومهنئاً الخليفة العباسي بمناسبة توليه الخلافة فإنّ الشاعر المهنّد كان أيضاً مادحاً ومهنئاً الخليفة بمناسبة يوم عيد الفطر، وتكشف هذه المعارضة عن إعجاب الشاعر الأندلسي بموروثه الأدبي المشرقي المتمثل بشعر أبي العتاهية فضلاً عن محاولة التقرب منه ومحاكاته لإثبات مقدرته الشِّعرية.

إنَّ التفاعل النصّي بدا واضحاً بين القصيدتين، فالإنتاج الشِّعري عند الشاعر المهنّد إنما يمثل استعادة قصيدة أبي العتاهية في مضمونها وتراكيبها وصورها، وكأنَّ هذا الإنتاج الشِّعري يعد تحويراً لما سبقه، وقد استطاع الشاعر الأندلسي أن يستوعب الجهد السابق (شعر أبي العتاهية) ثم يبدع ويجد شخصيته الشِّعرية المتألقة، فهو إذ يترسم خطى أبي العتاهية إنما يعبر عن إعجابه بالنتاج العتاهي، وتواصله مع التراث المشرقي وإعادة تشكيله برؤية جديدة.

ومن ملامح التأثّر بالشعر العتاهي ومعارضته قول الشاعر محمد عبد الله بن صارة الشنتريني[3]:

---

[1] الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ص229.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص284.

[3] هو أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن صارة البكري الشنتريني، ناثر وشاعر مفلق، سكن إشبيلية واحترف فيها الوراقة، وأكثر من التطواف في بلاد الأندلس، وامتدح الولاة والرؤساء وعرف بجودة

يا مَنْ يُصيخُ إلى دَاعي السُّقاة وقَدْ ... نـادى بِـهِ الناعيـان: الشَّـيبُ والكِبَـرُ
إنْ كنتَ لا تسمعُ الذكرى ففيمَ ثَوى ... في راسِكَ الواعيان: السَّمْعُ والبَصَرُ
ليسَ الأَصمُّ ولا الأعمَى سِوَى رجُلٍ ... لـم يَهْـدِهِ الهاديـان، العـينُ والأثَـرُ
لا الدَّهرُ يَبْقى ولا الدُّنيا ولا الفَلَكُ الـ ... أعلـى ولا النّيـران: الشـمسُ والقمـرُ
ليــرحَلَنَّ عــن الــدُّنيا وإنْ كَرِهــا ... فِراقَها الثَّاويـان: البَـدوُ والحَضـرُ [1]

يبدو أنَّ غنى مخزون ابن صارة الشنتريني من الشعر الزهدي أسعفه في التعبير عما يجول في خاطره وكأنه في هذه القصيدة يستلهم قصيدة أبي العتاهية التالية ويمضي في معارضتها:

لا يَـأمَنُ الـدَهرَ إلّا الخـائِنُ البَطِـرُ ... مَـن لَـيسَ يَعقِلُ مـا يَـأتي وَمـا يَـذَرُ
لا يَجهَلُ الرُّشدَ مَن خافَ الإِلَـهَ وَمَن ... أَمســى وَهِمَّتُــهُ فــي دينِــهِ الفِكَــرُ
فيمـا مَضـى فِكـرَةٌ فيهـا لِصـاحِبِها ... إِن كـانَ ذا بَصَـرٍ بِـالرَأيِ مُعتَبَـرُ
أَيــنَ القُــرونُ وَأَيــنَ المُبتَنــونَ لَنــا ... هَذي المَدائِنَ فيها الماءُ وَالشَجَرُ [2]

لقد تناولت القصيدتان موضوع التذكير بالموت والرحيل عن هذه الحياة، وجاءت على بحر البسيط، واتفقتا في القافية وحركة حرف الروي، فاكتملت بذلك أركان المعارضة التامة.

وإذا ما تفحّصنا المعاني التي تضمنتها الأبيات فإنها تظهر مدى طواعية فن الزهد للتعبير عمّا يجول في خواطر الشُّعراء، وتكشف كذلك إلى أي مدى كان موضوع الزهد قادراً على حمل المضامين الشِّعرية والتعبير عنها تعبيراً جميلاً قادراً على التأثير في الآخرين.

شعره، وكان حسن الخط، قائماً على جمهرة من اللغة والنحو، توفي سنة 517هـ، انظر: ترجمة ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2، م2، ص834، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص419.

[1] ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص837-838.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص142.

إنَّ هذه الشواهد إنَّما تجسِّد رؤية الشاعر الأندلسي العميقة، وتفحص بتأمُّلٍ التجربة العتاهية، وتُثبت المنزلة السامية التي بلغتها أشعار أبي العتاهية في نظر الأندلسيِّين.

2.3.3 المعارضات الناقصة:

وثمة نوع آخر من المعارضات، وهي المعارضات الناقصة التي يُخل الشاعر فيها بركن أو أكثر من أركان المعارضات التامة (الوزن – القافية – حركة حرف الروي– وموضوع القصيدة).

إنَّ الذي يمضي في استقراء النصوص الشِّعرية الأندلسية يستطيع أن يتبين إلى أي مدى برزت أصداء أشعار المحدثين العباسيين في شعرهم، ولم يقف تأثر الشُّعراء الأندلسيِّين بالرافد الشِّعري المشرقي المحدث عند شاعر بعينه بل استوحوا كثيراً من منظوم أولئك الشُّعراء[1].

وكان أبو العتاهية– كما سبق– واحداً من هؤلاء الشُّعراء الذين شقت أشعارهم طريقها إلى أدبهم فأفادوا منها ما يثري أفكارهم ويعمقها.

ومن شواهد هذا النوع من المعارضات تلك المقطوعة التي نظمها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الغازي[2]:

الحَمْـــــدُ للهِ ثُـــــمَّ الحمْـــــدُ للهِ كَمْ ذَا عن المَوْتِ مِنْ سَاهٍ ومِنْ لاهِ

يَا ذَا الَّذي هُوَ فـي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ طـــوبَى لعبـــدٍ مُنيـــبِ القَلْـــبِ أوَّاهِ

---

[1] لمزيد من الاطلاع حول معارضة الأندلسيِّين للشعراء المشارقة انظر: الجمل، إيمان، المعارضات في الشعر الأندلسي، ص291–474، الجبوري، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين الموحدين، ص294–315.

[2] هو أبو عبد الرحمن محمَّد بن عبد الله بن الغازي، رحل إلى المشرق ولقي جماعة من أصحاب الحديث وجلب إلى الأندلس علماً كثيراً من الشعر والعربية والأخبار، وعنه روى المشايخ الأشعار المشروحات كلها ثم خرج من الأندلس يريد الحج فتوفي بطنجة سنة 296هـ. انظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص267.

مـاذَا يُعـايِنُ ذُو العَيْنَـين مـن عَجَـبٍ عِنْـدَ الخُـرُوج مـن الـدُّنْيَا إلـى اللهِ[1]

حيث عارض فيها قصيدة أبي العتاهية التي يقول في مطلعها:

الــدَهرُ ذو دُوَلٍ وَالمَــوتُ ذو عِلَــلٍ وَالمَــرءُ ذو أَمَــلٍ وَالنــاسُ أَشــباهُ

وفيها يقول:

طــوبى لِعَبــدٍ لِمَــولاهُ إِنابَتُــهُ قَـد فـازَ عَبـدٌ مُنيـبُ القَلـبِ أَوّاهُ

يــا بــائِعَ الــدينِ بِالــدُنيا وَباطِلِهــا تَرضــى بِـدينِكَ شَـيئاً لَـيسَ يَسـواهُ

حَتّـى مَتـى أَنـتَ فـي لَهـوٍ وَفـي لَعِـبٍ وَالمَـوتُ نَحـوَكَ يَهـوي فـاغِراً فـاهُ[2]

لقد استمدَّ الشاعر الأندلسي محمد بن الغازي معانيه وألفاظه في تلك المعارضة من شعر أبي العتاهية، حيث نلمس في المعارضة تضميناً إشارياً واضحاً في البيت الثاني من أبيات الغازي مما جعل معارضته تتداخل تماماً مع قصيدة أبي العتاهية، فقد شمل ذاك التضمين عجز البيت الثاني وصدر البيت الأخير من شعر أبي العتاهية.

فالشاعر الأندلسي يسلك طريق أبي العتاهية من الفكرة ذاتها، فقد نظر إلى الموت على أنَّه النهاية التي لا مفر منها، ورغم هذا فالناس في لهوهم وغيّهم ساهون، وقد اختار أبو العتاهية ألفاظاً لها قدرة فائقة على إثارة المشاعر الإنسانية تجاه قضيّة الموت، فاستطاعت تلك الألفاظ إحداث هزة عاطفية لدى المتلقي لا سيما وأن الموت حقيقة واقعة تهابها النُّفوس.

إنّ هذه المعارضة التي نلمس فيها رؤية الشاعر الأندلسي للموت والحياة تدل على أنَّ الشاعر الأندلسي نظر إلى الشعر المشرقي المتمثل بشعر أبي العتاهية نظرة إعجاب وإكبار، واتخذه مادة استيحاء غدت ملمحاً بارزاً من الملامح الفنية للقصيدة الأندلسية.

وإذا سمعنا قول ابن عبد ربه:

أَتْلهــو بــين باطِيَــةٍ وزيــرِ وأَنــت مــن الهــلاك علــى شَـفِير

فيــا مَــن غَــرّهُ أمــلٌ طَوِيــلٌ يُؤَدِّيــه إلــى أجــلٍ قَصِــير

---

[1] الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص267.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص352.

أتَفْـــرَحُ والمَنِيِّـــةُ كُـــلَّ يـــومٍ تُريـكَ مكـانَ قبـرِكَ فـي القبـور؟
هـــي الـــدّنيا فـــإنْ سَـــرتكَ يومـــاً فـــإنَّ الحُـــزْنَ عاقبـــةُ الغُـــرورِ
سَتسْـلَبُ كـلَّ مـا جَمعْـت منهـا كَعَارِيـــةٍ تُـــرَدُّ إلـــى المُعِيـــر
وتَعْتَـــاضُ اليَقـــينِ مـــن التَّظَنِّـــي وَدَارَ الحـــق مـــن دار الغُـــرور[1]

فإنَّنا نلمس فيها معارضة لقصيدة أبي العتاهية إذ يقول:

لِأَمـــرٍ مـــا خُلِقـــتَ فَمـــا الغُـــرورُ لِأَمـــرٍ مـــا تَحَـــثُّ بِـــكَ الشُـــهورُ
أَلَســـتَ تَـــرى الخُطـــوبَ لَهـــا رَواحٌ عَلَيـــكَ بِصَـــرفِها وَلَهـــا بُكـــورُ
أَتَـــدري مـــا يَنوبُـــكَ فـــي اللَيـــالي وَمَركَبُـــكَ الجَمـــوحُ هُـــوَ العَثـــورُ
كَأَنَّـــكَ لا تَـــرى فـــي كُـــلِّ وَجـــهٍ رَحـــى الحِـــدْثانِ دائِـــرَةً تَـــدورُ
أَلا تَـــأتي القُبـــورَ صَـــباحَ يَـــومٍ فَتَســـمَعَ مـــا تُخَبِّـــرُكَ القُبـــورُ؟
أُعيـــذُكَ أَن تُسَـــرَّ بِعَـــيشِ دارٍ قَلـــيلاً مـــا يَـــدومُ لهـــا سُـــرورُ
أَلَـــم تَـــرَ أَنَّمـــا الـــدُّنيا حُطـــامٌ وَأَنَّ جَميـــعَ مـــا فيهـــا غُـــرورُ؟[2]

ثمَّة قواسم مشتركة بين القصيدتين إذ جاءتا على بحر الوافر واتفقتا في الوزن والقافية واشتركتا في الموضوع وهو الزهد في الدنيا والتذكير بالموت، ولكنهما اختلفتا في حركة حرف الروي لتصنف بذلك ضمن المعارضات الناقصة، وتشابه أسلوب الشاعرين في استخدام ضمير المخاطب واتسمت كل من القصيدتين بصدق العاطفة وحرارة الانفعال وقوة التعبير عن الفكرة.

وإذا كان التحذير من الركون إلى الدنيا وحطامها الزائل قد أثارت أحاسيس الشاعر ومشاعره، فإنَّ القصيدتين عبَّرتا تعبيراً شافياً عن حقيقة هذه الدنيا والمصير الذي ينتظر الإنسان بعدها وأبرزتا جانباً من الملامح التي انبنى عليها الخطاب الزهدي وقدرته على الرواج في أوسع ما يمكن تصوره.

ويقترب الأمير عبد الله من فكر أبي العتاهية الزهدي في إحدى مقطوعاته الشِّعرية، إذ نلمح فيها أثر المعارضة، إذ يقول:

---

[1] ابن عبد ربه، ديوان ابن عبد ربه، ص94.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص144-145.

أرى الـــدُّنيا تصـــير إلـــى فنـــاءِ وَمَـــا فيهـــا لشـــيء مِـــنْ بقـــاءِ
فبـــــادرْ بالإنابـــــة غيـــــر لاوٍ علـــى شـــيء يصـــيرُ إلـــى فَنَـــاءِ
كأنَّـــك قـــد حُملْـــتَ علـــى ســـريرٍ وصـــارَ جديـــدُ حُســـنِك للـــبلاء
فنفســـك فابكهـــا أو نُـــح عليهـــا فربتمـــا رُحِمـــتَ علـــى البُكـــاء[1]

لا يخفى على أحد ما تتضمنه هذه المقطوعة من محاكاة ومعارضة قصيدة أبي العتاهية التي يقول في بعضها:

لعَمْـرُكَ، مـا الـدّنيا بـدارِ بَقَـاءِ؛ كَفَـاكَ بـدارِ المَـوْتِ دارَ فَنَـاءِ
فـلا تَعشَـقِ الـدّنْيا، أُخَـيَّ، فإنّمـا يُـرَى عاشِـقُ الـدُّنيَا بجُهْـدِ بَـلاَءِ
حَلاَوَتُهَـــا ممزَوجَـــةٌ بمـــرارةٍ ورَاحتُهَـــا ممزوجَـــةٌ بِعَنَـــاءِ
فَـلا تَمشِ يَوْمـاً فـي ثِيـابِ مَخيلَـةٍ فإنَّـكَ مـن طـينٍ خُلِقْـتَ ومَـاءِ[2]

تلتقي القصيدتان في تناول موضوع التحذير من الدنيا وعدم الركون إليها كما تلتقي في القافية، وحركة حرف الروي ولكنهما تختلفان في الوزن العروضي، إذ جاءت قصيدة الأمير عبد الله على بحر الوافر، في حين جاءت قصيدة أبي العتاهية على بحر ؛ ممَّا جعل المعارضة في عداد المعارضات النَّاقصة.

وتكشف الأبيات عن تقارب واضح بين موقف الشاعرين من الحياة الدنيا، وبيان قيمتها، فقد نظر كل منهما إلى الدنيا على حقيقتها، فوجداها دار فناء وزوال فأخذا يحذران من الاغترار بها والركون إليها.

ولم يقتصر حدّ التأثّر على معارضة الأمير معاني أبي العتاهية فحسب، إنّما امتدّ إلى الألفاظ فثمة تشابه واضح في ألفاظ المقطوعتين (كالدنيا وبقاء وفناء وبلاء)، وقد أحسن كل منها توظيف تلك الألفاظ لتسمو بمعانيه.

ولمَا كان الزهد من الأغراض الشّعرية التي راجت في الشعر الأندلسي حتى غدا تياراً واسعاً وعميقاً فقد كان الأثر العتاهي فيه واضحاً جلياً إذ تركت تجربته الزهدية

---

[1] ابن الأبار، الحلة السيراء، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1429هـ/2008م، ص76.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص18.

حضوراً مميزاً في أشعار الأندلسيِّين، الذين فاضت قرائحهم بقصائد شعرية عديدة نلمس فيها أثر المعارضة لشعره، يقول الشاعر أبو بكر غالب بن عطية المحاربي[1]:

قَلبِـــيَ يـــا قَلْبـــيَ المُعَنّـــي ... كَـــمْ أنـــا أُدعـــى فـــلا أجيـــبُ
كـــم أتمـــادى علـــى ضَـــلالي ... لا أرْعَـــــوي لا ولا أُنيـــــبُ
وَيْـــلاه مِـــنْ سُـــوء مـــا دَهَـــاني ... يتُـــوبُ غيـــري ولا أتُـــوبُ
وا أســـفي كَيْـــفَ بُـــرءُ دائـــي ... دَائـــي كمـــا شـــاءَهُ الطبيـــبُ
لـــو كُنـــتُ أدْنـــو لَكُنـــتُ أَشـــكُو ... مـــا أنـــا مِـــن بَابِـــه قريـــبُ
أبْعَـــدَني منـــهُ سُـــوء فِعلـــي ... وهكـــــذا يُبْعَـــــدُ المُريـــــبُ
مـــا لـــيَ قَـــدْرٌ وأيُّ قَـــدْرٍ ... لِمـــن أخَلَّـــت بـــه الـــذُّنوب؟[2]

فقد اتبع المحاربي في قصيدته هذه نهج أبي العتاهية معارضاً إياه في قصيدته التي يقول فيها:

ألاَ للهِ أَنْـــتَ مَتَـــى تَتُـــوبُ ... وقـــد صـــبَغَتْ ذَوائِبَـــكَ الخُطـــوبُ
كأنّـــكَ لَســـتَ تَعلَـــمُ أي حَـــثٍّ ... يَحُـثّ بـكَ الشّـروقُ، كمـا الغُـروبُ
أَلَسْـتَ تـراكَ كُـلَّ صَـبَاحِ يَـوْمٍ ... تُقابِـــلُ وَجْـــهَ نائِبَـــةٍ تَتُـــوبُ
لَعَمْـــرُكَ مـــا تَهُـــبّ الـــرّيحُ، إلاّ ... نَعـــاكَ مُصـــرِّحاً ذاكَ الهُبُـــوبُ
ألاَ للهِ أنْـــتَ فتـــىً وَكَهْـــلاً ... تَلُـــوحُ عَلَـــى مفارِقِـــكَ الـــذُّنُوبُ
هـــوَ المَـــوْت الـــذي لا بُـــدّ منْـــهُ، ... فـــلا يَلعَـــبْ بـــكَ الأمَـــلُ الكَـــذوبُ
وكيـــفَ تريـــدُ أنْ تُـــدعى حَكيمـــاً، ... وأنـــتَ لِكُـــلِّ مَـــا تَهـــوى رَكُـــوبُ
وتُصْـــبِحُ ضـــاحِكاً ظَهـــراً لـــبَطنٍ، ... وتـــذكُرُ مَـــا اجترمْـــتَ فـــلا تـــذوبُ[3]

---

[1] هو الفقيه الإمام الحافظ غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي، من الفقهاء الزهاد المحدِّثين، وله رحلة إلى المشرق، واتصل بكثير من العلماء وبرع في صياغة الشعر، وكانت وفاته سنة 518هـ، انظر: ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص639.

[2] ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص639.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبو العتاهية، شرح وتقديم عمر فاروق الطباع، ص39.

من الواضح أن هذه المعارضة من المعارضات الناقصة؛ لأنَّها فقدت ركناً أساسياً هو الوزن العروضي، حيث جاءت قصيدة المحاربي على بحر مخلّع البسيط[1]، في حين جاءت قصيدة أبي العتاهية على بحر الوافر إلَّا أنَّهما اتَّفقتا في الموضوع وهو موضوع التوبة من الذنوب وقد أزف الرحيل، كما اتفقتا أيضاً في القافية وحركة حرف الروي.

وعلى الرغم مما اتصف به شعر أبي العتاهية الزهدي من سهولة الألفاظ ورشاقة التعبير فقد كان في قصائده يضرب على وتر شجيّ يهيج في السامع حاسة الاستحسان[2]، فيطربه ويلقي على ما حوله من فسادٍ ورعبٍ مسحة من جمال الفن الشِّعري الذي يحوّل الظلام إلى نور، هكذا عرف الأندلسيُّون شعر أبي العتاهية، فقرأوا قصائده فوجدوها رشيقة المبنى تسيل عذوبة وحلاوة، فأخذوا في معارضتها تعبيراً عن إعجابهم بها ووفاء لصلة القربى بالشعر المشرقي، والشاعر المحاربي واحد من أولئك الشُّعراء الأندلسيِّين الذين بدا زهدهم إشباعاً لشهوة فنية لم يستطع إلّا إشباعها فكأنّه وجد ضالته في شعر أبي العتاهية الزهدي فراح يحاكيه، وينسج على منواله ما يثبت أنّ فنه الزهدي يقوم بمهمة التواصل مع الزهد العتاهي.

لقد تعددت المعارضات الناقصة لقصائد أبي العتاهية من قبل الشُّعراء الأندلسيِّين، إذ كان إعجابهم بشعره مدعاة لمعارضته، ولسنا بصدد ترصد جميع هذه المعارضات[3] بقدر ما نسعى إلى إثبات هذا الفن الأدبي في شعر الأندلسيِّين، حيث يمكننا من خلال هذه الشَّواهد أن نتبيَّن مدى الأثر الذي تركته أشعار أبي العتاهية الزهدية في شعر الأندلسيِّين، وأنّ هذه الأشعار ألقت بظلالها على شعر المعارضات،

---

[1] اختار العروضيون مفتاحاً لمخلع البسيط هو (مستفعلن فاعلن فعولن) انظر: خليل، إبراهيم، عروض الشعر العربي، ص211.

[2] المقدسي، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ص158.

[3] لمزيدٍ من الشواهد على المعارضات الناقصة، انظر: قصيدة الإلبيري، التي يقول في مطلعها:

كم آمِنٍ للمَنونِ لاهٍ عن الرَّدى باتَ مُطمئنًّا

إذْ نلمسُ فيها معارضة أبي العتاهية في قصيدته التي يقول في مطلعها:

كُنْ عندَ أحسَنِ ظنّ منْ ظنَّا وإذا ظننتَ فأحسن الظنَّا

وقد كانت هذه المعارضات نتيجة إعجاب بشعر أبي العتاهية من جانب، وإثباتاً لقدرة الشعراء الأندلسيين وبراعتهم في مجاراة الشعر المشرقي من جانب آخر، وربّما أسهمت في نقل الشعر الأندلسي من مرحلة التَّقليد والمحاكاة إلى مرحلة الإبداع والبراعة والابتكار، ويؤيد الأستاذ أحمد هيكل هذا الرأي في معرض حديثه عن المعارضات إذ يقول: "على أنَّ ذلك لم يكن في الغالب تقليداً من الأندلسيِّين لهؤلاء الأعلام المشارقة، وإنَّما كان إعجاباً بالاتجاه الشِّعري أولاً ورغبةً في إثبات مقدرتهم وتفوقهم ثانياً، وليس أدلّ على عدم التبعية والتَّقليد من أنَّ الشاعر الأندلسي كان يجاهر بموازنة نتاجه بنتاج سابقه المشرقي حين يعالج موضوعاً عالجه، أو يورد فكرة أورد مثلها أو يؤلف صورة رسم نظيرها[1].

إنَّ محاولة شعراء الأندلس محاكاة أبي العتاهية بيّن واضح في تلك القصائد التي أوردناها، ولكن الأمر لم يقف عند حدّ التَّقليد بل تجاوز الأندلسيُّون ذلك، فتحولوا إلى منافسين.

ويرى بعض الدارسين أنَّ المعارضة تعدّ مجالاً خصباً لتواصل الشاعر مع تراثه، ونموذجاً لدعم فكرة الأصول الحتمية لحركة الأدب ومحاولة إحياء ذاكرة الأمة من خلال تراثها في عصورها المختلفة مخافة أن يضيع في غياهب النسيان[2]، وهذا موقف من الأهمية بمكان، لأنَّ كثيراً من تراث الأمّة وإرثها الحضاري فُقد وضاع ولم يصلنا منه إلَّا الشيء القليل، إذ يمكن أن نعد المعارضة بناءً على هذا الرأي إحياءً للتراث وحفاظاً على أصوله وصوناً له.

وإذا كانت المعارضة قد شكلت ظاهرة فنية بارزة في الشعر الأندلسي، إذ أُعجب الشُّعراء الأندلسيُّون بكبار شعراء المشرق، فراحوا يعارضونهم في جميل

---

[1] هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، 1997م، دار المعارف، القاهرة، ص199.

[2] التطاوي، عبد الله، المعارضة الشِّعرية بين التَّقليد والإبداع، 1988م، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص95.

قصائدهم، وينسجون على غرارها[1]، فإنَّ أبا العتاهية يعدُّ واحداً من كبار شعراء المشرق الذين لقيت أشعارهم اهتماماً بالغاً من لدن شعراء الأندلس الذين أحبُّوا شعره الزهدي الذي كان محطّ إعجابهم، فأخذوا يتدارسونه في مجالسهم فأصبحت أشعاره الزهدية رافداً مهماً أسهم في استقواء حركة الزهد في الأندلس، فراحوا يعارضون قصائده بأساليب مختلفة تشهد لهم بالإبداع والابتكار.

4.3 أثر الصورة الشِّعرية:

ثمَّة إشارات في النقد العربي القديم للصورة الشِّعرية منها قول الجاحظ (255هـ): "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي، وإنّما الشأن في إقامة الوزن وسهولة المخرج، وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك، وإنّما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[2].

ومنها أيضاً قول عبد القاهر الجرجاني (471هـ): "واعلم أنَّ قولنا الصورة إنَّما هو تمثيل قياس لما نعلمه بعقولنا عن الذي نراه بأبصارنا فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة فكان بَيْنُ إنسان من إنسان وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة ذاك .... ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر في عقولنا فرقاً عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: (للمعنى هذا صورة غير صورته في ذلك) وليست العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل في كلام العلماء ويكفيك قول الجاحظ: "إنّما الشعر صناعة وضرب من التصوير"[3].

والحقيقة أنّ النّقاد والبلاغيين العرب لم يتطرقوا للصورة بهذا المصطلح وإنما "اهتموا بوسائلها الفنية أو أشكالها البلاغية، فعالجوا التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز

---

[1] الياسين، إبراهيم منصور، استيحاء التراث في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص106-107.

[2] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ) الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ج3، ص131.

[3] الجرجاني، عبد القاهر (147هـ) دلائل الإعجاز، 1981م، دار المعرفة، بيروت، ص365.

المرسل، وقد جاءت معالجتهم لها على أساس جزئي لا يتعدى الجملة إلى البيت أو البيت إلى القصيدة"[1].

كانت تلك نظرة موجزة وسريعة حول موضوع الصورة الشِّعرية عند القدماء، أمَّا البلاغيون والنقّاد الحداثيون فقد أولوا مصطلح الصورة أهمية كبيرة وقدموا لها تعريفات مختلفة. فقد عرَّف جابر عصفور الصورة بقوله: "الصورة هي طريقة خاصة من طرق التعبير أو وجه من أوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير، ولكن أياً كانت هذه الخصوصية أو ذاك التأثير فإن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته، إنّها لا تغير إلَّا من طريقة عرضه وكيفية تقديمه"[2]، أي أن الصورة قالب يقدم الشاعر من خلاله المعنى الذي يريد أن يعبر عنه، ويتم عن طريقها المتعة الذهنية لدى المتلقي دون المساس بقيمة المعنى الفنية.

وعرّفها الرباعي بأنَّها: "هيئة تثيرها الكلمات الشِّعرية بالذهن شريطة أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية في آن"[3]، والصورة في أبسط معانيها "رسم قوامه الكلمات"[4].

من خلال هذه التعريفات نلاحظ أنَّ الكلمات هي أساس بناء الصورة الشِّعرية، ولمَّا كانت الصورة الشِّعرية هي أداة الخيال ووسيلته ومادته الهامة التي يمارس بها ومن خلالها فاعليته ونشاطه[5]، فإنَّ الشاعر يلجأ إليها لنقل مشاعره وأحاسيسه وأفكاره للآخرين.

---

[1] الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999م، ط2، ص15.

[2] عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992م، ص392.

[3] الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في النقد الشِّعري: دراسة في النظرية والتطبيق، دار العلوم، الرياض، 1983م، ص85.

[4] لويس، سيسل دي، الصورة الشِّعرية، ترجمة أحمد نصيف الجنابي وآخرون، دار الرشيد للنشر، العراق، 1982م، ص21.

[5] عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ص14.

وإذا كان الخيال عنصر مهم من عناصر الصورة، فإنَّ النظم لا يقل أهمية عن ذلك، إذ هو الذي يفسح المجال للخيال أن يحلّق في سماء الفكر والتأمُّل[1]، ومما لا شك فيه أنَّ مقياس الجودة الأدبية هو مدى تأثير الصورة في المتلقّي باعتبارها عنصر مهم له طريقته الخاصة في عرض المعاني وتأثيرها في الآخرين. فالخيال هو الذي يرسم الصورة الحية التي ينقل الشاعر من خلالها المتلقي ليعيش أجواء المشهد وكأنَّه حقيقة ماثلة أمامه.

وقد مال بعض النقّاد إلى مقولة: "لا شعر خارج الصورة الفنية أو لا شعرية في كلام لا صورة فيه"، لذا كانت الصورة معياراً مهماً للحكم على شعرية الشعر[2]، لذا قسَّم النقّاد الصورة إلى خمسة أنماط هي: الصورة البصرية والسمعية والذوقية والشمّيّة واللمسيّة[3].

وبعد هذا العرض السريع لمفهوم الصورة نود الوقوف على مدى أثر الصورة الشِّعرية في بناء الخطاب الشِّعري الأندلسي المتأثر بشعر أبي العتاهية.

على الرّغم من السمات التي اتَّسم بها شعر الزهد من السهولة واليسر والوضوح واتكاء تراكيبه على أساليب قريبة من لغة الكلام العادي في بساطتها ووضوحها وتسلسلها وبعدها عن التكلّف والتعقيد[4]، فإننا نجد الخيال أحياناً يظهر في أشعارهم، حيث استخدموا التشبيه في بعض أشعارهم، وحاولوا أن يعمقوا الصورة لا سيّما الصورة المستمدة من البيئة الأندلسية وطبيعتها الخلابة وإن كان استخدامهم لها محدوداً، ولما كانت صورة الدنيا الفانية من أكثر الصور حضوراً في شعر أبي العتاهية الزهدي،

---

(1) هياجنة، محمود سليم، الصورة النفسية في القرآن الكريم دراسة أدبية، 1428هـ-2008م، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، ص13.

(2) الرواشدة، سامح، الشعر وذاكرة الطفولة دراسة في شعر محمَّد لافي، 1432هـ-2011م، دار الكتاب الثقافي، إربد، دار المتنبي للنشر والتوزيع، إربد، ص49.

(3) لمزيد من الاطلاع حول تقسيم الصورة إلى هذه الأقسام انظر: الرواشدة، سامح، الشعر وذاكرة الطفولة، ص49-53.

(4) الداية، محمَّد رضوان، في الأدب الأندلسي، 1421هـ-2000م، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ص91.

فإنَّني سأكتفي بإيراد بعض صورها كدليل واضح يثبت وجود حظ الصورة الفنية في شعر الزهد، ثمَّ نتبيَّن إلى أي مدى تأثُّر الشُّعراء الأندلسيِّين بتلك الصورة على أنَّ ذلك لا ينفي وجود صور أخرى كصورة الشيب وصورة الموت وغيرها، إلّا أنَّ صورة الدنيا جاءت في الغالب مجسّدة لرؤية شاعر الزهد العميقة، وهي تُظهر بتأمّل تجربة الإنسان ورحلته في هذه الحياة التي طالما كان الموت نهايتها.

ومن أهمّ صور الدنيا التي نلمح فيها تأثّر الأندلسيِّين بأبي العتاهية تشبيهها بالبحر، فقد شبّه أبو العتاهية الدنيا ببحر عميق، والناس فوق أمواجه يسبحون ويتبارون في السباحة، فمنهم من يغرق ومنهم من ينجو[1]، وفي هذا المعنى يقول:

كُـلّ أهـلِ الـدُّنيا تعـومُ علـى الغَفْـ ـلةِ منهـا فـي غَمـرِ بحْـرٍ عَميـقِ
يتبـارَون فـي السِّـباحِ فَهُـم مـن بـينِ نـاجٍ مـنهم وبـين غريـقِ[2]
تشـرَّف النّـاسُ بالـدُّنيا وقـد غَرِقـوا فيهـا فكـلٌ علـى أمواجهـا طـافِ[3]

لقد تأثَّر الشُّعراء الأندلسيُّون بصورة أبي العتاهية تلك، واستوحوها للتعبير عما يجول في خواطرهم تجاه الحياة الدنيا، يقول ابن أبي زمنين:

أيَّهـا المـرءُ إنَّ دنيـاكَ بحـرٌ طـافحٌ موجُـهُ فـلا تأمننهـا
وسـبيلُ النجـاةِ فيهـا مبـينٌ وهـو أخـذُ الكفـافِ والقُـوت منهـا[4]

ويقول الشاعر الجلياني[5]:

ألا إنَّمـا الـدُّنيا بحـارٌ تلاطَمَـت فمـا أكثـرَ الغرقـى علـى الجنبـاتِ
وأكثـرُ مـن صـاحبتُ يَغْـرقُ إلفُـهُ وقـلَّ فتـىً يُنجَـى مـن الغَمَـراتِ[6]

---

[1] خليف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، ص524.
[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص219.
[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص215.
[4] الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج2، ص82.
[5] هو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسّان الغسّاني ولد في قرية جليانة من أعمال غرناطة سنة 531هـ، وكان أديباً فاضلاً، له شعر مليح المعاني، وكان حسن الأخلاق لطيفاً، حاضر الجواب، توفي بدمشق سنة 602هـ، انظر: المقَّري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج3، ص229.
[6] المقَّري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، ص240.

ويقول أبو بكر محمد بن الوليد الفهريّ الطرطوشي[1]:

إنّ لله عبـــــــــاداً فُطُنـــــــــا طلَّقـــوا الـــدُّنيا وخـــافوا الفِتنـــا
فكَّـــروا فيهـــا فلمَّـــا علمـــوا أنَّهـــا ليســـت لحـــيٍّ وطَنَـــا
جعلوهـــــا لُجّـــــةً واتخـــــذوا صـــالحَ الأعمـــالِ فيهـــا سُـــفُنا[2]

وأمَّا الأعمى التطيلي، فإنَّه يصوِّر الدُّنيا بحراً مخادعاً، والناس فوقه كالزبد، حيث يقول:

عـــزاءَكم إنّمـــا الـــدنيا وزينتُهـــا بحـــرٌ طَفَوْنـــا علـــى آذيـــهِ زَبَـــدا[3]

إنَّ الناظر في هذه الصور يلمس تشابهاً واضحاً بينها وبين صورة الدنيا التي رسمها أبو العتاهية، وإن كانت هذه الصورة أقرب إلى أن تكون صورة أندلسية أصيلة[4]، لأنّ الأندلسيِّين أحق في رسم هذه الصورة من أبي العتاهية بحكم بيئتهم الحافلة بصور الطبيعة، وعلى الرغم من ذلك فقد سبق أبو العتاهية الشُّعراء الأندلسيِّين في تمثل تلك الصورة الحضرية التي تعد أثراً لحياته في العراق، إذ إنَّ الذي يهمنا هو الأثر الذي تركته أشعار أبي العتاهية في شعر الأندلسيِّين على مستوى الصورة والخيال.

لقد شكَّلت صورة الدنيا حدثاً خطيراً يصور إشكالية الصراع بين الإنسان والحياة، فأبو العتاهية في موقفه المتشكل من الدنيا يبدو قلقاً ومنفعلاً نتيجة قسوة تقلبات الحياة الدنيا التي تُظهر العجز الإنساني أمام تصاريفها، وهو يقدِّم صورة حول

---

[1] هو الفقيه أبو بكر محمَّد بن الوليد الفهريّ الطرطوشي، رحل إلى المشرق فحج ودخل بغداد والبصرة وسكن الشام وكان إماماً زاهداً ورعاً ديناً متقشفاً متقللاً من الدنيا راغباً منها باليسير. انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص424.

[2] ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص424.

[3] التطيلي، ديوان الأعمى التطيلي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م، ص27.

[4] عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص106.

المصير الإنساني في تلك الحياة انطلاقاً من تجربته الذاتية[1]، فراح يشبهها بالبحر العميق وأما الناس فإنهم يسبحون فيه، تماماً كتنافسهم على حطام الدُّنيا الزائل وأما النهاية فإنها إما الغرق وإما النجاة وكذلك نهاية الدنيا إما فوز ونجاح، وإمَّا هلاك وخسارة.

وقد تأثر الشُّعراء الأندلسيُّون بهذه الصورة ولكنهم أعادوا تشكيلها من جديد بطرائق مختلفة تشهد لهم بالقدرة على التفنن في انتقاء أساليب التعبير الشِّعري.

إنَّ استحضار هؤلاء الشُّعراء لهذه الصورة إنّما يجذر فكرة الأثر العتاهي في أشعارهم ويؤكد تواصلهم مع الموروث الشِّعري المشرقي وإفادتهم منه ممَّا ينعكس إيجاباً على أشعارهم.

ومن الصور الأخرى التي نلمس فيها تأثر الشُّعراء الأندلسيِّين بأبي العتاهية تشبيه الدنيا بالسِّراب، فقد تصوّر أبو العتاهية الدنيا سراباً، إذ يقول:

إنَّمـــا الـــدُّنيا غـــرورٌ كُلُّهـــا مثلُ لمعِ الآلِ في الأرضِ القفارْ[2]

فالدنيا عند أبي العتاهية كلمعان السراب الخادع في الأرض الخالية، لذا فالناس مغترون بها، وهي صورة دقيقة تعبّر عن حقيقة الدنيا التي طالما شغلت عقول النّاس.

ويؤكِّد مرَّة أخرى تشبيهها بالسَّراب إذ يقول:

لـــوْ تَـــرَى الـــدُّنيا بعَينَـــي بصـــيرٍ إنّمـــا الـــدُّنيا تُحـــاكي السّـــرابا[3]

كـــأنَّ محاسِـــنَ الـــدُّنيا ســـرابٌ وأيُّ يـــدٍ تناولـــتِ الســـرابا[4]

هذه الصورة التي تخيلها أبو العتاهية نجدها تتكرر في أشعار الأندلسيِّين، يقول المعتمد بن عباد:

أرى الـــدُّنيا الدّنّيـــةَ لا تُـــواتي فأجمِـلْ فـــي التصُّـــرف والطِّـــلابِ

---

[1] عليمات، يوسف، مركزية النقد وثقافة التعاويذ، دراسة أسلوبية في قصيدة مالك بن حريم الهمذاني، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد السادس، العدد الثالث، 1431هـ/ 2010م، ص106.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص143.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص50.

[4] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص37.

لا يغْـــرُرْك منهـــا حُســـنُ بُـــردٍ لـــه عَلَمَـــان مـــن ذَهَـــبِ الـــذِّهابِ
فأوَّلهـــا رجـــاءٌ مـــن سَـــرَابٍ وآخرُهـــا رداءٌ مـــن تُـــرابِ[1]

ويقول الإلبيري مخاطباً الدنيا:

أنـــتِ الســـرابُ وأنـــتِ داءٌ كـــامنٌ بـــين الضـــلوعِ فمـــا أعـــزَّ دَوَاكِ؟ [2]

ويصف السميسر الدُّنيا بقوله:

جملـــــةُ الـــــدُّنيا ذهـــــابُ مثـــــلَ مـــــا قـــــالوا سَـــــرابُ
والـــــذي منهـــــا مشـــــيدٌ فخـــــــرابٌ ويبـــــــابُ[3]

وأما ابن زيدون فيقول في وصفها:

ودُنيـا وَجَـدنا العـيشَ فـي غفلاتهـا طريقـاً إلـى وردِ المنيّـة مَهْيعـا
نُعلّـــل فيهـــا بـــالمُنى فتغرُّنـــا بـوارقُ لـيس الآلُ منهـا بأخـدعا[4]
مـا لـي وللـدُّنيا غـررتُ مـن المُنـى فيهـا ببارقـة السـرابِ الخـادعِ[5]

الملحوظ في هذه الأبيات أنَّ ظاهرة التَّقليد لشعر أبي العتاهية جاءت واضحة فثمة تشابهٌ جليٌّ بين صورة أبي العتاهية وصورة الشُّعراء الأندلسيِّين، إذ لم يكن هؤلاء الشُّعراء بمنأى عن أشعار أبي العتاهية الزهدية، فكأنهم عاشوا معها وتأثروا بها، حتى لكأنها أصبحت "دفقات جديدة تنساب في عروقهم آتية من المشرق"[6]، إذ ليس ثمة شك أنَّ الشُّعراء الأندلسيِّين استعاروا هذه الصورة من شعر أبي العتاهية وصبغوها من

---

[1] ابن عباد، ديوان المعتمد بن عباد، تحقيق الحبيب السويسي، 1975م، الدار التونسية، ص152.

[2] الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص42.

[3] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، م2، ص889.

[4] ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، الشركة اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، م د ط، ص131.

[5] ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، ص138.

[6] عباس، إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، 2001م، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص482.

وهج أحاسيسهم ليصوغوا بأشعارهم لوحات ناطقة يعبرون بها عن نظرتهم للحياة وبيان قيمتها، فأولها كما يقول المعتمد سراب خادع وآخرها غطاء من تراب.

وثمَّة قضيّة مهمَّة لا بُدَّ من الإشارة إليها، وهي وجود تباين واضح بين الصورتين السابقتين اللتين تأثر بهما الشُّعراء الأندلسيُّون بأبي العتاهية، فالصورة الأولى هي تشبيه الدنيا بالبحر، وأمَّا الصورة الثانية فهي تشبيه الدنيا بالسراب، ولعل الصورة الأولى صورة حضرية أقرب إلى أن تكون صورة أندلسية أصيلة مستمدة من الطبيعة الأندلسية، ولعلَّ ورودها عند أبي العتاهية ناتج عن حياته في بغداد واتصاله ببلاط الساسة العباسيين، وأمَّا الصورة الثانية (صورة السَّراب) فهي صورة بدوية ثارت فيها نفس أبي العتاهية على الدنيا حينما مضى يستعرض مواكب حياته الأولى المريرة[1]، فتراءت له الدنيا سرابا خدّاعاً وغروراً زائلاً.

وعلى الرّغم من تباين الصورتين، فقد تمثّل الشُّعراء الأندلسيُّون دلالتيهما، ثمَّ صبُّوها في قوالب شعر جديدة أعانتهم على الكشف عن بعض جوانب الحياة وما فيها من تناقض، واستطاعوا أن يعبروا عن مشاعرهم إزاء تلك الحياة متكئين على تجربتهم في الحياة من جانب وعلى عصارة أفكارهم ورؤيتهم الفنية من جانب آخر.

وقد نظر أبو العتاهية إلى الدنيا على أنَّها أضغاث أحلام يراها الإنسان في النوم ثمَّ سرعان ما تتكشف حقيقتها لأنها حياة فانية لا قيمة لها، حيث يقول.

يـا نَفْـسُ مـاهو إلَّا صـبرُ أيـامٍ ... كـأنَّ لـذاتِها أضـغاثُ أحـلامِ[2]

هـو التنقّـل مـن يـومٍ إلـى يـومٍ ... كأنَّـه مـا تريـكَ العـينُ فـي النّـومِ[3]

وكـأنّ طعْـمَ العـيشِ حيـث مضـى ... حُلْـمٌ يُحـدِّثُ عنـه حالِمُـهُ[4]

---

[1] خليف، يوسف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثامن الهجري، ص513-517.

[2] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص296.

[3] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص293.

[4] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص305.

لم يكن الشُّعراء الأندلسيُّون بمنأى عن هذه الصورة وهي تشبيه الدنيا الزائلة بالحلم الذي يعرض للإنسان في نومه وغفوته، إذ لم تغب تلك الصورة عن خيالاتهم فقد تأثروا بها ووظفوها في شعرهم، ومن ذلك قول ابن عبد ربه:

ألا إنّمـــا الـــدُّنيا كـــأحلامِ نـــائمِ وما خيـرُ عـيشٍ لا يكـونُ بـدائمِ
تأمّـل إذا مـا نلـتَ بـالأمسِ لـذّةً فأفْنَيْتَهـا هـلْ أنـتَ إلا كحـالمِ[1]

وأمَّا يحيى بن الحكم الغزال فيقول في الاعتبار بفناء الناس وتقلب الدهر بهم:

فـإذا مـا نظـرتُ فـي عُـرُضِ النـا سِ كـــأنّي أراهـــم فـــي الظّـــلامِ
وكـأنَّ الـذي أُصـيبَ علـى الأيّـا مِ شـــيءٌ أصـــبتُهُ فـــي المنـــامِ[2]

هكذا نظر الشُّعراء الأندلسيُّون إلى الدنيا كما نظر أبو العتاهية، فهي كأحلام النائم التي سرعان ما تتكشف حقيقتها، إذْ أفادوا من المعنى ذاته ومن الصورة نفسها حيث تبدو ملامح التأثر بالتراث الشِّعري المتمثل في شعر أبي العتاهية وتعلق الشُّعراء الأندلسيِّين بصوره وألفاظه ومعانيه ما يكشف عن سعة اطلاعهم وكثرة محفوظهم من تلك الأشعار التي أضحت تجلياتها بارزة في أشعارهم.

إنَّ الصورة التي ظهرت عند هؤلاء الشُّعراء صورة قائمة على التشبيه، والتشبيه كما عرفه بعض البلاغيين هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في معنى أو أنَّه الدلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء نفسه، والصورة التشبيهية هي التي تقوم على المقارنة بين شيئين لا لتفضيل أحدهما على الآخر، وإنما لنقل الحالة الشعورية التي تسيطر على الشاعر[3].

وليس هذا فحسب، فقد تصوّر أبو العتاهية الدنيا ظلاً زائلاً، إذ يقول:

عَجَبـــاً أَعجَـــبُ مِـــن ذي بَصَـــرٍ يَـــأمَنُ الـــدُنيا وَقَـــد أَبصَـــرَها

---

[1] الطيب، أبو عبد الله محمَّد بن الكتاني، (ت420هـ)، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: إحسان عباس، ط2، دار الشروق، بيروت، 1401هـ/1981م، ص253.

[2] الطيب، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص253.

[3] هياجنة، محمود سليم، الخطاب الديني في الشعر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، 1430هـ-2009م، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، ص284.

إنَّ لِلإنســـــانِ يَومـــــاً صَـــــرعَةً يَنبَغـــــي لِلمَـــــرءِ أَن يَحـــــذَرَها
كَـم قُـرونٍ حَضَـرَتنا قَـد مَضَـت وَنَســـينا بَعـــدَها مَحضَـــرَها
إنَّمـــا الـــدُّنيا كظِـــلٍّ زَائِـــلٍ أحمَـــدُ اللهَ كَـــذا قـــدَّرها[1]

لقد كانت هذه الصورة حاضرة في خيال الشاعر الأندلسبي فقد استوحاها في شعره لبيان حقيقة هذه الحياة، يقول ابن الأبار:

وإنِ اعتمـــدتَ الصـــالحاتِ مَـــزاوداً وعَلمْـــتَ أنَّ العـــيشَ ظِـــلٌّ زائـــلُ
أبشـــر بفـــردوس الجنـــانِ فإنّهـــا للنَّاســـكينَ مســـاكنٌ ومنـــازلُ[2]

لقد جسّد أبو العتاهية في صورته تلك حقيقة الدنيا فهي ظلٌّ سرعان ما يزول وكذا أيامها ولياليها، فهي وإن ظهرت طويلة في نظر الخلق فإنها في حقيقتها زائلة لا محالة، ثم جاء ابن الأبار مستحضراً هذه الصورة ليؤكِّد تأثره بأشعار أبي العتاهية وتفاعله معها، ويعبّر عن تجربته الزهدية المتجددة في وعيه ووجدانه وقدرته على استلهام التراث الشِّعري والتعامل معه بأساليب تدل على تفاعله مع تجارب الشُّعراء الآخرين.

إنَّ الذي يهمنا بعد هذه الشواهد المتعلقة بأثر الصورة الشِّعرية هو أن نلحظ إلى أي مدى أثرت أشعار أبي العتاهية في صور الشُّعراء الأندلسيِّين، وهل ثمة ما يؤكِّد أنَّ صور أبي العتاهية الشِّعرية كانت تشكل رافداً رئيسياً لدى الشُّعراء الأندلسيِّين؟

إنَّ الحقيقة التي لا يمكن إخفاؤها هي المنزلة التي حظيت بها أشعار أبي العتاهية من لدن شعراء الأندلس، فقد تدارسوها في مجالسهم واستشهدوا بها في مؤلفاتهم وعمدوا إلى تضمينها؛ لذا، فمن البدهي أن يستوحي هؤلاء الشُّعراء صور أبي العتاهية في أشعارهم لتكون نماذج حيّة شاهدة على ما ارتسم في وجدانهم من تلك الأشعار، وتثبت قدرتهم على استلهام تراثهم الأدبي، والتعامل معه بصورة واعية.

---

[1] أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص162.

[2] ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص253.

الخاتمة:

أولى الأندلسيُّون أشعار أبي العتاهية الزُّهدية مكانة خاصة، وتبوَّأت تلك الأشعار منزلة ساميّة في نفوسهم، فقد أُعجب هؤلاء الشُّعراء بمنهجه الشِّعري القائم على التَّجديد في الموضوع والمبنى الشِّعري، ولقي حضوراً متميِّزاً في خواطرهم.

وقد أخذت قضيّة تقليد الأندلسيِّين لأدب المشارقة ومحاكاتهم له مساحة واسعة تباينت فيها الآراء، واختلفت المواقف بين منكرٍ لذاك التَّقليد، ومؤيِّدٍ له، ولكنَّ الواقع الذي توصَّلت إليه الدراسة، أنَّ هذا التَّقليد لم يكن تقليداً أعمى، إنَّما كان تأثُّراً وإعجاباً، ثمَّ لم يلبث أن أصبح تفوُّقاً في بعض الأحايين، لكنَّ ذلك لم يمنع الأندلسيِّين من الاعتراف بالجميل، فقد بلغ إعجابهم بأدب المشارقة إضفاء ألقابٍ مشرقيّة على أدبائهم. وإذا كانت مقوِّمات ثقافة الشَّاعر الأندلسي متعدِّدة الجوانب، فإنَّها في النهاية تعود إلى أصالة المنشأ العربيّ القادم من المشرق، فضلاً عن عراقة البيئة الأندلسيّة.

كانت أشعار أبي العتاهية قد دخلت الأندلس عبر طرائق منها: رحلة الوافدين على الأندلس من علماء المشرق وأدبائه، ورحلة الأندلسيِّين أنفسهم إلى بلاد المشرق، إذْ عاد هؤلاء مثقلين بروائع الثقافة المشرقيّة، ومنها حرص الأندلسيِّين الشَّديد على رواية أشعار المحدثين واقتناء دواوينهم، ومنها أيضاً الكتب والمختارات الشِّعرية التي وضعها كتَّابٌ أندلسيُّون، حيث أدَّت تلك المؤلَّفات دوراً كبيراً في نشر أشعار أبي العتاهية في الأندلس.

وقد أثَّر شعر أبي العتاهية في مضامين الخطاب الشعري الأندلسي، حيث قدَّم في قصائده ثلاثة ألوان من شعره الزُّهدي هي: العظات الدينيّة، والحكم الأخلاقيّة، والابتهالات التي تشبه ابتهالات الصوفيّة.

واستطاع الشعراء الأندلسيُّون أن يجدِّدوا في معاني أبي العتاهية، إذْ جادت قرائحهم بقصائد زهديّة أثبتت قدرتهم على التَّعامل مع النَّص الآخر، والإفادة منه والتَّجديد فيه بما يحقِّق الشِّعريّة والإبداع في أشعارهم. وإذا كان الأدب الأندلسي بصورة عامّة يتنفَّس في جوٍّ مشبع بالثقافة الدينيّة، فإنَّ أشعار الزُّهد العتاهيّة جاءت مواتيةً لطبيعة الموقف؛ لذا، تفاعل الشُّعراء الأندلسيُّون مع تلك الأشعار، وانطلقوا مجدِّدين ومبدعين بعدما أفادوا منها ما أغنى إبداعاتهم، وأضفى عليها جمالاً فنيَّاً متألِّقاً.

وكان لأشعار أبي العتاهية أثرها الواضح في بناء الخطاب الشِّعري الأندلسي، حيث استطاع الشُّعراء الأندلسيُّون تحوير أشعاره وإخراجها في سياقاتٍ جديدةٍ تشهد لهم بالقدرة الفنيّة على الإفادة من نصوص الآخرين.

ولم يقف تأثُّرهم عند حدِّ التَّحوير، بل راحوا يضمِّنون أشعار أبي العتاهية في قصائدهم، وقد جاء التَّضمين على نوعين: تضمين نصِّي، وتضمين إشاري، وكلاهما يكشفان عن قدرة الشُّعراء الأندلسيِّين على تمثُّل النُّصوص السَّابقة، وتطويعها لخدمة أغراضهم الفنيّة.

وكانت المعارضات أحد ألوان التأثُّر، حيث عارض بعض الشُّعراء الأندلسيين أبا العتاهية في كثيرٍ من قصائده، وجاءَت تلك المعارضات بنوعيها التامَّة والنَّاقصة؛ لتكشف عن تواصل الشَّاعر الأندلسي مع شعر أبي العتاهية من جانب، وعن العلاقة الحيَّة التي تربطه بموروثه الأدبي المشرقي من جانبٍ آخر، كما كشفت تلك المعارضات عن إعجاب الشُّعراء الأندلسيِّين بأشعار أبي العتاهية وقدرتهم على مجاراتها، والإضافة إليها من خصوصيّة أدائهم.

وجدت صور أبي العتاهية الشعرية طريقها إلى شعر الزُّهد في الأندلس، على الرّغم من سمات البساطة والعفويّة، والبُعد عن التكلُّف التي اتَّسم بها هذا اللون الشِّعري، حيث تأثَّر الشعراء الأندلسيُّون ببعض صور أبي العتاهية واستعاروها للتعبير عن تجاربهم الذَّاتيّة ونظرتهم للحياة.

المراجع

ابن الأبار، أبو عبد الله بن أبي بكر (ت658هـ)، (1429هـ/200م)، **الحُلة السيِّراء (في تراجم الشُّعراء من أهل الأندلس والمغرب من المئة الأولى للهجرة إلى المائة السابعة)**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الأبار، أبو عبد الله بن أبي بكر (ت658هـ)، (1405هـ/1985م)، **ديوان ابن الأبار**، تعليق: عبد السَّلام الهراس، الدار التونسية للنشر.

ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصرالله بن محمد (ت637هـ)، (1962م)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة النهضة، القاهرة.

الأصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين، (ت356هـ)، (2000م)، **الأغاني**، ط1، تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، بيروت.

الإلبيري، أبو إسحاق (ت460هـ)، (1411هـ/1991م)، **ديوان أبي إسحاق الإلبيري**، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط1، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت.

أبو الأنوار، محمَّد، (1983م)، **الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية**، ط1، مكتبة الشباب، القاهرة.

ابن بسَّام، أبو الحسن علي بن بسَّام الشنتريني، (542هـ)، (1417هـ/1997م)، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق: إحسان عبَّاس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان.

البستاني، بطرس، (1979م)، **أدباء العرب في الجاهلية والإسلام**، دار مارون عبود، توزيع دار الجيل– بيروت.

ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك (578هـ)، (1989م)، **الصلة**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز (ت487هـ)، (1971م)، **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال**، تحقيق: إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة– بيروت.

بهجت، منجد مصطفى، (1407هـ/1986م)، **الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين**، ط1، مؤسسة الرسالة– بيروت.

بوذنية، محمَّد، **قصيدة البردة ومعارضتها**، (1994م)، المطابع الموحدة، مجموعة سراس للنشر، تونس.

بيريس، هنري، (1408هـ/1988م)، **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية**، ط1، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف– القاهرة.

البيومي، محمد رجب، (1400هـ/1980م)، **الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير**، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

الترمذي، أبو عيسى محمَّد بن عيسى، (ت279هـ)، (1422هـ/2002م)، **سنن الترمذي**، ط1، دار ابن حزم، بيروت– لبنان.

التطاوي، عبد الله، (1998م)، **المعارضات الشِّعرية أنماط وتجارب**، ط1، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة.

التطيلي، أحمد بن عبدالله بن هريرة، (ت525هـ)، (1963م)، **ديوان الأعمى التطيلي**، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت429هـ)، (1403هـ/1983م)، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن ثقفان، عبد الله بن علي، (1422هـ/2001م)، **المقومات الفنية في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين**، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض.

ابن ثقفان، عبدالله بن علي، (1414هـ/1994م)، ظاهرة الانتماء في الأدب الأندلسيِّين. **مجلة دراسات أندلسية**، العدد11، ص51

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ)، (د.ت)، **الحيوان**، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي.

الجبوري، جمعة حسين، (1433هـ/2012م)، **المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين الموحدين**، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، مؤسسة دار الصادق الثقافية، بابل.

الجبوري، سعد، (1422هـ/2002م)، **ثقافة الشاعر وأثرها في معايير النقد العربي القديم حتى نهاية العصر العباسي**، ط1، الدار المتحدة، مؤسسة الرسالة، دمشق.

جرار، صلاح، (1427هـ/2007م)، **قراءات في الشعر الأندلسي**، ط1، دار المسيرة– عمان.

الجرجاني، عبد القاهر (ت147هـ)، (1981م)، **دلائل الإعجاز**، دار المعرفة، بيروت.

الجمل، إيمان، (2007م)، **المعارضات في الشعر الأندلسي**، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية.

الجوهري، إسماعيل بن حماد، (ت393هـ)، (1404هـ/1984م)، **الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط3، دار العلم للملايين، بيروت.

الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، (ت453هـ)، (1972م)، **زهر الآداب وثمر الألباب**، دار الجيل، بيروت– لبنان، ط4.

حمدان، عبد الرَّحيم، (2008م)، معالم شخصية أبي العتاهية في الأندلس، مقالة على شبكة الإنترنت، موقع ديوان العرب.

ابن حمديس، أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر، (ت527هـ)، (1960م)، **ديوان ابن حمديس**،، ط1، صححه وقدم له إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله (ت488هـ)، (1417هـ/1997م)، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، ط1، تحقيق: روحية عبدالرحمن السويفي، دار الكتب العلمية– بيروت.

الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن محمد (ت440هـ)، (1987م)، **البديع في وصف الربيع**، ط1، تحقيق: عبدالله عبد الرحيم عسيلان، دار المدني– جدة.

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله (ت529هـ)، (1409هـ/1989م)، **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، تحقيق: حسين خريوش، ط1، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، الزرقاء.

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله (ت529هـ)، (1403هـ/1983م)، **مطمع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، تحقيق: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ابن الخطيب، لسان الدين، (ت776هـ)، (1421هـ/2001م)،، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ط4، تحقيق: محمد عنان، مكتبة الخانجي– القاهرة.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ)، (د.ت)، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر– القاهرة.

خليف، يوسف، (1981م)، **تاريخ الشعر في العصر العباسي**، ط1، دار الثقافة للطباعة والنشر– القاهرة.

خليف، يوسف، (1388هـ/1968م)، **حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة**، ط1، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

خليل، إبراهيم، (1427هـ/2007م)، **عروض الشعر العربي**، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان.

ابن خير، أبو بكر محمد بن خير الأموي الإشبيلي، (ت575هـ)، (1410هـ/1989م)، **فهرسة ابن خير الأموي الإشبيلي**، ط1، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري– القاهرة، دار الكتاب اللبناني– بيروت.

الداية، محمد رضوان، (1421هـ/2000م)، **في الأدب الأندلسي**، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق.

ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن (ت633هـ)، (1954م)، **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد بدوي، مكتبة الثقافة الدينية– القاهرة.

الدّش، محمَّد محمود، (1388هـ/1968م)، **أبو العتاهية حياته وشعره**، ط1، دار الكاتب العربي، للطباعة والنشر، القاهرة.

الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمد، (ت748هـ)، (1956م)، **تذكرة الحفَّاظ**، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد.

أبو الرب، هناء، (2009م)، **أثر أبي العلاء المعري في الأدب الأندلسي**، ط1، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع–عمان.

الرباعي، عبد القادر، (1984م)، **الصورة الفنية في النقد الشِّعري دراسات في النظرية والتطبيق**، دار العلوم، الرياض.

الرباعي، عبد القادر، (1999م)، **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

الرباعي، عبد القادر، (1999م)، **جماليات المعنى الشِّعري التشكيل والتأويل**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان.

الرواشدة، سامح، (1432هـ/2011م)، **الشعر وذاكرة الطفولة دراسة في شعر محمد لافي**، دار الكتاب الثقافي، إربد، دار المتنبي للنشر والتوزيع، إربد.

الرواشدة، سامح، (2012–2013م)، **جماليات التعبير في القرآن الكريم**، ط1، الصايل للنشر والتوزيع، عمان.

ريدان، سليم، (2001م)، **ظاهرة التماثل والتمييز في الأدب الأندلسي في القرن الرابع إلى السادس هجرياً**، ط1، جامعة منوبة، منوبة، تونس.

الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، (379هـ)، (1392هـ/1973م)،، **طبقات النحويين واللغويين**، ط2، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف–القاهرة.

الزبيدي، أبو الفضل محمد مرتضى الحسيني، (ت1205هـ)، (1392هـ/1972م)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: عبد الغرباوي، مطبعة حكومة الكويت.

الزعبي، زياد، (2007م)، **المثاقفة وتحولات المصطلح دراسات في المصطلح النقدي عند العرب**، ط1، دار الثقافة، عمان.

ابن زيدون، أحمد بن عبدالله، (ت463هـ)، **ديوان ابن زيدون**، الشركة اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى (ت685هـ)، (1987م)، **رايات المبرزين وغايات المميزين**، تحقيق: محمد رضوان الداية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى (ت685هـ)، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة.

السهيلي، إبراهيم بن موسى بن جاسر، (1416هـ/1994م)، **أثر شعر المحدثين العباسيين في الشعر الأندلسي**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

الشايب، أحمد، (1998م)، **تاريخ النقائض في الشعر العربي**، ط3، دار النهضة المصرية.

شراد، شلتاغ عبود، **أثر القرآن في الشعر الحديث**، 1408هـ-1987م، ط1، دار المعرفة، دمشق.

الشعكة، مصطفى، (1986م)، **الشعر والشُّعراء في العصر العباسي**، ط6، دار العلم للملايين- بيروت.

الشكعة، مصطفى، **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه**، 1983م، ط1، دار العلم للملايين، بيروت.

شلبي، سعد إسماعيل، (1973م)، **دراسات أدبية في الشعر الأندلسي**، ط1، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

الشوابكة، محمَّد علي، (1416هـ/1996م)، **شعر يحيى بن هُذيل القرطبي الأندلسي**، (ت389هـ)، جمع وتحقيق: محمد علي الشوابكة، ط1، منشورات جامعة مؤتة، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، الكرك.

الصابوني، محمَّد علي، (1421هـ/2001م)، **صفوة التفاسير تفسير القرآن الكريم**، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الضبّي، أحمد بن يحيى بن عمرة (ت599هـ)، (1967م)، **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، دار الكتاب العرب– القاهرة.

ضيف، شوقي، (1978م)، **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ط10، دار المعارف– مصر.

الطيِّب، أبو عبد الله محمد بن الكتاني، (ت420هـ)، (1400هـ/1981م)، **التشبيهات من أشعار أهل الأندلس**، تحقيق: إحسان عباس.

ابن عباد، أبو القاسم محمد بن عباد، (ت488هـ)، (1975م)، **ديوان المعتمد بن عباد**، تحقيق: الحبيب السويسي، الدار التونسية.

عباس، إحسان، (1985م)، **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين**، ط6، دار الثقافة– بيروت.

عباس، إحسان، (2001م)، **تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة**، ط1، دار الشروق– عمان.

عباس، إحسان، (2001م)، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد للشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري**، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

عبد الباقي، محمَّد فؤاد، (1422هـ/2001م)، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ط1، دار الحديث، القاهرة.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد، (328هـ)، (1427هـ/2006م)، **العقد الفريد**. ط2، تحقيق: وشرح محمد التونجي، دار صادر– بيروت.

ابن عبد ربه، أحمد بن عبد ربه (ت328هـ)، (1407هـ/1987م)، **ديوان ابن عبد ربه**، تحقيق وجمع: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق.

عبدالله، محمود لطفي، **التجربة الزهدية بين أبي العتاهية وأبي إسحاق الإلبيري** (دراسة موازنة)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس– فلسطين.

أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم (ت211هـ)، (1417هـ/1997م)، **ديوان أبي العتاهية**، شرح وتقديم عمر فاروق الطباع، ط1، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

أبو العتاهية، (1423هـ/2002م)، **ديوان أبي العتاهية**، ط1، دار الكتب العلمية– بيروت.

العجلوني، إسماعيل بن محمَّد (ت1162هـ)، (1341هـ)، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس**، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، (ت395هـ)، (1404هـ)، **الصناعتين**، تحقيق: مفيد قميحة، ط2، دار الكتب العلمية.

عصفور، جابر، (1978هـ)، **مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي**، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

عطوي، علي نجيب، (1401هـ/1981م)، **شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة**، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

العكش، إبراهيم علي، (1406هـ/1986م)، **التربية والتعليم في الأندلس**، ط1، دار الفيحاء ودار عمار– عمان.

عليمات، يوسف، (1431هـ/2010م)، "مركزية الفقد وثقافة التعاويذ دراسة أسلوبية في قصيدة مالك بن حريم الهمذاني"، **المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها**، المجلد السادس، العدد الثالث، ص106.

عيد، رجاء، القول الشِّعري، **منظورات معاصرة**، منشأة المعارف، الإسكندرية.

الغذامي، عبد الله، (1405هـ/1985م)، **الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية**، ط1، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية.

الغزال، يحيى بن حكم، (ت250هـ)، (1402هـ/1982م)، **ديوان يحيى بن حكم الغزال**، ط1، تحقيق وشرح محمَّد رضوان الداية، دار قتيبة، أبو ظبي.

غنيم، كمال أحمد، (1998م)، **عناصر الإبداع في شعر أحمد مطر**، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت175هـ)، (2004م)، **معجم العين**، ترتيب ومراجعة داوود سلوم وآخرون، ط1، مكتبة لبنان، ناشرون.

فيصل، شكري، (1965م)، **أبو العتاهية أشعاره وأخباره**، مطبعة جامعة دمشق، دمشق.

القرطاجني، حازم، (1981م)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، ط2، تحقيق: محمَّد بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر، (463هـ)، (2009م)، **الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال**، ط1، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار الكتب الوطنية- أبو ظبي.

القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر، (ت463هـ)، (1981م)، **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس**، ط2، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية- بيروت.

قصّاب، وليد، (1428هـ/2007م)، **مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية**، ط1، دار الفكر، دمشق.

القوّال، أنطوان، (2003م)، **شرح ديوان أبي العتاهية**، ط1، دار الفكر العرب- بيروت.

القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، (ت463هـ)، (1980م)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، حققه وعلق حواشيه: محمَّد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل للنشر والتوزيع.

القيسي، فايز، (2008م)، "ترجمة ابن السيد البطليوسي للفتح بن خاقان، دراسة وتحقيق"، **المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها**، المجلد الرابع، العدد الثاني، ص61-64.

القيسي، فايز، (1409هـ/1989م)، **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري**، ط1، دار البشير للنشر والتوزيع- عمان.

القيسي، فايز، (2012م)، **جماليات الخطاب الأدبي في النثر العربي القديم قراءات في الرؤيا والتشكيل**، وزارة الثقافة الأردنية، عمان.

الكفاوين، عمر، (2011م)، **تأثير امرئ القيس في الأدب الأندلسي**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك.

لويس، سيسل دي، (1982م)، **الصورة الشِّعرية**، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي وآخرون، دار الرشيد للنشر، العراق.

المجدلاوي، هيام، (2010م)، **الزهد في الشعر الأندلسي في القرنين الرابع والخامس الهجريين**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، غزة.

محمود، نافع، (1990م)، **اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري**، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة– بغداد.

المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي، (ت703هـ)، (1984م)، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن**، مطبعة دار المعارف الجديدة، الرباط.

مطلوب، أحمد، (1989م)، **معجم النقد العربي القديم**، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1.

مغالسة، محمود حسني، (1422هـ/2001م)، **النحو الشافي**، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت.

مفتاح، محمد، (1986م)، **تحليل الخطاب الشِّعري استراتيجية التناص**، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

المقدسي، أنيس، (1989م)، **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي**، ط7، دار العلم للملايين، بيروت.

المقَّري، أحمد بن محمد، (ت1041هـ)، (1419هـ/1999م)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، ط1، دار الفكر– بيروت.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم (ت711هـ)، (د.ت)، **لسان العرب**، دار صادر بيروت.

أبو نواس، الحسن بن هانئ، (ت199هـ)، (1418هـ/1998م)، **ديوان أبي نواس**، ط1، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، شرح وتقديم عمر فاروق الطباع.

نوفل، محمد محمود، (1403هـ/1983م)، **تاريخ المعارضات في الشعر العربي**، ط1، دار الفرقان، عمان، الأردن.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، (ت676هـ)، (1428هـ/2007م)، **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، ط1، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن عويضة، دار المنار، القاهرة.

هارون، عبد السلام محمد، (1418هـ/1998م)، **تحقيق النصوص ونشرها**، ط7، مكتبة الخانجي- القاهرة، 1418هـ- 1998م.

هلال، محمد غنيمي، (2004م)،، **الأدب المقارن**، ط3، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزي.

هياجنة، محمود سليم، (1430هـ/2009م)، **الخطاب الديني في الشعر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري**، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان.

هياجنة، محمود سليم، (1428هـ/2011م)، **الصورة النفسية في القرآن الكريم دراسة أدبية**، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان.

هيكل، أحمد، (1997م)، **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة**، دار المعارف، القاهرة.

الوليد، مسلم بن الوليد الأنصاري، (ت208هـ)، (د.ت)، **ديوان مسلم بن الوليد**، ترجمة وتحقيق: سامي الدهَّان، دار المعارف، القاهرة.

الياسين، إبراهيم منصور، (2006م)، **استيحاء التراث في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين**، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد.

المعلومات الشخصية

الاسم: طارق محمَّد فرحان السلامين

الكلية: الآداب

التخصص: الأدب العربي

السنة: 2014م

العنوان: العالمية– العقبة

ت: 0772248001

البريد الإلكتروني: tsalameen@yahoo.com